

العقل وما بعد الطبيعة

تأويل جديد لفلسفتي هيوم وكانط

محمد عثمان الخشت



المكتبة الفلسفية :
سلسلة كيف يفكر الغرب

العقل ورائع الطبيعة

تأويل جريد لفاسيفتي هيوم وكنت

تأليف
دكتور / محمد عثمان الخست
كلية الآداب - جامعة القاهرة

مكتبة ابن سينا

للنشر والتوزيع والتصدير
٧٦ شارع محمد فريد - جامع الفتح - النزهة
مصر الجديدة - القاهرة - ت. ٢٤٧٩٨٦٢ فاكس ٢٤٨٠٤٨٢

« العقل وما بعد الطبيعة » للباحث الشاب محمد عثمان الخشت تعتبر نموذجاً للدراسة العلمية الجادة والبحث الفلسفي الحر . فقد جمعت هذه الدراسة عدة خصائص علمية مثل التوازن الكمي بين الفصول ، وصغر حجمها نسبياً دون حشو أو استطراد .

وتقوم على فهم دقيق لفلسفتي كانط وهيوم وإعطاء تأويل جديد لهما مما يجعل صاحبه قادراً على استيعاب تاريخ الفلسفة في ذاكرة واعية قد صاحبها بمساحة واسعة للمقارنة والاستنتاج . كما أنها مكتوبة بلغة عربية رصينة تدل على طول باع صاحبه في التراث العربي الإسلامي وهو صاحب مؤلفات فقهية عديدة فيه .

وأهم ما يميز هذه الدراسة ما تتضمنه من رأى معلى بجرأة ووضوح ، وما تكشفه العلاقة الجدلية بين الفصول . هيوم قابع داخل كانط ، وكانط قابع داخل هيوم ، وأن المسافة بينهما ليست كما هو شائع ، كبيرة إلى حد التناقض بل قريبة إلى حد التكامل إن لم يكن التماثل . كانط عقلى وهيوم حسى . وكأن روح الفارابى القويمة تعود من جديد من « الجمع بين رأى الحكيمين : أفلاطون الإلهى وأرسططاليس الحكيم » فى محمد عثمان الخشت فى الجمع بين رأى الحكيمين : كانط الإيمانى وهيوم الحكيم . وبسبب هذه الدعوى تحولت الدراسة أحياناً إلى نوع من الدفاع فى قضية لتبرئة كانط العقلى من صورته وهيوم الحسى من ماديته ، وخروج الخصمين من ساحة القضاء متصالحين متحابين متآلفين . فالباحث ينتمى إلى حضارة جامعة وليست مفرقة ، كلية وليست تجزئية ، وكأنه سائر إلى مصالحة ثانية بين السلفية فى صورة كانط والعلمانية فى صورة هيوم حقناً للدماء بين الأخوة الأعداء فى عصرنا الراهن .

ولما كان هيوم أكثر عرضة للاتهام في حضارتنا من كانط نظراً لتفسيره الحسى المادى الشائع فإن الدفاع كان أقوى عن هيوم فمالت كفة الدراسة نحوه حتى ظهر اسمه فى الفصول الخمسة بينما توارى كانط المقبول معرفياً وأخلاقياً فى حضارتنا نظراً لتفسير المقال الدينى الشائع وأتى فى المرتبة الثانية بعد هيوم بالرغم من صدارته وأسبقيته فى العنوان . كانت القراءة المقارنة أقرب إليّ شد كانط إلى هيوم أكثر من شد هيوم إلى كانط .

ولإثبات الدعوى استعمل الباحث المنهج التاريخى لإثبات تطور كانط والمنهج البنىوى من أجل مقارنة المذهبين . كما توارى الموضوع الرئيسى مشكلة الميتافيزيقا ، وأصبح العقلانية مادام العقل أساس الميتافيزيقا ، وإثبات الدعوى كثرت القرائن والحيثيات والاستشهاد بالنصوص .

ومن ثم تقدم هذه الدراسة رؤية جديدة لتاريخ الفلسفة الغربية تتجاوز الصراع التقليدى منذ بداية العصور الحديثة بين العقلانية والحسية ، المثالية والواقعية ، الصورية والمادية . وتتولد عنها عدة رسائل أخرى للجمع بين ديكرت وبيكون ، بين لينتزل ولوك قبل كانط وهيوم ، وبين هيغل وماركس فيما بعد .

وربما توارت أيضاً قضية الصلة بين المعرفة والدين عند كانط وهيوم ، وقد كان الدين الطبيعى إحدى الموجهات لفلسفة هيوم ، ودين التقوى الباطنية إحدى البواعث على إنشاء الفلسفة النقدية عند كانط . وهو ما لحق به الباحث بعد ذلك فى دراسته التالية عن «فلسفة الدين عند كانط وهيغل» .

والسؤال الآن : هل من سبيل إلى معرفة هيوم فى نفسه ، هيوم بلسان هيوم ، وكانط فى نفسه ، كانط على لسان كانط ، سواء من حيث بنية النسق الداخلى لكل منهما أو من حيث تعبير كل مذهب عن ضرورة عصره قبل أن تتم المقارنات بينهما وتأويل أحدهما من خلال الآخر ؟ هذا هو التحدى الموضوعى لمؤرخ الفلسفة . صحيح أنه لا يوجد تاريخ موضوعى

للفكر وأن هناك قراءة باستمرار ، تلك مهمة الفيلسوف ، أما الباحث فإنه يعمل على إدراك حدوس الفلاسفة أولا ، تاركا الموضوع يأتي إليه ويهجم عليه قبل أن يذهب هو إلى الموضوع هاجما عليه . ومع ذلك يظل الصراع قائما بين الحقيقة التاريخية الموضوعية والحقيقة الذاتية التأويلية هو التحدى الأكبر للباحث الفيلسوف .

وفى هذا العصر الذى تتكاثر فيه الدراسات وتكرر المادة العلمية تبدو هذه الرسالة فريدة بينها لما تتميز به من موقف فلسفى تتفق عليه أو تختلف . وما أخرجنا إلى مثلها فى عصر تعز فيه المواقف .

د / حسن حنفى

مصر الجديدة ٢٣ / ٧ / ١٩٩٣



إشكالية البحث ومبرراته

فروجه .. ومنهجه

حين تلقى نظرة فاحصة على الدراسات التى أنجزها حتى الآن الباحثون العرب حول فلسفتى هيوم وكنط ، نجد أنها دأبت على تناول فلسفة كل منهما فى معزل عن الأخرى ، وفى الحالات القليلة التى يتعرض فيها بعضهم للعلاقة الفلسفية بينهما ، فإن ذلك لا يستغرق منه سوى القليل من العبارات أو الفقرات ، مكررا تكررا حرفيا لما قاله كنط نفسه عن علاقته بهيوم من أنه أيقظه من سباته الدوجماتيقي ، ومن أن تلك اليقظة الكنطية قد تمخضت عن الإجابة عن مشكلة هيوم .

وفضلا عن ذلك ، فإن تلك البحوث عن هذين الفيلسوفين لا تخرج عن كونها عرضا أو تقديما لفلسفتيهما ، وكأن كل فيلسوف منهما بعد أن عبر عن فلسفته بلغته الوطنية فى القرن الثامن عشر ، يعبر عنها هنا والآن باللغة العربية .

هذا باستثناء محاولة د/ يحيى هويدى الذى قرأ كنط قراءة جديدة فى كثير من جوانبها ، لاسيما نظرتة المتميزة للثورة الكوبرنيقية وكيف أنها - من وجهة نظره - كانت ثورة بطلمية ، ثم تأويله لمثالية كنط على أنها مثالية من نوع جديد ، فالمثالية الكنطية عنده لاتدل على المذهب الذى يتعد عن التجربة الحسية ، بل على المذهب الذى يهجم على التجربة ليتسلط عليها ويخضعها له ، وذلك عن طريق بحثه بحثا ابستمولوجيا فى الشروط الأولية التى تجعل هذه التجربة ممكنة من الناحية العقلية الصرفة فقط .

وأیضا باستثناء محاولة د/ زكى نجيب التى قدمت قراءة تأويلية لکنط تقربه من الوضعیة المنطقية ، ومحاولة د/ مراد وهبة الذى أعاد بناء المذهب عند كنط من خلال «الكل المطلق» أى «الفكرة» ومحاولة د/ حسن حنفى

فى «مقدمة فى علم الاستغراب» الذى قرأ فيه كنى من منظور العقل والإيمان .

فباستثناء هذه المحاولات فإن كل الدراسات العربية تدور فى فلك العرض والاجترار وتفتقر إلى التأويل ووجهة النظر وعدم التوسع فى بيان علاقة كنى بهيوم .

وأسارع بالقول بأننى لا أقلل مطلقاً من أهمية تلك المحاولات ، بل على العكس من ذلك أظنها ضرورية وهامة فى الفترة السابقة من نهضتنا الفكرية المعاصرة ، حيث كنا - ومازلنا - بحاجة للتعرف على هؤلاء الفلاسفة على ما هم عليه ، أى دون تأويل أو تفسير ، ولكنى أظن أنه قد آن الأوان لكى يكون هناك لون من الدراسات لا تكتفى بالوقوف عند العرض والتقديم بل تحاول أن تقدم قراءات متنوعة ومتعددة لهؤلاء الفلاسفة .

ولو انتقلنا لمجال البحوث الأجنبية ، فى حدود اطلاعنا ، نستطيع القول بأن تلك الدراسات وإن تناولت العلاقة بين هيوم وكنى إلا أنها دائماً تسير حسب التسلسل التاريخى من هيوم إلى كنى فى إطار مشكلة العلية ، وتؤكد فى الغالب الأعم أن كنى قد أجاب على هيوم ، الأمر الذى يفسر لنا توجه مثل تلك الدراسات إلى الكنتية فى المحل الأول مع تراخيها فى قراءة فلسفة هيوم . كما تتصور تلك الدراسات أن العلاقة بين هيوم وكنى هى علاقة تضاد وتصادم بين فيلسوف تجريبى وفيلسوف عقلانى مؤكدة على أن هيوم قد هدم الميتافيزيقا ورفضها كلية . فتلك الدراسات التى تحتل دائماً المركز فى مجال الدراسات الهيومية الكنتية تنطلق دائماً من نفس المقدمات ، ولذا فهى تنتهى إلى نفس النتائج .

مقدماتها هى :

- ١- هيوم تجريبى .
- ٢- هيوم هدم الميتافيزيقا ورفضها كلية .
- ٣- السير دائماً من هيوم إلى كنى فى إطار مشكلة العلية .
- ٤- العلاقة بين هيوم وكنى علاقة تضاد وتصادم بين فيلسوف تجريبى وفيلسوف عقلانى .

النتائج التي تنتهي إليها هي :

١ - كنط أجاب عن مشكلة هيوم .

٢ - التوجيه لقراءة الكنطية ، وقطع القراءة عن فلسفة هيوم .

هنا أساءل : ماذا يكون الأمر لو استطعنا تصديق تلك المقدمات أو بعضها ؟ هل سننتهي إلى نفس النتائج التي انتهت إليها الدراسات المركزية الشائعة ؟

بديها : لا !!

وفي هذا تكمن الإشكالية العامة لبحثنا ، تلك الإشكالية العامة تتضمن في داخلها إشكاليات متعددة ذات طابع خاص ، هذه الإشكاليات هي نفسها المقدمات المقررة في البحوث الشائعة . ذلك أننا من خلال القراءة في النصوص الهيومية الكنطية بجانب بعض البحوث الهامشية (أى التى توضع دائما فى الأطراف) بالمقارنة بالبحوث المذكورة أعلاه التى تحتل المركز فى دائرة الدراسات الهيوممكنطية - أقول من خلال تلك القراءة قد وجدنا كثيرا من القرائن ، بل ومن الشواهد ، ما يجعلنا نجد مبررا لإعادة النظر فى تلك المقدمات ، ذلك أن تلك النصوص والدراسات تشير - وبشدة - إلى زيف التجريبية الإنجليزية وإلى كونها تجريبية هشة ، وبالتالى ترفض وصف هيوم بالتجريبى الصارم ، وتعدده عقلانيا ديكارتيا قد قام برسم صورة واقعية للإنسان والطبيعة والمجتمع ابتداء من عناصر ذاتية خالصة : هى الأفكار ، بل وأنه حاول اتخاذ الميتافيزيقا علما عن طريق استرشاده بالنهج الذى وفق إليه نيوتن فى مجال الميكانيكا السماوية وتطبيقه على دراسة (الذهن البشرى) ، وبالتالى السعى إلى الانتقال من أحكامنا الجزئية التى نطلقها على الأشياء إلى مبادئها الأعم . وقد توصل هيوم فى هذا الصدد إلى أن هناك ثلاثة قوانين أصلية أولية تحفظ النظام فى الذهن مثلما يحفظ قانون الجاذبية نظام الكون .

وإذ كان البعض ما يزال يسيطر على تفكيره وهم المسرح وبأبى إلا

الخضوع لآراء كبار المؤرخين والفلاسفة ، فإن مؤرخا كبيرا هو أميل برهيه .
قد نص حرفيا على أن « هدف هيوم هو هدف كثير من مفكرى زمانه وعلى
الأخص منهم كوند ياك ، وهو اتخاذ الميتافيزيقا علما » ... كما أن فيلسوفا
كبيرا مثل هيجل قد نص حرفيا أيضا فى موسوعة العلوم الفلسفية على أن :
« كل فلسفة تصف نفسها بالتجريبية العلمية (ومنها طبعا فلسفة هيوم)
تستخدم مقولات ميتافيزيقية مثل : المادة ، والقوة ، والواحد ، والكثير ،
والعمومية ، واللامتناهى ... الخ ، وهى تتابع هذه المقولات وتستخرج منها
نتائجها ، وهى بذلك تفترض مقدما الصورة القياسية (أو شكل القياس فى
التفكير) وتستخدمها ، دون أن تدرك طوال هذا الوقت أنها تتضمن فى
جوفها الميتافيزيقا ، وأنها تستعمل هذه الميتافيزيقا ، وتستفيد من هذه
المقولات وتراكيبها بأسلوب غير نقدى » ، كما يقرر هيجل « أن الفروق
والاختلافات بين الأشياء التى يؤكد المذهب التجريبي - مستفيدا من
صورة التحليل الذى يبدأ من العيني - ليست قبل كل شىء سوى صفات
مجردة ، أعنى أفكارا . ولقد قيل أن هذه الأفكار هى الماهية الحقيقية للأشياء
وهكذا/نرى البديهية القديمة التى كانت تأخذ بها الميتافيزيقا تعود إلى
الظهور من جديد ، وهى القول بأن حقيقة الأشياء تكمن فى الفكر » .
ويقول بيردوكاسيه فى كتابه (الفلسفات الكبرى) : « أما هدف هيوم فإنه
ينحصر فى محاولة تحويل الميتافيزيقا إلى علم نيوتونى ، وفى الانتقال من
أحكامنا الفردية على الأشياء إلى مبادئها العامة » . ويقول رسل فى (حكمة
الغرب) : « توحى محاولته - أى هيوم - تشييد مذهب جديد بأنه تأثر
بالمذهب العقلى السائد فى القارة الأوربية ، وذلك بسبب الصلات التى
ربطت بينه وبين المفكرين الفرنسيين الذين ظلوا متأثرين بالمبادئ الديكارتية »
وعندما يتحدث محرر الموسوعة الفلسفية عن الميتافيزيقا فإنه يقول فى سياق
كلامه : « وثمة تحول للتأكيد أكثر إثارة للانتباه حين ننتقل إلى
الميتافيزيقيين النقيدين هيوم وكنت » ، ويقول فى موضع آخر :
« ويتطلب هيوم وكنت ، ذلكما الميتافيزيقيان النقيديان ، انتباها خاصا

منفصلا . وعندما يتكلم كمنظور عن هيوم وخصومه فإنه يقول إنهم : « أنكروا ما قام به - يقصد هيوم - من أجل إصلاح الميتافيزيقا » . الأكثر من هذا أن هناك نصوصا عند هيوم تشير صراحة إلى كونه لم يرفض الميتافيزيقا على الإطلاق ، وإنما رفض الميتافيزيقا الزائفة فحسب .. يقول هيوم واصفا البحث في طبيعة العقل الإنسانى إنه : « تحصيل الميتافيزيقا الحقبة بشيء من العناية لتحطيم الميتافيزيقا الزائفة والدخيلة » . كما أن هناك نصوصا تشير الشك في تجريبيته مثل قوله : « مهما كانت درجة تركيزنا لانتباهنا خارج أنفسنا ، ومهما تعقبنا خيالنا إلى السموات أو إلى أطراف الكون فلن نتقدم بالفعل خطوة واحدة خارج أنفسنا » .

ثم ألا يشير تشكيك هيوم في الحواس الى دلالة صريحة تقول إن هيوم فيلسوف عقلانى لاسيما أننا اعتدنا من الفلاسفة العقلانيين أن يصدر منهم مثل هذا التشكيك ؟

وإذا كان هيوم قد أراد أن يدخل المنهج التجريبي للاستدلال فى العلوم الفلسفية مقتفيا فى ذلك أثر علماء الطبيعة الذين تمكنوا باستخدامه من تحقيق نتائج باهرة ، فإن هذا المنهج نفسه ينطوى على مقدمات عقلية واضحة كشف كمنظور النقاب عنها عندما قال « يدين العلم الطبيعى نفسه فى الثورة النافعة التى أحدثها فى طريقة تفكيره لتلك الفكرة الوحيدة التى تجعل العقل لا يبحث فى الطبيعة إلا عما وضعه هو فيها » ، ويوضح لنا كمنظور هذا المعنى بتطبيقه على كشف جاليليو ونيوتن وتورشيللى وشتال .. وعلى سبيل المثال هنا ، فإن تورشيللى عندما أجرى تجربته لإثبات الضغط الجوى أو أن للهواء ضغطا قد توقع ارتفاع عمود الزئبق فى الأنبوبة بمقدار الضغط الجوى وهو يعادل ٧٦ سم من الزئبق . وقد توقع تورشيللى هذا بناء على ما أجره من عمليات حسابية وقبل أن يشرع فى تجربته .

اذن فالمنهج التجريبي للاستدلال فى العلوم الطبيعية الذى حاول هيوم إدخاله فى الفلسفة - هو نفسه عقلانى البداية والأصل .

أليس فى كل هذا ما يجيز إعادة النظر فى القول بأن هيوم تجريبى صارم ،
وفى الزعم بأنه رفض الميتافيزيقا على الإطلاق ، ولا سيما أن النصوص التى
يعتبرها الكثيرون صريحة فى رفضه للميتافيزيقا يمكن تأويلها دون تعسف أو
مبالغة ؟

أقول : أليس فى هذا ما يجيز إعادة النظر ، لأننى لا أعنى بكل ما قدمت
من نصوص وتفسيرات التأكيد والجزم بعقلانية هيوم وميتافيزيقيته ، حيث
أننى أعلم أن هناك نصوصا تشير إلى عكس ذلك بنفس القوة التى تنطوى
عليها النصوص الواردة .. فأنا لا أقصد التأكيد والجزم ، بل أقصد إثارة
الشك فى أمور كادت أن تكون عند البعض مسلمات . ذلك أننا نعلم - من
خلال مناهج البحث العلمى والفلسفى - أنه لو قامت كثير من الشواهد
والأدلة على تأكيد تفسير ما ، ثم جاء دليل واحد أو أكثر معاكس لها ، فإن
هذا يقتضى عدم الجزم بصحة مثل هذا التفسير ، وجعله موضعاً للشك ، مما
يعنى منطقية وضرورة البحث والنظر بحثاً عن التفسير الملائم .

وهنا أساءل : ماذا لو تمخض البحث عن إثبات أن هيوم كان عقلانيا ،
وأنه إن كان قد رفض الميتافيزيقا ، فإنه لم يرفضها بإطلاق ، بل رفض
الميتافيزيقا التقليدية التى تفتقر إلى القضايا البرهانية أو الاستقرائية ، ولذا فقد
عمل على اتخاذ الميتافيزيقا علما - أقول : ماذا لو ثبت ذلك ؟

لو ثبت ذلك لتصدعت مقدمتان أساسيتان ترتكز عليهما البحوث الشائعة
التي تعنى بتناول العلاقة الفلسفية بين كمنط وهيوم ، هما :

١ - هيوم تجريبى صارم .

٢ - هيوم رفض الميتافيزيقا على الإطلاق .

وهذا يعنى بالتالى زعزعة مقدمة ثالثة ترتكز عليها تلك البحوث هى :

٣ - أن العلاقة بين كمنط وهيوم علاقة تضاد وتصادم بين فيلسوفين :
أحدهما عقلانى ، والآخر تجريبى .

ولا يبقى بعد ذلك إلا مقدمة أخيرة تنطلق منها تلك البحوث هى :

٤- السير في بحث العلاقة بين فيلسوفينا : من هيوم إلى كنت في إطار مشكلة العلية .

وهذا الأسلوب في السير يمثل في نظرنا نقطة ضعف جوهرية في الطريقة التي انتهجتها تلك الدراسات السابقة ، وذلك لسببين اثنين :

أولهما : أن مثل هذه الطريقة تركز توجهها - كما قلنا سابقا - على الفلسفة الكنتية ، وتقطع القراءة عن فلسفة هيوم .

ثانيهما : أن مثل هذه الطريقة في البحث لم تتمثل المسألة بكل جوانبها وسعتها ، وإنما اكتفت بتناولها من جانب واحد فقط هو العلية في حين أن المسألة ليست حالة خاصة بالعية فحسب ، وإنما هي حالة ملكة العقل المجرد كلها .

ولو استطعنا زعزعة المقدمات التي انطلقت منها الدراسات التقليدية ، فإن تلك الزعزعة في حد ذاتها تتضمن طرحا لمقدمات جديدة هي :

١- هيوم عقلاني .

٢- هيوم عمل على اتخاذ الميتافيزيقا علما .

٣- العلاقة بين كنت وهيوم علاقة بين فيلسوفين عقلانيين

٤- الأسلوب الأمثل في بحث العلاقة بين فيلسوفينا هو السير من كنت لهيوم - لا العكس - في إطار ملكة العقل المجرد كلها .

ولكن هذا لا يعنى أننا سنقرأ هيوم قراءة كنتية فقط ، بل إننا سنعمل على قراءة كنت نفسه قراءة هيومية ، حتى تكتمل الصورة وتتضح الرؤية .

تلك المقدمات هي نفسها النتائج التي نطمح أن يتخمس عنها البحث ، والتي ستمثل بدورها مقدمات سنحاول من خلالها قراءة كنت وهيوم محاولين التعرف على طبيعة العلاقة الفلسفية بينهما مجيبين على السؤال الأساسي :

هل أجاب كُنْط عن مشكلة هيوم؟؟

وبناء على هذا فلن يكون بحثنا عرضاً لفلسفتي كُنْط وهيوم يقف عند العبارات والنصوص ، بل قراءة لهما ، لكنها ليست قراءة تتعقب التفاصيل ، بل قراءة كاشفة مشخصة للأعراض ، تقف عند الفضاء الموجود بين العبارات أو ورائها أكثر مما تقف عند العبارات نفسها ، تتصيد المعنى الباطني الجواني لنصوص كُنْط وهيوم أكثر مما تنشد المعنى الظاهري البراني ، ليست قاعة بما هو منطوق به وحده بل متطلعة إلى استنباط ما هو مسكوت عنه أو ما يعجز عنه نطاق القول .

ومن هنا فقد وجدنا أن أفضل منهج يمكن استخدامه هو منهج التأويل بشكل عام . وسعياً وراء الخصوبة والتنوع في القراءة ، عملنا على توظيف عدة مناهج ، مثل المنهج البنيوي ، والمنهج التاريخي ، والمنهج الجدلي ، كل منها يتم اللجوء إليه حسبما يقتضي سياق البحث ذلك ، فالموضوع المدروس هو الذي يحدد طبيعة المنهج ، لا العكس ، على أنه في أحيان كثيرة يتم التداخل والمزاوجة بين منهجين أو أكثر إذا كانت المسألة تقتضي التقلب على أكثر من وجه .

والله من وراء القصد ،،

د / محمد عثمان الخشت

كلية الآداب - جامعة القاهرة

المعادي في : ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الفصل الأول

العلم والمشكلة الهيومو - كنطية

* تمهيد .

* حقيقة الثورة الكوبرنيكية وأثرها

في هيوم وكنط .

* طبيعيات نيوتن المقلانية وأثرها

في هيوم وكنط

تمهيد:

من المتعذر فهم الفلسفة الحديثة دون وضع الثورة العلمية فى الاعتبار ، ذلك أن سبب التحول الجذرى فى توجهات الفكر الغربى يظل كامنا فيما قدمه كوبرنيقوس وطوره نيوتن حتى بلغ به أوج نضجه واكتماله .

ولعل أكثر الفلسفات استجابة للثورة العلمية فلسفتا هيوم وكنط ، هذان الفيلسوفان اللذان أقاما مشروعهما الفلسفى على أساس التحولات العلمية المنهجية التى شهدتها عصرهما .

ولقد كان إعجاب هيوم وكنط بما حققه العلم من تقدم هائل ، فى نفس الوقت الذى شاهدها فيه فشل الميتافيزيقا ، هو الدافع لهما نحو التساؤل عن :

سرتقدم العلم وفشل الميتافيزيقا .

وقد أدى بهما هذا التساؤل بدوره الى البحث فى طبيعة العلم وأسباب تقدمه ، وطبيعة الميتافيزيقا وأسباب فشلها .

إن تسجيلهما لفشل الميتافيزيقا واعترافهما بتقدم العلم ، لم يذهب شعورهما القوى بأهمية الميتافيزيقا وقيمتها الأبدية ، بل حاول كل منهما أن يبحث عن منهج جديد لها يمكنها من تحقيق تقدم مماثل لذلك التقدم الذى حققه العلم .

أما هيوم فقد ظن أن سبب تقدم العلم يكمن فى استخدامه للمنهج التجريبي ، ولم يتمكن من اكتشاف عقلانية هذا المنهج ؛ حيث صدق نيوتن فى وصفه لمنهجه بأنه تجريبي ، فى حين اكتشف كنط ماهية هذا المنهج التى تتمثل فى كونه منهجا عقلانيا أصيلا .

ومن هنا فقد حاول كل منهما على طريقته أن يقيم الميتافيزيقا علما على

غرار العلم الطبيعي . وبناء على ذلك فإن هدفى العام من هذا الفصل يتمثل فى بيان العلاقة الجدلية بين العلم الطبيعي والإشكال الفلسفى عند هيوم وكنط ، أما هدفى الأخص فهو بيان كيف تأثر كنط بهيوم فى تحديد ملامح إشكاله الفلسفى ، رغم فشل هيوم فى اكتشاف عقلانية العلم ونجاح كنط فى ذلك ، وكيف أن اكتشاف عقلانية العلم يؤكد عقلانية هيوم الذى حاول إقامة الميتافيزيقا علما على غرار العلم النيوتونى .

حقيقة الثورة الكوبرنيقية وأثرها فى هيوم وكنط :

من المعلوم أن الثورة العلمية الحديثة بدأت مع كوبرنيقوس ، وبلغت أوجها مع نيوتن ، ولذا فإننا إذا أردنا الوقوف على طبيعة الثورة العلمية لابد أن نعرف طبيعة ومضمون الإنجاز الذى قدمه هذان الرائدان . وحسب التسلسل التاريخى سنبدأ أولا بكوبرنيقوس وكيف أثر فى هيوم وكيف استجاب هذا الأخير له ثم نشئ بكنط الذى تمخض تأثره بكوبرنيقوس عن ثورة فلسفية .

ما هى الثورة الكوبرنيقية ؟ وما هى دلالتها الفلسفية ؟

كانت أول خطوة خطتها العلوم الطبيعية فى عصر النهضة الأوربية ، هى التخلص من نظرية بطليموس التى قدمها فى كتابه المجسطى ، على يد كوبرنيقوس الذى رأى أن حركات الكواكب إذا فسرت على أن الأرض مركزها ستبدو معقدة وأنه كلما ازداد الرصد دقة ازدادت حركاتها تعقدا ، هذا رغم أن روح قوانين الطبيعة تكمن فى «البساطة» ، فحاول أن يجد نظرية فى حركة الكواكب قائمة على أساس هذا المبدأ : مبدأ البساطة ، فوجد أن اعتبار أكبر الأجرام مركزا لحركة سائر الأجرام بما فيها الأرض ، يزيل جميع التعقيدات التى تشيرها نظرية بطليموس ويجعل حركات الكواكب بسيطة للغاية ، ويمكن على أساسه تفسير حدوث الفصول الأربعة وحدث الليل والنهار وكل الظواهر الفلكية الأخرى . وكما يقول كنط :

« جرب كوبرنيقوس بعد أن وجد أنه فشل في تفسير حركة الأجرام السماوية علي أساس افتراض أن جميع الأجرام السماوية تدور حول المراقب لها ، جرب أن يعكس الوضع وأن يسأل نفسه إن لم يكن من الأوفق أن يدور المراقب على حين تظل النجوم ثابتة » . (١)

وبافتراض كوبرنيقوس مركزية الشمس لتفسير حركات الأجرام السماوية أحدث ثورة علمية في طريقة التفكير ، حيث احتوت نظريته على ثلاث قضايا جديدة هي :

١- أنه ادعى أن فرضه أكثر بساطة ، ليس بالمعنى الكمي ، ولكن بالمعنى الكيفي الذي يعطى تفسيراً موحداً لبعض الظواهر الكوكبية التي كانت تسير سيرا اعتباطياً في النظام البطلمي .

والاحتكام إلى مبدأ البساطة لم يكفد يكون جديداً تماماً ، لكن كوبرنيقوس استنتج منه القضيتين الآتيتين :

٢- إن الفرض الأبسط تمكن من أن يؤدي بنا إلى التسليم بعدم التعويل على التجربة العادية بوصفها فهماً مألوفاً .. إن الشمس ربما تظهر فتتحرك ، فتشرق ، ثم تغيب ، لكن الظاهرة نفسها يمكن أن تفسر عن طريق افتراض حركة الأرض .

٣- إن الفرض الأبسط أدى إلى تفسير في المنظور أو الرؤية ، حيث أصبحت الأرض ليست بحاجة لأن تكون مركز العالم . (٢)

1- Kant, Critique of pure reason . Trans, by N.K. Smith (London : Macmillan & CO LTD, 1964) P. 22.

2- Nicholes Capaldi, "The copernican Revolution in Hume and kant," in proceedings of the Third international kant congress, ed Lewis white Beck (Dordrecht . Holland : D. Reidel Publishing Co., 1972), PP. 234-5 .

وقد استمر الجدل لأكثر من قرن ، حتى محا التقدم العلمى المتتالى على يد جاليليو وكبلر ونيوتن - النظرية البطلمية والتصورات الأرضية من الساحة العلمية ، وانتصر الفرض الكوبرنيقى ، وأثر أعمق الأثر فى سير الفلسفة الحديثة ، لوضعه الاستدلال الرياضى فوق شهادة الحواس من ناحية ولتفسيره الظواهر بأقل عدد من المبادئ البسيطة من ناحية أخرى .

ولقد تأثر هيوم بكوبرنيقوس فى الناحية الأخيرة ، حتى اعتبره البعض الكوبرنيقى الذى يناصر بوضوح مبدأ البساطة ^(١) ، فى حين أنه لم يتأثر بالناحية الأولى من إنجاز كوبرنيقوس .

وكان هيوم على وعى بتأثره بكوبرنيقوس فى تلك الناحية ، كما يتضح لنا ذلك من خلال نص بالغ الدلالة والمغزى يقارن فيه بين علم الفلك قبل كوبرنيقوس وبعده ، وبين الفلسفة الأخلاقية قبله هو (= هيوم) وبعده ، فإذا كان علم الفلك فيما قبل كوبرنيقوس يقدم نظرية فى السماوات بالغة التعقيد ومع ذلك فإنها عاجزة عن تفسير الظواهر ، فإن كوبرنيقوس قد استطاع أن يقدم تصورا بسيطا يستند إلى أقل عدد من المبادئ فى تفسير النظام الكوكبى ، الأمر الذى طور علم الفلك تطورا جذريا ، ودفع به الى الأمام بعد أن كان يتخبط فى دياجير الفشل والتعثر . إذا كان ذلك كذلك ، فإن هيوم يرى أن تحقيق تقدم مماثل فى الميتافيزيقا يستلزم تفسير الطبيعة الإنسانية على أساس عدد قليل من المبادئ البسيطة .

وهذا ما عمل هيوم على تنفيذه ، إذ فسر الطبيعة الإنسانية على أساس قانون التداعى بمبادئه الثلاث : مبدأ السببية ، مبدأ التجاور فى الزمان والمكان ، مبدأ التشابه .

فالتبيعة الإنسانية التى كانت تفسر فيما مضى بعدد ضخم من المبادئ المعقدة والخرافية ، أصبحت الآن تفسر مع هيوم بمبادئ ثلاث فقط .

1- Ibid., P. 236 .

وستحدث عن هذه المبادئ بالتفصيل فى فصل «عقلانية هيوم» ، فما يهمنا الآن هو التوكيد على رأى هيوم فى السبب المنهجى لتقدم علم الفلك على يد كوبرنيقوس ، وكيف أن من الضرورى توفر مثل هذا السبب فى الدراسة الفلسفية إذا ما أرادت تحقيق تقدم مماثل .. يقول هيوم : «إن الفلسفة الأخلاقية فى نفس الحالة التى كانت عليها الفلسفة الطبيعية فيما يتعلق بعلم الفلك قبل عصر كوبرنيقوس .. إن الطبيعة لا تفعل شيئا عشا ، ويبدو أن استنباط مثل ذلك النظام المعقد للسماوات (يقصد النظام البطلمى) غير منسجم مع الفلسفة الحققة ، مما يعطى المكانة فى النهاية لشيء ما أكثر بساطة وطبيعية . إن اختراع مبدأ جديد بدون تردد لكل ظاهرة جديدة بدلا من تكيفها مع النظام القديم ، وتحميلنا فروضا متنوعة من هذا الصنف ، لهو دليل مؤكد على أنه ليس أى من هذه المبادئ مبدأ دقيقا ، وأنا نرغب فقط ، بعدد من الكذبات ، أن نغطى جهلنا بالحقيقة » . (١)

إن مقارنة هيوم هذه بين علم الفلك والفلسفة تستدعى إلى الذهن فورا مقارنة كمنط بينهما التى أثارها فى مقدمة الطبعة الثانية للنقد ، وهو ما سنشره بعد قليل ، المهم الآن أن نلاحظ كيف أن هيوم نجح فى اكتشاف أحد الجانبين المحوريين فى الثورة الكوبرنيقية فى حين أنه لم يتمكن من اكتشاف الجانب الثانى ، ذلك الجانب الذى اكتشفه كمنط ، إذ تبين له أن تقديم الفرض العقلى على شهادة الحواس هو أساس الثورة العلمية التى قام بها كوبرنيقوس ، وهو ما ينبغى أن تقبله الفلسفة إذا أرادت أن تصبح علما . يقول كمنط موضحا جوهر الكشف الكوبرنيقى إنه «جرب بعد أن فشل فى تفسير حركة الأجرام السماوية على أساس افتراض أن جميع الأجرام السماوية تدور حول المراقب لها ، جرب أن يعكس الوضع وأن يسأل نفسه إن لم يكن من الأوفق أن يدور المراقب على حين تظل النجوم ثابتة» . (٢)

1- Hume, A Treatise of Human Nature, ed. L.A. Seliby-Bigge (Oxford : The Clarendon Press, 1968) , P. 282 .

2- Kant, Critique of Pure Reason, P. 22 .

فشهادة الحواس كانت تؤكد أن الأرض ثابتة وأن الأجرام السماوية هي التي تدور حولها ، وهذا كان جوهر النظام البطلمي ، ولكن رغم شهادة الحواس بذلك إلا أن هناك كثيرا من الظواهر التي كان يستحيل تفسيرها في ضوء ذلك النظام ، فافترض كوبرنيقوس العكس وهو أن تكون الأرض هي التي تدور حول الشمس ، ثم بحث إمكانية تفسير الظواهر التي كان يستحيل تفسيرها في ظل النظام القديم ، فوجد أن الافتراض الجديد يسمح بتفسيرها ، ثم تحقق من ذلك رياضيا ، فتأكد له صحة الافتراض المقدم .

هذا الاكتشاف الكوبرنيقي أراد كمنط أن يطبقه في الميتافيزيقا ، حيث جرى الرأي حتى زمن كمنط - فيما يقول كمنط نفسه - على التسليم بأن كل معرفتنا يجب أن تتطابق مع الموضوعات كما هو الحال في التيارات التجريبية والحسية المتطرفة ، بيد أن جميع المحاولات التي بذلت لتأكيد شيء عنها (أى عن الموضوعات) بصورة قبلية عن طريق المفاهيم ؛ بحيث تتسع معرفتنا وتزداد ؛ قد باءت بالفشل بفعل هذا الفرض المسلم به . فلنحاول إذن أن نجرب مرة واحدة إن كنا سنصبح أكثر توفيقا في مسائل الميتافيزيقا إذا سلمنا بأن الموضوعات يجب أن تتطابق مع معرفتنا ، الأمر الذي يمكن أن يتفق بصورة أفضل مع إمكان التوصل إلى معرفة قبلية بهذه الموضوعات وتحديداتها بصورة ثابتة قبل أن تعطى لنا . بهذا حاول كمنط أن يطبق نفس الفكرة التي خطرت لأول مرة على ذهن كوبرنيقوس ، لأن حدس الموضوعات إذا كان لا بد - وفق النظام القديم - أن يتطابق مع الموضوعات ، فإنه لا يمكن أن نعرف أى شيء عن الموضوعات معرفة قبلية . أما إذا تطابق الموضوع بوصفه موضوعا لحواسنا مع طبيعة ملكة الحدس ، فإنه يمكن في هذه الحالة بسهولة تصور إمكان مثل هذه المعرفة القبلية .

وإذا أريد لهذه الحدوس أن تصبح معارف ، فإن كمنط يرى أنه ليس بالإمكان التوقف عند هذه الحدوس فقط ، بل إنه عليه أن يربطها - بوصفها تمثلات - بأى شيء يصلح أن يكون موضوعا وأن يحدد هذا الموضوع عن طريق تلك الحدوس . وهنا وجد نفسه مرة أخرى بين أحد

فرضين :

إما أن يسلم بأن المفاهيم التى يستعين بها فى هذا التحديد تتطابق هى أيضا مع الموضوع . وهذا احتمال ممتنع ، لأنه لو سار على أساسه سيقع فى نفس الإشكال الذى وقع فيه من قبل وجعله فى حيرة بالنسبة للطريقة التى يمكن بها أن يعرف عن الموضوع أى شىء معرفة قبلية .

وأما الفرض الثانى : فهو أن يفترض أن الموضوعات أو أن التجربة - والأمر سواء - التى لا تعرف هذه الموضوعات بوصفها معطاة إلا فيها - تتطابق مع المفاهيم . وهذا الفرض تبين لكنط صحته لأن التجربة ذاتها - فيما يقول كنط - نوع من المعرفة يتطلب الفهم الذى أحتفظ فى نفسى بقواعده من قبل أن تعطى لى الموضوعات ، وأفترض وجودها بصورة قبلية تعبر عنها المفاهيم القبلية التى لا بد أن تتطابق معها موضوعات التجربة تطابقا ضروريا .^(١)

بهذا التصور الجديد للمعرفة قدم كنط منهجا مبتكرا فى طريقة التفكير فحواه : «أنا لا نعرف قبلنا عن الموضوعات إلا ما نضعه نحن أنفسنا فيها» .

وإذا ما سارت الميتافيزيقا على هذا المنهج المقتبس من كوبرنيقوس ، فإنها تكون قد وضعت أقدامها على الطريق الصحيح للعلم ، حيث إن هذا التغيير فى منهج التفكير يؤدى تماما إلى تفسير إمكان قيام المعرفة القبلية ، بل ويساعد على إقامة البراهين الكافية على القوانين التى تقوم عليها الطبيعة بوصفها مجموع موضوعات التجربة ، وقد كان كلا الأمرين مستحيلا فى ضوء المنهج القديم .

غير أن هذا الأسلوب فى استنباط القدرة على المعرفة القبلية ستسفر عنه نتيجة بالغة الضرر بالغاية والمطلب الأساسى لعلم الميتافيزيقا ، حيث سيتضح أنه لا يمكن بواسطة هذه الملكة مجاوزة حدود التجربة الممكنة .

وقد كان كنط متوقعا لهذا تماما ، بل ويقر به ، لكنه يرى أن :

1- Kant, Critique of pure Reason, PP. 22-23 .

« صدق النتيجة التى نصل إليها من ذلك التقدير الأول لمعرفتنا العقلية القبلية والذى يمكن اختباره والتحقق منه عن طريق التجربة - هو أن هذه المعرفة لا تتعلق إلا بالظواهر ، أما الأشياء فى ذاتها وإن تكن موجودة بذاتها وجودا واقعا - فإنها تظل بالنسبة لنا غير معروفة» (١) .

وقد تأكد لكنط صحة هذه النتيجة ، وتبين له أيضا أن الفرض الذى سلم به فى البداية مقتديا فى افتراضه بفرض كوبرنيقوس - يقوم على أساس متين ، إذ يقول : «إن الذى يدفعنا بالضرورة إلى تخطى حدود التجربة والظواهر جميعا هو المطلق الذى يلتمسه العقل فى الأشياء فى ذاتها ، كما يقتضى وجوده بحق لكل ما هو مشروط حتى تكتمل سلسلة الشروط . فإذا سلمنا بأن معرفتنا التجريبية تتوجه حسب الموضوعات كأشياء فى ذاتها ، وجدنا أن المطلق لا يمكن التفكير فيه بغير تناقض ، ثم سلمنا على العكس من ذلك بأن تمثّلنا للأشياء ، كما هى معطاة لنا ، لا يتوجه حسب هذه الأشياء كأشياء فى ذاتها بل الأصح أن هذه الموضوعات كظواهر - هى التى تتوجه حسب طريقتنا فى التمثيل ، ووجدنا أن التناقض قد سقط ، وأن المطلق تبعاً لذلك لا يوجد بالضرورة فى الأشياء من حيث أننا نعرفها ، وإنما يوجد فيها من حيث أننا لانعرفها ، أى كموضوعات فى ذاتها - عندئذ يتبين أن ما سلمنا به فى البداية على سبيل المحاولة يقوم فى الواقع على أساس متين » . (٢)

إن هذه المحاولة الكنطية تقتضى تماما أثر محاولة كوبرنيقوس ، إذ أثبتت القوانين الأساسية لحركة الأجرام السماوية يقين النظرية التى لم يسلم بها كوبرنيقوس فى مبدأ الأمر إلا كفرض . كما برهنت فى الوقت نفسه على وجود القوة الخفية التى تمسك نظام العالم ، أى جاذبية نيوتن ، هذه القوة التى كان يمكن أن تبقى بغير اكتشاف لو لم يخاطر كوبرنيقوس - على نحو مضاد لشهادة الحس وإن يكن صحيحا - بالبحث عن تفسير الحركات الملاحظة لا فى الأجرام السماوية بل فى المشاهد لها .

1- Ibid., P. 24 .

2- Kant, Critique of Pure Reason, P. 24 .

إن هذا التشبيه قد أسىء فهمه من قبل جميع مفسرى كنط الذين شملتهم قراءتنا حيث لم يتمكن أحدهم من إدراك وجه الشبه الأساسى فى تشبيه كنط لثورته فى الميتافيزيقا بثورة كوبرنيقوس فى علم الفلك .

فالجميع ظنوا أن منطقة الشبه بينهما تكمن فى نتائج النظرية لا فى خطوات المنهج ، فوضعوا نظرية كنط المعرفية أمام نظرية كوبرنيقوس الفلكية .. وضعوا الذات والموضوع أمام الأرض وعلاقتها بالشمس وسائر الأجرام .. وبالتالى رأوا أن الذات تقابل الأرض ، والموضوع يقابل الشمس والأجرام الأخرى . وعلى هذا الأساس حكم البعض بتخطئة كنط فى تشبيهه بكوبرنيقوس ، فهو بالأحرى يشبه بطليموس لأنه جعل الذات هى المركز وبتليموس جعل الأرض هى المركز .

فيذهب أستاذنا الدكتور يحيى هويدى ^(١) مذهب صمويل الكسندر ^(٢) ، فيؤكد أن الثورة التى أحدثها (كنط) فى الميتافيزيقا تتلخص فى أنه يريد أن تتبع الطبيعة العقل لا العكس ، ومعنى ذلك أنه بطليموسى لأن بطليموس هو الآخر أراد أن يبدأ من الإنسان ويجعل من تفكيره مركزا ونقطة بدء .. الحق أن الثورة التى أحدثها كانط فى الفلسفة ثورة بطليموسية وليست كوبرنيكية بحال من الأحوال . يتضح هذا تمام الوضوح إذا ما عرفنا النقطة التى بدأ منها كانط فلسفته . فنحن قد رأينا أنه بدأ من التجربة . ولكن التجربة كما يفهمها كانط هى التجربة المعروفة عن طريق العقل أو هى التجربة الخاضعة لشروطه أو هى التجربة الزاخرة بالعقل . والتجربة بهذا المعنى

١- د. يحيى هويدى ، دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، (القاهرة : دار الثقافة ١٩٨١م) ، ص ١٠٦ .

وإننا إذ نختلف مع أستاذنا د. هويدى فى هذا رأى ، فإننا نكون متفقين معه تماما فى منهجه الفلسفى الذى تعلمنا منه أن الخلاف بين التلميذ والأستاذ أمر مشروع اذا كان يستند إلى أساس . وكلى أمل أن يكون خلافى فى هذا رأى مع أستاذى مبنيا على أسباب منطقية .

2- S. Alexander, Ptolemaic and Copernican Views of the place of Mind in the Universe, in the Hibert Journal Vol. 111., No. 1. October, 1909, PP. 47-66

غير التجربة بالمعنى الذى يفهمه الفيلسوف الواقعى وكوبرنيكس . فالتجربة كما يفهمها الفيلسوف الواقعى هى التجربة غير الخاضعة للعقل المستقلة عنه . وعلى هذا فإذا كان تصور كوبرنيقوس تصورا واقعيا ، فى حين أن تصور بطليموس تصور مثالى ، فإن كمنط المثلالى على حسب تفسير د/ هويدى يكون بطلميا لا كوبرنيقيا .

وفى حدود فهمى لنصوص كمنط فإنى أؤكد صحة تشبيه كمنط إذا فهم كما أراد كمنط نفسه . وقبل أن أقدم حيثيات حكمى ، لابد أن ألفت النظر إلى أن بعض المفسرين رأوا صحة تشبيه كمنط أيضا ، لكنهم لم يتمكنوا من تحديد وجه الشبه تحديدا دقيقا فيذهب ليندساى ... Lindsay (1)

ود/ محمود زيدان (2) ، إلى تخطئة من رأوا أن تشبيه كمنط منهجه بنظرية كوبرنيق تشبيه خاطيء . ذلك لأن فرض كوبرنيق ثورة على مركزية الأرض وثباتها وأنها تتحرك حول الشمس ، بينما نادى منهج كمنط بمركزية العقل الإنسانى وثباته ، وعلى الأشياء أن تدور هى من حوله إذا أريد له أن يعرفها . إن التشبيه صحيح لأن ما كان فى ذهن كمنط عن نظرية كوبرنيق ليس أنه أعلن أن الأرض متحركة حول الشمس وليست ثابتة وإنما شىء آخر فى نظريته ، لقد قال كوبرنيق أيضا أنه يمكننا تفسير بعض التغيرات التى تطرأ على مدارات الأجرام السماوية لا بحدوث تغييرات فى تلك الأجرام وإنما بحدوث تغييرات فى موضع المشاهد - ذلك التغير الناشئ من دورة حركة الأرض وأن المشاهد يدور تبعا لتلك الدورة الأرضية . إن التفسير الصحيح لحركات الأجرام السماوية هو إدراك ما يحدث لنا أنفسنا من تغييرات وضعنا نحن بالنسبة لتلك الأجرام . تلك النقطة فى نظرية كوبرنيق هى ما كانت فى ذهن كمنط وهو يسوق التشبيه .

وينحونيقولا كابالدى Nicholas capaldi نفس هذا

1- Lindsay, Kant (London : Oxford Univ. Press, 1936), PP. 50 - 51 .

٢- د/ محمود زيدان ، كمنط وفلسفته النظرية (القاهرة : دار المعارف ١٩٦٨) ص ٦٠ .

المنحى تقريبا حيث يقول : «إن التشابه الكوبرنيقي قد أسىء فهمه عفويا . وفى الواقع - بالنسبة لحدود معرفتى - لم يعين أبدا هذا التشابه بوضوح ، ثم يتساءل مجيبا : «ما هو التشابه ؟ حتى نفسر العالم الذى نعقله ، لابد أن ندرس أولا ما يقوم به العقل بالفعل . فمثل الأرض ، أن العقل الإنسانى ليس متقبلا سلبيا للمشهد السماوى ، لكنه مشارك فعال فى هذا المشهد . فما نلاحظه فلنكنيا يمكن أن يكون مفهوما فقط إذا افترضنا حركة المشاهد على الأرض ، والمعرفة الإنسانية يمكن فقط أن تفهم إذا افترضنا فاعليات العارف » . (١)

هاتان وجهتان من النظر تحاول كل منهما تحديد التشابه بين كمنط وكوبرنيقوس ، وهناك وجهة ثالثة لم يحاول أصحابها تكليف أنفسهم محاولة ذلك . ومن الغريب أن يكون كمنب سمىث Kemp Smith - الذى يعتبر من أشهر شراح كمنط الانجليز - من بين هؤلاء ، إذ أنه لم يعين التشابه واكتفى فقط بالمغايرة ، أى بيان أوجه الخلاف ، بين كمنط وبطليموس (٢)

ووجهة النظر عندى أن الجميع لم يوفقوا فى تحديد وجه التشابه بدقة ، لأنهم وضعوا أعينهم وركزوا انتباههم على نظريتى كوبرنيقوس وكمنط ، ولم يلتفتوا إلى منهجهما الذى يعتبر المنطقة التى يتحدد فيها التشابه الحقيقى ، حيث يكمن هذا التشابه فى خطوات المنهج المعرفى الميتافيزيقى عند كمنط ، وخطوات المنهج الفيزيقى عند كوبرنيقوس .

كيف هذا ؟

إن كوبرنيقوس عندما وجد استحالة تفسير حركة الأجرام السماوية فى ضوء التسليم بمركزية الأرض ، افترض فرضا عقليا جديدا هو أن الأرض

1- N. Capaldi, The Copernican Revolution in Hume and Kant, P. 237 .

2- N.K. Smith, A Commentary on Kant's Critique of pure Reason (London : Macmillan & Co., Limited, 1930) .

مجرد تابع من التوابع التي تدور حول الشمس ، وبناء على هذا الفرض حاول تفسير حركة تلك الأجرام ، فتبين له إمكانية تفسيرها كلها بحيث لا تشذ أية ظاهرة سماوية عن هذا التفسير .

وبالمثل فعل كنط ، حيث وجد استحالة تفسير المعرفة الإنسانية في ضوء المسلمة القديمة التي تقول إن الذات تتبع الموضوع ، فافترض فرضا عقليا جديدا مؤداه أن الموضوع هو الذي يتبع الذات ويتنظم وفقا لها . وعلى أساس هذا الفرض ، تمكن من تفسير قيام المعرفة القبلية التي تقوم عليها الميتافيزيقا الحقة بل والفيزيقا .

فوجه التشابه بينهما إذن يكمن في افتراض كليهما العكس ، أى يكمن في المنهج لا في نتائج النظرية ، ذلك المنهج القائم على الفرض العقلي وإن كان لا يتجاهل التجربة .

يؤكد هذا الفهم من جانبي نصوص كنط نفسها التي تنطق ظاهرا وباطنا به ، حتى أن المرء ليتساءل كيف أسىء فهم هذه النصوص . يقول كنط : « وأنا في هذه المقدمة لا أعرض التغيير في منهج التفكير الذي سأسطه في النقد ، إلا كفرض مشابه لذلك الفرض (الذي طرحه كوبرنيكوس) ، وإن كنت سأحاول في الكتاب نفسه أن أثبت صحته من خلال طريقة تمثالاتنا للمكان والزمان ، ومن خلال التصورات الأولية للفهم على نحو برهاني وضروري ، لا على نحو شرطى وافتراضى ، وذلك لكى ألفت الأنظار إلى الطابع الفرضي الذي يميز على الدوام المحاولات الأولى لإجراء مثل هذا التغيير » .^(١)

ويصرح كنط مباشرة دون أدنى غموض بـ « أن هذه المحاولة لتغيير المنهج المتبع حتى الآن في الميتافيزيقا ، وبالتالي إحداث ثورة شاملة فيها على مثال الثورة التي قام بها علماء الهندسة والطبيعة ، هي أساس هذا النقد للعقل النظري المحض . فهو رسالة عن المنهج ، وليس مذهباً للعلم نفسه » .^(٢)

1- kant, Critique of pure Reason, P. 25 .

2- Idem .

★ طبيحيات نيوتن العقلانية وأثرها في هيوم وكنط :

إن نيوتن يمثل الأوج ، والتحقق النهائي لما بدأه كوبرنيقوس ، ولذا فقد جعله هيوم مثله الأعلى ، فأراد أن يكون نيوتن الفلسفة الإنسانية ، وحاول أن يصنع لعالم الإنسان ما يعتقد أن الفلسفة الطبيعية فعلته ، لاسيما مع نيوتن ، بالنسبة لسائر أجزاء الطبيعة .

فإذا كانت النظرة النيوتونية تقدم تفسيراً عاماً تماماً لسبب حدوث الأشياء في عالم الطبيعة وتفسر الحوادث الفيزيائية المعقدة والمتنوعة بواسطة بضع مبادئ عامة جداً وربما كلية - فإن هيوم بالمثل يتطلع إلى نظرية فلسفية عامة تماماً عن الطبيعة الإنسانية تفسر السبب الذي يجعل الكائنات الإنسانية تفعل ، تفكر ، تدرك ، تشعر .

وبطبيعة الحال ، فإنه لا يعتقد أن بإمكانه أن يفسر بالفعل كل جوانب الطبيعة الإنسانية ، ولكنه يعتقد أن لديه مشروعاً عاماً يمكن أن يتم من خلاله هذا العمل في النهاية . وفعل هذا لا يستلزم منا تجاوز الظواهر والاحتكام للكائنات الغامضة والجواهر غير الملحوظة . ربما توجد أسباب خبيثة ، لكننا لا نملك أن نفعل أى شيء معها في علم الإنسان فيجب أن نحاول الوصول الى القوانين العامة - مثل قانون تداعى الأفكار - التي تربط بين الظواهر ، وتسمح بإمكانية التحقق من صحتها . ولكن يجب ألا نتوقع أو ندعى القدرة على اكتشاف الأسباب النهائية التي تتجاوز عالم الظواهر . وأى فرض يزعم القدرة على فعل هذا سيكون مرفوضاً تماماً^(١)؛ فاستكشاف مبادئ الطبيعة الإنسانية يتم فقط من خلال تحليل الطبيعة الإنسانية بطريقة منتظمة .

إن هيوم نيوتوني في جوانب كثيرة تتعدى المنهج ، والمصطلحات والأمثلة الموجودة في نظريته مستلهمة إلى حد ما من نظرية نيوتن ، ويحتوى بحث

1- Copleston, History of philosophy : Vol. VI., Wolff to kant (London : Search Press, 1977) , P. 405 .

هيوم فى الفهم الإنسانى وبحثه فى مبادئ الأخلاق على إشارات مرجعية متكررة الى نيوتن - فيما يقول بيرت. (١) ، وأكثر النظريات العلمية حضورا فى فلسفة هيوم هى النظرية الذرية ونظرية الجاذبية ، فالمحتويات الأساسية للتجربة الإنسانية عنده عبارة عن موجودات دقيقة تسمى «إدراكات بسيطة» تتحد بطرق مختلفة لتكون «إدراكات مركبة» . ومعرفة كيف ولماذا تأتى وتذهب هذه العناصر وتركيباتها فى العقل وفق نماذج وتنظيمات دقيقة - يفسر تفكير الإنسان ، وشعوره ، وسلوكه ، بالضبط مثلما يفسر قانون الجاذبية الكونية لنيوتن حركة كل الأجسام الفيزيائية فى العالم . فيوجد هنا نوع من التجاذب بين ما يحدث فى العالم الطبيعى وما يحدث فى العالم العقلى . (٢)

وفى الواقع أن اكتشاف هيوم لهذا المبدأ الأساسى : مبدأ تداعى الأفكار ، يبدو أنه كان بمثابة المفتاح الرئيسى لعلم الإنسان ، حتى أن هيوم يدعى أن استنتاجه لهذا المبدأ يمثل أكثر إسهاماته الفلسفية أصالة (٣) .

ولكن رغم ادعاء هيوم هذا فإنه لا يمكن للمحلل الدقيق أن يحيل أصالة هيوم كلها إلى نظرية الأفكار ، حتى لو أن النظرية فهمت كنوع من الصور النيوتونية «الذرية» للعقل الإنسانى . فتلك الإحالة وحدها لا تكاد تميزه عن أى فلاسفة آخرين من ديكارت حتى بيركللى .

تلك كانت الصورة العامة لعلاقة هيوم بنيوتن ، ويبقى أمامنا أمر أهم ، هو :

كيف فهم هيوم نيوتن ؟

1- Burt, The Metaphysical Foundations of Modern Science (London and Henley : Routledge & Kegan Paul, 1980), P.34.

2- Barry Stroud , Hume (London : Routledge & Kegan Paul, 1984), PP. 8,12-13.

3- Hume, Abstract of a treatise of Human Nature, ed., J.M. Keynes and P. Sraffa., (Cambridge University Press, 1938), 31.

ما هي العوامل التي أثرت على طبيعة فهمه لمنهجه ؟

هل فهمه فهما حقيقيا ، أم أنه عجز عن ذلك ؟

سنحاول فيما يلي توضيح ذلك من خلال تقديم لون من ألوان الفهم الكلاسيكي لهيوم وعلاقته بنيوتن ، ثم نوضح جوانب الخلل في هذا الفهم ، في نفس الوقت الذي سنعمل فيه على تقديم رؤية بديلة مفادها أن مشروع هيوم الفلسفي وإن كان في ظاهره محاولة لإدخال منهج الاستدلال التجريبي في الفلسفة الإنسانية ، إلا أن هذا المنهج نفسه يستند في جوهره إلى أسس عقلانية ، لم يكن هيوم على وعى مباشر بها ، حتى جاء كمنط فبرهن ببراعة فلسفية على عقلانيته بل وعقلانية الثورة العلمية الحديثة كلها بما فيها إنجازات نيوتن نفسه التي ظننا هيوم بتجريبية ، وما هي بتجريبية .

إن نيوتن وإن كان صاحب التأثير الأكبر على هيوم ، إلا أن هذا يجب ألا ينسبنا تأثير كل من هتشيسون ولوك عليه ، لاسيما أن هتشيسون - الذي كان متفقا مع نيوتن في جوانب أساسية - هو الذي حدد لهيوم مشكلاته ، بينما كان لوك ؛ المتأثر بتعاليم نيوتن ؛ القناة المحورية التي عبر من خلالها ذلك التأثير إلى هيوم ، حتى أنه لمن العسير أن نحاول تحديد إلى أي مدى بالضبط كانت آراء هيوم المتطابقة مع لوك ، مأخوذة مباشرة من نيوتن أم من دراسة هيوم لمقال لوك .

إن كل ما يجاوز عالم الظواهر ، ويدخل في نطاق التخمين والظن ، أمر يرفضه نيوتن ويعتبره شيئا غامضا يدخل في عالم الأسرار الخفية ، وعلى العلم إذا أراد تحقيق تقدم معرفي أن يضرب عنها صفحا ويقصر نظره على الواقع المشهود . هذه هي إحدى الأفكار الأساسية التي استقاها هيوم من نيوتن . ولعل المصدر الذي اطلع هيوم عليه وأخذ منه هذه الفكرة هو النص الآتي :

« هذه المبادئ (كالقصور الذاتي ، والجاذبية ، وتماسك الأجسام) لا أنظر إليها بوصفها خواص غامضة يفترض أنها نتائج لصور معينة من الأشياء ،

بل أنظر إليها بوصفها قوانين عامة للطبيعة ، بواسطتها تتشكل الأشياء نفسها ، وتظهر لنا حقائقها بواسطة الظواهر ، رغم أن أسبابها لم تكتشف بعد ، لأن هذه القوانين صفات واضحة ، أما أسبابها فهي وحدها المستورة . ولا تعطى الأرسطية اسم الخواص الخفية للخواص الظاهرة ، وإنما تعطيه لمثل تلك الخواص التي يفترض أنها خبيثة في الأجسام ، وللعلة المجهولة للمعلولات الظاهرة ، مثل أسباب الجاذبية ، والجذب المغناطيسي والكهربائي ، والتخمر . أما نحن فنفترض أن هذه القوى أو الأفعال ناشئة عن خواص مجهولة بالنسبة لنا ، وغير قابلة للاكتشاف . إن مثل هذه الخواص الخبيثة تمثل حجر عثرة أمام تقدم الفلسفة الطبيعية ، ولذلك فإنها رفضت منذ سنوات خلت . أن نعلم أن كل أنواع الأشياء توجد فيها خاصية معينة مستورة بواسطتها تعمل وتنتج معلولاتها الظاهرة - فإننا لم نعلم شيئا . ولكن عندما نستنبط مبدئين عامين أو ثلاثة للحركة من الظواهر ، وبعدئذ نعرف كيف أن صفات وأفعال كل الأشياء المادية تتبع منطقيا Follow from من تلك المبادئ الظاهرة فإننا سنكون حققنا خطوة عظيمة جدا في الفلسفة ، رغم أن تلك المبادئ لم تكتشف بعد » .^(١)

ولذلك فإن مهمة الفلسفة الأولى - كما يقول سميث - أن تحدد - بواسطة المنهج التحليلي - التجارب الأساسية . والمهمة الثانية أن تظهر - بواسطة المنهج التركيبي - كيف يمكن عن طريق هذه التجارب الأساسية تفسير أكبر قدر من الظواهر المترتبة عليها .

وربما تكون الفقرة الموجودة في « البصرييات » والتي بها وصف المنهجين ، مقتبسة بتفصيل تام ، لكن يبرر هذا الاقتباس أن من المحتمل جدا أن تكون المصدر الذي استمد منه هيوم نفسه فهمه لمنهج نيوتن ، والذي شكل من خلاله منهجه الذي برهن عليه في الرسالة بكل دقة . يقول نيوتن :

1- Newton : Optics (in E. T. whittaker's edition, Bell, London, 1931) , Book III, Part 1, PP. 401 - 2 .

« يجب فى الفلسفة الطبيعية ، كما هو الحال فى الرياضيات ، أن يتقدم المنهج التحليلى المنهج التركيبى فى بحث الأشياء العويصة . ويكمن هذا المنهج التحليلى فى إجراء التجارب والملاحظات ، وفى استنتاج النتائج العامة منها بواسطة الاستقراء . ولا تقبل الاعتراضات الموجهة ضد تلك النتائج إلا إذا كانت مأخوذة من التجارب أو من حقائق أخرى مؤكدة ، لأن الفروض لا تؤخذ بعين الاعتبار فى الفلسفة التجريبية . ورغم أن البرهنة المستمدة من التجارب والملاحظات بالاستقراء ليست برهانا على نتائج عامة ، إلا أنها أفضل وسيلة للبرهنة تسمح بها طبيعة الأشياء . ومن الممكن أن تعد أقوى بقدر ما يكون الاستقراء أكثر عمومية .. وبهذه الطريقة فى التحليل يمكن أن نواصل التقدم من المركبات إلى الاجزاء المقومة لها ، ومن الحركات إلى القوى المولدة لها ، وبصفة عامة من المعلولات إلى العلل ، ومن العلل الخاصة إلى العلل الأكثر عمومية حتى ينتهى البرهان إلى النهاية الأعم . هذا هو منهج التحليل . أما منهج التركيب فإنه يقوم على اتخاذ العلل المكتشفة والمؤكددة بوصفها مبادئ يتم من خلالها تفسير الظواهر المترتبة عليها ، والبرهنة على صحة هذا التفسير » . (١)

إن تصور نيوتن للمنهج كما هو مقدم هنا ، هو على وجه الدقة المنهج الذى يدعى اتباعه هيوم فى تفكيره . إن نيوتن ، كما يخبرنا هيوم : « سار بحذر ومن ثم بخطوات أكثر ضمنا ، فى الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى الفلسفة الحققة » (٢) لأنه ابتعد عن الأسلوب المحلق بأجنحة العقل وحده بعيدا عن أرض الواقع ، وزاوج بين العقل والتجربة من خلال جمعه بين المنهج الاستنباطى والمنهج الاستقرائى . لكن هيوم التفت إلى دور التجربة فقط عند نيوتن ولم يلحظ دور العقل ، وهذه مسألة سنفصل القول فيها لاحقا ، المهم الآن أن نلاحظ طريقة فهم هيوم لنيوتن وكيف أدرك أهمية الواقع وإمكانية معرفته المتقيدة بالظواهر ومبادئها ، بعيدا عن الغرور الإنسانى الزاعم

1- Ibid., PP. 404-5 .

2- Hume, History of England, Ch. IXXi .

إمكانية معرفة كل شيء . فبالفعل كانت الفلسفة الميكانيكية السابقة على نيوتن ، والتي نجحت تحت رعاية جاليليو وديكارت وبويل وآخرين - فى تقدم معرفتنا بالطبيعة « بما يتفق مع الفضول والغرور الطبيعى للإنسان (١) » لا بما يتفق مع حدود ما تسمح به فعليا . ولا يرجع نجاحها فى نظر نيوتن كما يفهمه هيوم - إلى صحة مبادئها الفلسفية ، ولكن يرجع إلى اختراعها للتجارب . وقد كانت النظريات المقبولة بوجه عام قبل نيوتن (مثل : إن العلل الفعالة فى الطبيعة هى التصادم والثقل) - كانت تأملية فحسب ، وغير قابلة للبرهنة . ولاشك - فى نظره - أنها فى حالة التعويل المسرف عليها ، ستؤدى إلى التضليل . إن نيوتن عند هيوم « أعظم وأندر عبقرية ارتقت لأن تكون مفخرة ودرسا للجنس البشرى » ؛ (٢) لأنه أخذ موقعه فى التجربة وانطلق من الواقع .. « إن الحذر ليس فى الاعتراف بالمبادئ (الصفات العامة) ، ولكن بتأسيسها على التجربة ، والتصميم على تبنى كل مبدأ مهم كان جديداً أو غير عادى » (٣) .

إن حصيلة عمل نيوتن طبقا لهذا - كما يصرح هيوم - كانت ثنائية: سلبية ، وإيجابية . ومن حيث تأثيرها على الفلسفة العامة والميتافيزيقا ، لا تكاد تكون النتائج السلبية - من وجهة نظر هيوم - أقل أهمية من النتائج الإيجابية ، يقول هيوم : « بينما يبدو أن نيوتن أزاح الستار عن بعض أسرار الطبيعة ، فإنه أظهر فى نفس الوقت نواقص الفلسفة الميكانيكية ، وبذلك أعاد أسرارها النهائية إلى تلك الظلمة التى ظلت وستظل فيها أبداً » . (٤)

وبالنسبة لموقف نيوتن من الرياضيات بعامة والفرض العقلى بخاصة - وهى مسألة بالغة الأهمية - فقد فهمه هيوم حسب الفهم التقليدى لنيوتن القائل : بأن الرياضيات كانت عنده أداة ليس غير ، وأنه كان مهتما بها لأنها مفيدة فى حل المشكلات الناشئة عن التجربة

1- Idem .

2- Idem .

3- Idem .

4- Idem

المحسوسة. ^(١) وهذه - كما يقول سميث - هي فكرة الهندسة التي يقدمها في المدخل للمبادئ : إن الإبداع الأكثر استجابة للحاجات العملية يتمثل في الهندسة ، كما يخبرنا ، التي لا يزال مسلما بكونها جزءا من التطبيق الميكانيكي الأكثر ضبطا ودقة. ^(٢) ونقتبس كلمات من نيوتن تعطى دلالة لنا بوصفها مصدرا رئيسيا غالبا ، وليست المصدر الوحيد ، لآراء هيوم المبتدعة في العلم الهندسي والمقدمة في الرسالة :

«إن الوصف الصحيح للخطوط والدوائر يمثل مشكلات ، لكنها ليست مشكلات هندسية . وحل هذه المشكلات يطلب من الميكانيكا . واستخدام الهندسة لهذه الخطوط والدوائر عندما تحل مشكلاتها ، يصبح واضحا . وإنه لمجد للهندسة أن تكون مستنبطة من تلك المبادئ القليلة المأخوذة من التطبيق الميكانيكي ، إذ تكون قادرة على أن تصنع أشياء عديدة جدا . ولذلك فإن الهندسة مؤسسة على التطبيق العملي ، وليست هي إلا جزءاً من الميكانيكا الكلية التي تفترض وتبرهن بدقة على فن القياس أو المقياس ^(٣) Measuring».

إن هذا النص يفهمه هيوم - وفق كيمب سميث - على أساس أن الميكانيكا الكلية نفسها يجب أن تبدأ بالواقع ، وتتحدد به ، وليست نتائجها قادرة على تجاوزه ، مما يعنى أنه بواسطة الواقع تتحدد ما هي الوقائع المعطاة عن طريق التجربة المحسوسة ، ولا تكتشف أو تعرف بأية طريقة أخرى . وبعبارة أخرى - كما يقول سميث - فإن التجربة ، وليس الفرض ، هو

1- Burtt, The Experimental Foundations of Modern Science (London, 1925) , P. 210 .

and More, Isaac Newton, A Biography (1934), PP., 56, 133-4 .

2- Smith, The Philosophy of David Hume, (London : Macmillan Co., Limited, 1941), 54.

3- Quoted by Burtt, The experimental Foundations..., from the preface to principia .

الأساس الذى عليه وحده يمكن أن تؤسس بثقة الحقائق المتعلقة بأمور الواقع . إنها المصدر الذى يستمد منه التفكير فى حقائقها ووسائل التحقق منها . ويمثل الفرض لينوتن - حسب سميث - وهو ما سثبت خطأه بعد الانتهاء من عرض وجهة نظره - يمثل له منهجا غير منطقي ، اتبعته من قبل الفلسفة الأرسطية والديكارتية . ويعتبره منهجا مرفوضا فى أى مجال من مجالات البحث العلمى ، لأنه غير ذى جدوى وتافه . ولذلك يزعم سميث أنه لا شىء يجعل نيوتن مستاء مثل وصف مبدئه فى الجاذبية بأنه فرضى .^(١)

هكذا فهم هيوم نيوتن ، وهكذا فهم سميث الاثنين .

ووفق هذا الفهم ظن هيوم - حسب سميث - أن نيوتن ينكر الفرض ، وقال معه : « *Hypotheses non fingo* » ، ولم يتمكن من فهم حقيقة موقف نيوتن المؤسس على عقلانية ، حال دون ظهورها ظاهر عبارته ، وهو ما اكتشفه كنط فيما بعد . فلم يقصد نيوتن بعبارته هذه رفض الفروض من أى نوع ، وإنما إنكار الفروض التى هى من قبيل التخمينات والخيالات التى كان يضعها علماء العصور الوسطى .

ويؤكد هذا الفهم وضع عبارة نيوتن فى سياقها من كلامه ، حيث جاءت فى « سياق رده على الديكارتيين الذين أخذوا عليه - ولم يكونوا على حق - أنه قد أتى فى قوله بالجاذبية بفرض يكاد أن يتشابه تماما مع فروض رجال العصور الوسطى المتصلة بالخواص السرية للأشياء مما كانت فروضا زائفة كلها ، فقال : إننى هنا لم أت بفرض ، وأنا هنا لا أفترض فروضا ، بل أسير وفقا للقواعد . فبتر هذه العبارة من هذا السياق هو الذى ألهم الذين عزوا الى نيوتن أنه ينكر الفروض - هذا القول » .^(٢)

ووفق هذا الفهم الجديد لنيوتن فهم بارى سترود Barry Stroud علاقة هيوم به ، حيث ذهب إلى أن تشبه هيوم بنيوتن فى هذا المسلك :

1- Smith, The philosophy of David Hume, P. 54.

٢ - د/ عبدالرحمن بدوى ، مناهج البحث العلمى (الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧) ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

« لا يعنى أننا يجب أن لا نقر الفروض فى محاولة اكتشاف حقيقة الإنسان، بل يعنى أنه يجب أن لا نفرض على أنفسنا تخمينات وخیالات فى العالم وعندئذ نقبلها كما لو كانت حقائق مؤكدة وثابتة » .^(١)

وحتى لا يكون تفسيرنا لموقف نيوتن من الفرض العقلى عرضة للتشكيك، يلزم أن نورد النص الذى جاء فى ثنایاه عبارة نيوتن : « أنا لا أضع فروضا » .. يقول نيوتن فى كتابه « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية » وعلى وجه التحديد فى نهايته :

انتهينا من تفسير ظواهر السماء والبحار بواسطة قوة الجاذبية ، بيد أننا لم نعين بعد علة تلك القوة . إنها تنشأ بالتأكيد عن علة موجودة فى العمق المركزى للشمس والكواكب دون أن يطرأ نقص فى قوة تلك الجاذبية نتيجة لكمية أسطح الجزئيات التى تؤثر عليها (مثلما تفعل العلل الميكانيكية فى العادة) ، ولكن نتيجة كمية المادة الصلبة التى تحتوى عليها .. وهى تبث قوتها فى كل اتجاه ولمسافات كبيرة ، وكلما تضاعفت المسافات تناقصت قوتها ... بيد أننى لم أستطع أن أكتشف من الظواهر العلة التى تنشأ عنها خصائص الجاذبية هذه ، وأنا لا أضع فروضا ، لأن الفرض غير مستنبط من الظواهر ، والفلسفة التجريبية لا تأخذ بالفروض ، سواء كانت فروضا ميتافيزيقية أو فيزيقية ، أو كانت فروضا تتعلق بكيفيات غامضة أو بصفات ميكانيكية . ويتم استنباط القضايا الجزئية فى هذه الفلسفة من الظواهر ، وبعد ذلك نجعل منها قضايا عامة بواسطة الاستقراء ، وبهذه الطريقة اكتشفت خصائص ، مثل عدم قابلية الأجسام للنفاذ ، وحركاتها ، وقوتها الدافعة ، وقوانين الحركة ، والجاذبية » .^(٢)

1- B. Stroud, Hume, P. 6.

2- Newton, The Mathematical Principles of Natural Philosophy, trans, by A. Motto, (London, 1803), Vol. II., PP. 313-4 .

إننا لو حاسبنا نيوتن بظاهر أقواله هنا لقلنا إنه ينكر الفرض العقلي ، ولكن لو تدبرنا هذه الأقوال في ضوء أفعال نيوتن نفسه لجزمنا بأن منهجه عقلي يعتمد على الفروض الصورية بالدرجة الأولى . أما الآن فلا أريد أن أحلل أفعاله ، وأرجىء ذلك بعد تحليل أقواله .

إن نيوتن عندما صرح هنا بإنكاره للفروض كان في ذهنه فروض أرسطو الميتافيزيقية وفروض ديكارت الفيزيقية ، لا الفروض العلمية الدقيقة . يؤكد هذا أن نيوتن يذكر « أرسطو » في مكان آخر من المبادئ فيما يتعلق بالكيفيات الخفية المجهولة فيقول : « إن تلك الكيفيات لا ندركها في الخبرة أو التجربة ، وإنما نفترض أنها علة ما ندركه - يفترضها أرسطو كائنة وراء الظواهر موضوع الملاحظة أو التجربة ، ويرى أنها علل مجهولة لآثار معروفة لنا هي الظواهر » ويرى نيوتن أن من أمثال تلك العلل الخفية البحث عن علة الجاذبية أو المغناطيسية أو الجذب الكهربى أو التخمر . أما ما كان في ذهن نيوتن حين أشار الى الفروض الفيزيقية فهو نظريات العلم الطبيعى عند ديكارت ومن أمثالها فرض الدوامات الهوائية والأرواح الحيوانية^(١)

إذن فنيوتن يرفض الفروض التى تفترض عللا لا وجود لها ولا دليل عليها، أما الفروض المفسرة التى تساعد على التوصل للقوانين ، فهو لا يقصدها هنا على الإطلاق. لأن منهج نيوتن نفسه يقوم على مصادرتين أو فرضين علميين ، هما : « اطراد الطبيعة » « والسببية » . وهذان الفرضان تقوم عليهما قواعد البرهنة الأربع عند نيوتن،^(٢) التى يذيل كل منها بقوله:

١- د/ محمود فهمي زيدان ، الاستقراء والمنهج العلمى (الطبعة الأولى ، بيروت : مكتبة الجامعة العربية ، ١٩٦٦م) ص ٥٤ .

٢- نص قواعد البرهنة في الفلسفة كما أوردها نيوتن كالآتي : القاعدة الأولى : « يجب ألا نسمح بعلة للأشياء الطبيعية أكثر من العلة التى تكون صادقة وكافية لتفسير ظواهر تلك الأشياء » ، القاعدة الثانية : « يجب أن نعين قدر المستطاع نفس العلة لنفس الآثار الطبيعية » ، القاعدة الثالثة : « صفات الأجسام صفات كلية تنطبق على كل جسم موجود ، وهي تلك الصفات التى لا تسمح بزيادة أو نقصان في الدرجة والتي لوحظ أنها تنتمى إلى كل الأجسام فى حدود

أنها تتضمن أن الطبيعة تسير سيرا مطردا ، وأن لكل شيء علة ، وأن الطبيعة لا تفعل شيئا عبثا . فاطراد الطبيعة والسببية « فرضان لا يقومان - ولا يمكن أن يقوما - على الاستقراء والملاحظة وإلا وقعنا فى الدور ... ان الاطراد والعلية أساس للاستقراء ولا يقومان عليه » .^(١)

ولقد ذهب مل J.S. Mill فى كتابه «نسق المنطق A System of Logic of Logic » إلى أن نيوتن لم يرفض الفروض العقلية التى يمكن التحقق منها ، بل رفض فحسب تلك الفروض غير القابلة للتحقق ، مثل الفروض الميتافيزيقية أو الفروض التى تقوم على القول بوجود جواهر خبيثة . أما الفروض التى يمكن التحقق منها فهى خطوة ضرورية لابد منها لكى يتقدم العلم ، وتتضمن نظريات نيوتن كلها فروضا من هذا القبيل .^(٢)

وأثبت كارل بوبر Karl R. Popper بتحليلاته الفلسفية الدقيقة استحالة أن تكون نظريات نيوتن مشتقة من الملاحظة والتجربة ، ففى بحثه «تخمينات وتفنيدات Conjectures and Refutations » ، قال بأن خصائص نظرية نيوتن مختلفة كلية عن خصائص عبارات الملاحظة ، كالآتى :

تجاربنا ، القاعدة الرابعة : « ينبغى أن نبحث فى الفلسفة التجريبية عن القضايا التى نصل إليها باستقراء عام من الظواهر بكل دقة أو صدق تجريبى ، وبالرغم من أي فرض يمكن تخيله معارضا لتلك القضايا ، إلى أن يحين الوقت الذى تحدث فيه ظواهر أخرى تجعل تلك القضايا ، إما أكثر دقة أو استثناء للظواهر الجديدة . يجب علينا اتباع تلك القاعدة حتى لا يفسد منهج الاستقراء باستخدام الفروض » .

١- المرجع السابق ص ٥٦ .

2- J.S. Mill, A system of Logic (London : Longmans , 1961) P. 326 .

عبارات الملاحظة	نظرية نيوتن
<p>- لا يمكن أن تكون دقيقة . هي Inexact</p> <p>- تكون تحت ظروف معينة . وأى موقف ملاحظ لا بد بداهة أن يكون محددا جداً .</p> <p>- الملاحظة عينية وخاصة .</p>	<p>- فى منتهى الدقة . كيف تشتق الدقة المتناهية مما هو أقل دقة .</p> <p>- المفروض أنها عامة ، وتطبق فى كل الظروف الممكنة ، مثلاً قانون الجاذبية ، ليس فقط على الأرض ، بل وفى المريخ وفى كل كواكب المجموعة الشمسية ، بل وفى الأماكن التى لم تلاحظ حتى اليوم .</p> <p>- النظرية مجردة وكلية .</p>

ويدلل بوهر على رأيه هذا بأننا لم نلاحظ أبدا الكتلة ، وإنما نرى الكواكب أجساما ممتدة ، ولا يمكن إطلاقاً أن نلاحظ القوى النيوتونية كقوى الجاذبية التى نعرفها جيداً ، ونتمكن من قياسها بواسطة عجالات السرعة ، وقد نتمكن من قياسها يوماً بواسطة الميزان ذى الزنبرك ... إلا أننا دائماً - وفى جميع المقاييس بلا استثناء - نفترض مسبقاً صدق قوانين الحركة النيوتونية^(١) . وبدون هذا الافتراض الديناميكى المسبق ، فإنه ببساطة

١- تتمثل قوانين الحركة النيوتونية فى قوانين ثلاثة هى : أولاً : يستمر كل جسم فى الحالة التى هو عليها من سكون أو حركة مطردة فى خط مستقيم ، ما لم تضطره قوة ما إلى تغيير تلك الحالة . وهذا هو قانون القصور الذاتى . ثانياً : يتجاذب كل جسمين تجاذباً يتناسب طردياً مع مجموع كتلتيهما ، وعكسياً مع مربع المسافة بينهما . ثالثاً : لكل فعل رد فعل مساوٍ له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه . أنظر :

The Penguin Dictionary of Science, P. 258.

ود/ يمى طريف الخولى ، فلسفة كارل بوهر : منهج العلم .. منطق العلم (القاهرة الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٩م) ص ١٥٢ .

يستحيل قياس القوى . غير أن القوى ومتغيراتها من أهم ما تعالجه النظرية . على هذا ينبغي أن نعترف على الأقل بأن بعضا من الأشياء التي تعالجها النظرية ، هي موضوعات مجردة وغير قابلة للملاحظة . وكيف ندعى أنها مشتقة أصلا من الملاحظة ... وهذه النتيجة لا يمكن تجنبها بأية حال ، حتى لو تمكنا من إعادة صياغة النظرية ، صياغة تتجنب تماما أية إشارة إلى القوى ، وحتى إذا استبعدناها كمجرد أوهام ، أو محض بناءات منطقية نظرية بحتة ، تخدمنا فقط كأدوات ... لماذا ؟ لأن مثل هذه المجالات ستجعل النظرية أشد تجريدا أو أكثر بعدا عن الأسس التجريبية الملاحظة استقرائيا ، طالما أننا لا نستطيع أن نلاحظ إلا أشياء عينية . إن نظرية نيوتن في القوى بأية صورة مجردة وعامة .^(١)

ومن هنا يصبح منطقيا طرح السؤال الآتي : بعد هذا هل يمكن أن نعتبر نظرية نيوتن مشتقة من عدة ملاحظات ؟^(٢)

بالطبع لا .. فكل نظريات نيوتن وقوانينه غير مستمدة من التجربة ، بل إن منها ما لا يقبل التحقق التجريبي ، مثل قانون الجاذبية ، فإننا لاندرک قوى الجاذبية بين الأجسام الحاضرة أمامنا إدراكا حسيا . فالأجسام مدركة ولكن القوى غير مدركة . ولنأخذ مثالا آخر من قوانين الحركة ، وليكن قانون القصور الذاتي ، فهذا القانون عقلي ، ولا يمكن التحقق منه تجريبيا ؛ لأن التحقق منه يتطلب وجود جسم لا يكون خاضعا لأي مؤثرات خارجية من أجسام أخرى ، وهذا ممتنع تجريبيا^(٣) فهذا القانون ، بل والقانونان الآخران ،

1- K.R. Poper , Conjectures and Refutations : The Growth of Scientific knowledge (fourth edition : London : Routledge and Kegan Paul, 1976) . , PP. 189 - 191 .

٢- د/ يماني طريف الخولي ، فلسفة كارل بوبر ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

٣- لمزيد من التفاصيل - L. W. H. Hull, History and philosophy of Science (London, 1965), PP. 164-180 .

W. Kneale, probability and Induction (Oxford, Clarendon press, 1949), PP. 99-100

- د/ محمود زيدان ، الاستقراء والمنهج العلمي ، ص ١٦٢ - ١٦٨ .

يفترضان كونا مثاليا مطلقاً لا وجود له فى الواقع . فالزمان مرتبط بالحركة ، والحركة من خلال خبرتنا الحسية غير منتظمة ، بل يستحيل أن تكون منتظمة ، لأن السرعة المنتظمة ، تتطلب مكاناً مستوياً أملس تنعدم فيه جميع أنواع المقاومة . فالزمان الحسى مضطرب لا يصلح للدخول فى المعادلات الرياضية الدقيقة. ^(١) ومن ثم وجد نيوتن نفسه مضطراً إلى الأخذ بصورتين مختلفتين لكل مفهوم ، الأولى رياضية والثانية تجريبية . فهناك الزمان المطلق المكون من آنات ، والمكان الإقليدى المسطح المكون من نقاط بلا امتداد ، ثم الحركة التى هى نقلة . وهذه المفاهيم يمكن اشتقاقها مباشرة من قانون القصور الذاتى . وتعتمد هذه المفاهيم على فكرة العزل . وهى فكرة منشقة عن انقصور الذاتى . وتعنى انتزاع الجسم المادى من تحديداته التجريبية ، ثم وضعه بطريقة تجريدية فى إطار نظرى خالص لا صلة له بالواقع . لذلك أصبحت الكتلة مقدارا ثابتا فى كل جسم لا تزيد ولا تنقص بحركته ، وكان الحركة لا علاقة لها بالشئ المتحرك . ^(٢)

وتظهر عقلانية نيوتن بشكل أوضح عند تمييزه بين الزمان النسبى الحسى والزمان المطلق الرياضى ، وبين المكان النسبى الحسى والمكان المطلق الرياضى . أما فيما يتعلق بالزمان النسبى ، فهو الذى يستخدم كمقياس لحركة نسبية مرتبطة بالحوادث الطبيعية . ومن ثم فوحدات هذا الزمان لا تتصف بالتساوى ، وبذلك يصعب الاعتماد عليه عندما نكون بصدد تقديم صياغة رياضية للحركة . أما الزمان الرياضى فهو مطلق ^(٣) ، والسبب فى

1- F.S.C. Northrop, whitehead's Philosophy of Science, Schilpp. PP. 173 - 174 .

2- Whitehead, The First Physical Synthesis (Chap.1, part IV of " Essays in Science and philosophy " (, New york, philosophical Library, 1947) , P. 172 .

انظر : د/ بدرى عبدالفتاح ، وايتهد وفلسفته فى العلوم الطبيعية ، رسالة ماجستير غير منشورة بإشراف د/ يحيى هويدى ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٧٩ ، ص ١١٧ .

٣- المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

ذلك موضع خلاف ، فيرى أستاذنا الدكتور يحيى هويدى : « أن من الشائع أن تفسر هذه الكلمة (أى مطلق) فيفهم أن تصور نيوتن للزمان والمكان كان تصورا مجردا ، أى خاليا وبعيدا عن الأجسام المتحركة ، فى حين أنها تدل على أن الزمان عنده يمثل وسطا ثابتا لجسمين متحركين أو أكثر وكذلك المكان»^(١) فى حين يرى آخرون أن سبب مطلقية الزمان الرياضى يرجع إلى أنه زمان عقلى مجرد مكون من آتات لا شأن لها بالحوادث الطبيعية ومن ثم فهى بلا أى امتداد زمانى . وهذه الآتات متساوية ومنتظمة وتتدفق بطريقة دقيقة . وفى المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية يعرف نيوتن الزمان المطلق بأنه ينساب بذاته وطبيعته بطريقة متساوية بصرف النظر عن أى شىء خارجى أما الزمان النسبى فهو مقياس محسوس وخارجى (سيان كان مضبوطا أو غير متساو) للدوام عن طريق الحركة . وهو المستخدم عامة بدلا من الزمان الحقيقى ، مثل ساعة ويوم وشهر وسنة . وفى الفلك يتميز الزمان المطلق عن الزمان النسبى بالتساوى أو تصحيح الزمان العادى^(٢) ، وعلى هذا النحو يتصف الزمان الرياضى بثلاث خصائص يفتقر إليها الزمان الحسى ، وهى أنه زمان متجانس ، فكل وحدة من وحداته متطابقة مع الوحدات الأخرى وبالتالي فهو يتدفق بمعدل ثابت . ثم هو يكون متوالية لا نهائية من الآتات ذات الاتجاه الواحد ، والخاصية الثالثة أنه يمثل واقعة كونية مطلقة معزولة تماما عن الحوادث الطبيعية وبالتالي فهذا الزمان لا يتأثر بإيقاع الحوادث الطبيعية ، سيان كان هذا الإيقاع سريعا أم بطيئا^(٣).

ومما ينطبق على الزمان النسبى والزمان المطلق ينطبق أيضا على المكان النسبى والمكان المطلق . ولذا فلسنا بحاجة إلى إعادة القول فيهما ، لكن ما نود أن نشير إليه بشأن المكان هو أن تصور نيوتن للمكان الرياضى المطلق قد

١- من ملاحظات أستاذنا الدكتور يحيى هويدى على الرسالة .

2- Burtt, The Metaphysical foundations of modern Science , PP. 244 - 45 .

٢- د/ بدوى عبدالفتاح ، وايتهد وفلسفته فى العلوم الطبيعية ، ص ١٢٤ .

دفعه لافتراض وجود الأثير ، الذى يقوم بدور إطار الدلالة الساكن سكونا مطلقا ، والذى تستند إليه الحركة المطلقة وما ينبثق منها من مكان وزمان مطلقين . وهذا الفرض هو أساس فكرة المطلق فى الفيزياء الكلاسيكية وفى الفلسفة الحديثة أيضا وأساس الصبغة العقلية المجردة التى تلونت بها الفلسفة الحديثة ابتداء من ديكارت حتى هيجل (١) .

إذن فمنهج نيوتن ونظرياته تستند إلى مفاهيم وفروض عقلية واضحة ، مما يعنى أن منهج الاستدلال التجريبي فى العلوم الطبيعية - حسب تعبير هيوم فى العنوان الفرعى لرسالته ، والذى حاول إدخاله فى الفلسفة - إنما هو منهج عقلانى الأساس والأصل ، الأمر الذى يشير بوضوح إلى أن هيوم ؛ ومن قبله نيوتن ؛ لم يكن على وعى بالأسس المنهجية العقلية التى يتضمنها ما يسمى بمنهج الاستدلال التجريبي ، أى أن هيوم كان عقلانيا . فى الحقيقة رغم أنه لم يكن يعى ذلك ، فهو يستخدم منهجا ظاهره التجريبية وباطنه العقلانية وهذا ما كشف كنت النقاب عنه ، عندما أثبت فى « نقد العقل المحض » أن جوهر الثورة العلمية لا يكمن فى الملاحظة والتجربة ، وإنما فى القدرة على افتراض مبدأ عقلى يمكن من اكتشاف تفسير للظواهر يجعلها تنظم فى قانون واحد ، وليس معنى الافتراض هنا التوهم والتخمين والخيالات المجاورة للعقل المنطقى ، بل إعادة فهم الظواهر وفق صورة عقلية منطقية تتولد نتيجة البحث لا الحلم . يقول كنت :

« يدين العلم الطبيعى نفسه فى الثورة النافعة التى أحدثها فى طريقة تفكيره لتلك الفكرة الوحيدة التى تجعل العقل لا يبحث فى الطبيعة - أقول يبحث ولا أقول يسقط عليها أوهامه - إلا عما وضعه هو فيها ، بحيث يتحتم عليها - أى على الطبيعة - أن تتعلم منه ما لم تكن لتعلمه بمفردها . بهذا استطاع العلم الطبيعى أن يبدأ سيره على الطريق المأمون للعلم ، بعد أن ظل يتخبط فى الظلام عدة قرون » (٢) .

١- المرجع السابق ، ص ١٢٧ . بتصرف .

2- Kant, Critique of pure Reason, P. 20 .

هذا التحليل العميق للثورة العلمية فى مجال الطبيعة ، لم يأت من عدم ، بل جاء نتيجة نظرة فاحصة لكشوف جاليليو ، وتورشيللى ، وشتال ، وكوبرنيقوس ، ونيوتن .

فجاليليو حين ترك كراته تتدحرج هابطة على سطح مائل بأثقال سبق له تصميم أوزانها ، وتورشيللى حين جعل الهواء يحمل ثقلا كان قد حسب مقداره من قبل بحيث يكون مساويا لوزن عمود معين من الماء ، وشتال - فى وقت لاحق للعالمين المذكورين - حين قام بتحويل المعدن الى جير ، ثم تحويل الجير الى معدن ، وذلك باستبعاد شىء منهما وإضافة شىء آخر - عندئذ أشرق شعاع من الضوء على جميع دارسى الطبيعة ، إذ فهموا أن العقل لا يدرك فى الأشياء إلا ما أنتجه هو ، وفق خطة من وضعه ، وأنه لا بد له أن يشق الطريق أولا بمبادئ أحكامه حسب قوانين ثابتة ، ثم يضطر الطبيعة اضطراراً أن تجيب عن أسئلته ، وأن عليه ألا يدع الطبيعة تسوقه وكأنها - حسب تعبير كمنط - تسحبه وراءها بالحبال ، إذ لولا ذلك لاستحال على الملاحظات العرضية التى لا تتم وفق خطة سابقة مدبرة أن تنتظم فى قانون ضرورى يسعى إليه العقل ويتطلبه . ولذا فإن كمنط يرى حتمية أن يتقدم العقل إلى الطبيعة - وهذا ما حدث بالفعل فى كشوف العلماء المذكورين - يتقدم إليها وهو يضع فى إحدى يديه مبادئه التى يمكنها وحدها أن تجعل من الظواهر المتواترة قوانين صادقة ، كما يضع فى اليد الأخرى التجربة التى صاغها طبقاً لتلك المبادئ العقلية . حقا إن عليه أن يتقدم من الطبيعة لكى يتعلم منها ، ولكنه أثناء ذلك لا يكون شأنه شأن التلميذ الذى يصغى لكل ما يشاء المعلم أن يمليه عليه ، وإنما يكون مثل القاضى الذى يرغب الشهود على الجواب عن الأسئلة التى يطرحها عليهم (١) .

1- Idem .

إن هذا التحليل الكنطى لاكتشافات جاليليو وتورشيللى وشتال ، ينسحب بالضرورة على اكتشاف كوبرنيقوس ونيوتن . أما كوبرنيقوس فقد سبق لنا الحديث عنه ، فيتبقى نيوتن الذى لا يذكره كنط مع جاليليو وتورشيللى وشتال فى سياق برهنته على عقلانية العلم الحديث وإن كان يذكره لاحقاً مع كوبرنيقوس ، حيث يرجع الفضل فى اكتشافه لمبدأ الجاذبية إلى الفرض العقلى المضاد لشهادة الحواس الذى سنه كوبرنيقوس من قبل . يقول كنط :

« هكذا أثبتت القوانين الأساسية لحركة الأجرام السماوية يقين النظرية التى لم يسلم بها كوبرنيقوس فى مبدأ الأمر إلا كفرض كما برهنت فى الوقت نفسه على وجود القوة الخفية التى تمسك نظام العالم (أى جاذبية نيوتن) ، هذه القوة التى كان يمكن أن تظل بغير اكتشاف لو لم يخاطر كوبرنيقوس - على نحو مضاد لشهادة الحواس ، وإن يكن صحيحاً بالبحث عن تفسير الحركات الملاحظة لا فى الأجرام بل فى المشاهد لها » .^(١)

وكما نرى فإن قراءة كنط للعلم النيوتونى تقوم على أسس ترنسندنالية ، حيث أنه يبحث عن العنصر غير التجريبي الذى يسمح بقيام المعرفة العلمية ، ذلك العنصر الذى يجعل التجربة نفسها ممكنة .. يتساءل كنط : « كيف تكون الطبيعة بالمعنى الصورى ممكنة .. أى كمجموع القواعد التى يجب أن تخضع لها كل الظواهر بوصفها مرتبطة فى التجربة ؟ » ويجب على تساؤله هذا بقوله :

« إنها لا تكون ممكنة إلا بفضل تركيب الذهن الذى يربط بالضرورة كل تمثيلات القوة الحساسة بالشعور مما يجعل أولاً طريقتنا الخاصة فى التفكير ممكنة ، أى التفكير بواسطة القواعد ، وبهذه الطريقة تصبح التجربة التى تتميز تماماً عن معرفة الموضوعات فى ذاتها ممكنة » .^(٢)

1- I bid., P. 25 .

2- Kant, Prolegomena to any future Metaphysics , trans, J.

Richardson, P. 101.

الترجمة العربية ، ص ١٢٢ .

ولقد قدم كمنط هذه الإجابة من قبل في « نقد العقل المحض » في المنطق
الترسندنتالي ، كما قدمه في « مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير
علما » خلال الإجابة عن المسألة الرئيسية الثانية ، حيث أكد على « أن
هناك عددا كبيرا من الظواهر الطبيعية التي يمكن معرفتها بواسطة التجربة ،
ولا يمكن معرفة هذا التطابق بين القوانين وتربط الظواهر أى الطبيعة بعامة
بواسطة أية تجربة ، ذلك لأن التجربة نفسها تحتاج إلى هذه القوانين لأنها
الأساس القبلى الذى يقوم عليه إمكانها . وأن إمكان التجربة عموما هو إذن
فى الوقت ذاته الطبيعة الكلية ، ومبادئ الأولى هى نفس قوانين الثانية . لأننا
لا نعرف الطبيعة إلا بوصفها مجموعة من الظواهر ، أى نحن نعرفها
كتمثالات حاصلة فى ذواتنا ولا يمكن إذن أن نستخلص قانون ارتباطها إلا
من مبادئ ارتباطها فى ذواتنا ، أى من شروط اتحادها الضرورى فى الشعور
وهو الذى يقوم عليه إمكان التجربة » (١) .

ولقد كان بحث كمنط عن هذا العنصر القبلى بهدف الحصول على أسس
غير تجريبية لليقين ، لأن التجربة وحدها لا تكفى لقيام هذا اليقين إذ أنها لا
تقدم فى ذاتها الضرورة ولا الكلية ، وهما الشرطان الأساسيان لليقين ، ومن
هنا حاول اكتشاف العناصر القبلىة فى المعرفة الإنسانية الضامنة للضرورة
والكلية . فنحن وإن كنا فى عملية المعرفة نبدأ زمنيا من التجربة فإننا لكى
نعطى لهذه التجربة إطارها التركيبى لابد من أسس سابقة منطقيا على التجربة
ويرجع الفضل فى تشكيك كمنط فى التجربة من حيث أنها تكفل الضرورة
والكلية - إلى هيوم حيث كان كمنط فى المراحل الأولى من تطوره يعتقد
أن التجربة تضمن الاثنين ، لكنه شك فى هذا تحت تأثير هيوم الذى لفت
نظره إلى إشكالية الضرورة والكلية فى الأحكام ، وهذا ما سنفصل القول فيه
لاحقا . ويكفى الآن أن نؤكد منذ البدء أن هيوم الذى يشكك فى أن
التجربة تقدم الكلية والضرورة لا يمكن اعتباره فيلسوفا تجريبيا ، فليس من

المعقول أن أعتبر من يشك في التجربة كأساس للكلية والضرورة فيلسوفا تجريبيا ، والأدهى من ذلك أن اعتبره تجريبيا خالصا لا سيما وأن هيوم قال في عبارة صريحة : «أن الضرورة تحديد عقلي»^(١) ، أى اكتشف ضمان اليقين خارج التجربة وقبلها .

ولاشك في أن الثابت البنيوي الذى لعب دور الهم الأساسى للتفكير العقلانى من افلاطون إلى باشلار هو البحث عن ضمان لليقين بشرطيه الضرورة والكلية خارج التجربة ، والقول بأن للعقل بنية سابقة على التجربة - ولا يمكن إنكار أن نفس هذا الثابت البنيوي ثابت أساسى فى فلسفة ديفيد هيوم ، حيث تعتبر قوانين التداعى عنده قوانين قبلية فهى التى تنظم التجربة وتلم شتاتها ، بالإضافة إلى شكه فى التجربة كأساس لليقين ، على العكس من التيار التجريبى التقليدى المنطلق من أرسطو والمتمحور حول ثابت بنيوي محدد يربط اليقين بمعطيات التجربة الحسية التى يعتبرها هى الضامن الأساسى ، إن لم يكن الوحيد للضرورة والكلية اللتين تقوم عليهما الأحكام العلمية .

من هنا نرى أنه إذا كان لكنط الفضل فى اكتشاف عقلانية العلم الحديث فى الوقت الذى لم يكن هيوم على وعى مباشر بهذا فإن الفضل الأساسى يظل يرجع إلى هذا الأخير لأنه فند التجربة كأساس لليقين العلمى وتلك كانت هى الخطوة الأولى الكبرى التى دشت اكتشاف كنط لعقلانية العلم الحديث الذى إن كان يحتوى على تجربة فإنها التجربة المشروطة عقليا أو هى التجربة بمعنى « التجريب » أى استفهام منهجى للطبيعة ، استفهام يصوغ أسئلته فى لغة رياضية ، حروفها الأعداد والزوايا والمنحنيات والخطوط والسطوح وسائر الأشكال الهندسية ، لا بمعنى أن الرياضيات مجرد أداة ولغة شكلية منظمة ، بل على أساس أنها منهاج فهم الطبيعة وظواهرها .. منهاج

1- Hume, An Enquiry concerning Human Understanding, ed. Seiby-Bigge (Oxford : Clarendon Press. 1902), P. 27. and A treatise of Human Nature, P. 266.

تحدد فيه الخطوات الرياضية بنية التجربة نفسها فإذا كان جاليليو - مثلا - درس سقوط الجسم من على صاري سفينة متحركة بسرعة كبيرة أو بطيئة ، أو من على سفينة أخرى ساكنة ، ثم وضع لذلك قانونا ، فإنه لم يفعل ذلك تجريبيا ، أى لم يقم بإجراء تجربة بالمعنى البيكونى ، وإنما قام بـ « تجربة فكر » تستند إلى الحساب والاستنباط ، إنها تجربة الفرض الرياضى التى تستنبط فيها قوانين الحركة ، وقانون سقوط الأجسام استنباطا عقليا دون التجريب على الأجسام الواقعية .

وقد كان اكتشاف كنط - تحت تأثير هيوم - لعقلانية العلم الحديث ، بهدف إثبات أن هذا العلم ليس ممكنا إلا استنادا إلى مبادئ قبلية محضنة . ولم يكن هذا الإثبات بدوره إلا إثباتا لشرط واحد من شرطين يقوم عليهما يقين نتائج العلم ، أما الشرط الثانى فيمكن - كما بين كنط - فى كون أحكام هذا العلم تركيبية .

فالعلم الحديث لم يصبح ممكنا إلا باشتماله على أحكام قبلية تركيبية معا إذ لا بد أن تكون هذه الأحكام قبلية غير مستمدة من التجربة ، يتضمن التفكير فيها ضرورتها ، لأن التجربة - كما أثبت هيوم - إذا كانت تعلمنا أن شيئا ما يتصف بهذه الخاصية أو تلك ، فإنها لا تضيف أبدا - كما بين هيوم وتبعه كنط - على أحكامها تعميما حقيقيا ودقيقا ، وإنما تكتفى بأن تضيف عليها تعميما مفترضا وتقريبيا عن طريق الاستقراء ، لا يخرج عن هذا المعنى أن الملاحظات العديدة التى قمنا بها حتى الآن لم تدلنا على أى استثناء من هذه القاعدة أو تلك يتأسس على هذا أن الحكم الذى نظنه مشتملا على تعميم دقيق ، أى نظنه على نحو لا يسمح بأى استثناء من الاستثناءات ، لا يمكن أن يكون حكما مبنيا على التجربة كما ذهب هيوم ومن هنا فقد ذهب كنط إلى أنه لا بد أن يكون حكما صادقا بصورة قبلية مطلقة .

إذن فالتعميم التجريبى لا يعدو أن يكون تصعيدا إراديا متعمدا فى قيمة الصديق ، حيث نجعل من القاعدة التى تصدق فى معظم الحالات قانونا

صادقا فى جميع الحالات ، كما هو الحال مثلا فى هذه القضية : « كل الأجسام ثقيلة » ، أما حين يحتوى الحكم بحسب ماهيته على تعميم دقيق ، فإن هذا التعميم يدل على أن هذا الحكم يأتى من التجربة ، لأن التجربة جزئية متغيرة كما بين هيوم ، وإنما يأتى - وفق كنت - من مصدر خاص للمعرفة ، هو الملكة القادرة على المعرفة التبنية . (١)

على هذا الأساس يجب أن تكون أحكام العلم أحكاما قبلية ، أما الأساس الذى يجب عليه أن تكون تركيبية فيرجع إلى أن تلك الخاصية هى التى تجعل العلم يمدنا بمعلومات جديدة عن الموضوع ، أى أن يضيف الحصول إلى الموضوع تصورا جديدا لم يكن متصورا فيه من قبل على الإطلاق ، ولا كنت من الممكن استخلاصه منه عن طريق التحليل .

لذلك فإن أحكام التجربة - بما هى كذلك - هى فى مجموعها أحكام تركيبية ، فمن المستنع أن يفكر المرء فى إقامة حكم تحليلى على أساس التجربة ؟ لأنه لكى يكون هذا الحكم فإنه ليس بحاجة للخروج من دائرة تصوره ، ومن ثم فليس فى حاجة للرجوع إلى شهادة التجربة . (٢)

وإذن فالتجربة هى التى يقوم عليها إمكان الحكم التركيبى ، وهذا أيضا ما يؤكد هيوم ، إذ أن كل الأحكام التركيبية عنده أحكام تجريبية أى مستندة إلى التجربة ، وهذا لا يعنى إنكار دور العقل ، لأن الحكم لا يتكون انطلاقا من التجربة فحسب ، وإنما بالاستناد إلى العقل المنظم الذى يجعل التجربة ممكنة أصلا . وقد أشار هيوم إلى الحكم القبلى ولكن تحت مسمى آخر هو « علاقة تصورية » أو « علاقة بين تصورات » (٣) وقد ذهب هيوم إلى أن على الحكم ليكون من النوع الذى يدعى عند كنت قبليا أن يكون من النوع الذى أسماه كنت تحليليا ، وليكون من النوع الذى يدعى عند كنت تركيبيا ، أن يكون من النوع الذى أسماه كنت بعديا أو تركيبيا . وعلى

1- kant, Critique of pure Reason , P. 44.

2- Ibid., P. 49 .

3- Hume, An Enquiry concerning Human Understanding, P. 25 .

ذلك فكل الأحكام القبلية أحكام تحليلية بالنسبة إلى هيوم ، وكل الأحكام التحليلية هي أحكام قبلية ، وكل الأحكام التركيبية أحكام بعدية أو تجريبية عند هيوم ، وكل الأحكام البعدية أو التجريبية أحكام تركيبية . ولكي يكون الحكم قبليا فيجب أن يكون مستقلا عن التجربة متميزا بعلاقة اعتماد جواني ، ومن هنا فقد أكد هيوم ، ومن بعده كنط ، على أن الأحكام المنطقية والرياضية قبلية وضرورية .

وقد برهن كنط على وجود الأحكام التركيبية القبلية من خلال تحليله المتميز لأحكام علمي الرياضة والفيزياء ، ويرى أن الأحكام التركيبية متضمنة - بوصفها مبادئ - في جميع العلوم النظرية للعقل .

ففيما يتعلق بالرياضة ، فإن أحكامها قبلية لأنها تنطوي على الضرورة التي لا يمكن استخلاصها من التجربة ، كما أنها تركيبية لأن محمولها يضيف جديدا إلى موضوعها ، ويضرب على ذلك مثلا بقضية : $12 = 5 + 7$ فتصور العدد 7 وتصور العدد 5 مع علامة الجمع ، لا يتضمن تصور العدد 12 وهذا أمر يزداد اقتناعنا به كلما تناولنا أعدادا أكبر ، إذ سيتضح لنا أننا مهما أدرنا تصوراتنا وأعدنا دورانها فلن نستطيع أبدا ، بغير الاستعانة بالحدس ، أن نصل من مجرد تحليل تصوراتنا إلى حاصل الجمع كذلك يرى كنط أنه لا يمكن وصف أي مبدأ من مبادئ الهندسة البحتة بأنه تحليلي ، فالقول بأن : الخط المستقيم أقصر الخطوط بين نقطتين « هو قضية تركيبية ، لأن تصوري عن المستقيم لا يحتوي على شيء كمي إنما يحتوي على كيف وإذن فتصور الأقصر هو بأكمله تصور مضاف ويستحيل التوصل إليه عن طريق تحليل تصور الخط المستقيم . ولا بد هنا من اللجوء إلى الحدس الذي يستطيع وحده أن يجعل التركيب ممكنا .⁽¹⁾

أما بالنسبة للفيزياء ، فإنها أيضا تشتمل على أحكام تركيبية قبلية ، ويمثل على ذلك بالقضيتين الآتيتين :

1- kant, Critique of pure Reason : P. 53 .

فى كل التغيرات التى تحدث فى عالم الأجسام تظل كمية المادة ثابتة بدون تغير ، لابد فى كل الحركات أن يتساوى الفعل ورد الفعل بصفة دائمة فهاتان القضيتان تركيبيتان ليستا فحسب ضروريتين ومصدرهما قبلى ، وإنما هما أيضا قضيتان تركيبيتان ، ذلك لأننى - كما يقول كنط - عندما أفكر فى تصور «المادة» لا أدرك منه الثابت خلال الزمن ، وإنما أدرك حضور هذه المادة فى المكان عن طريق ملئها له . ومعنى هذا أننى من الناحية الواقعية أتخطئ تصور «المادة» وأجاوزته لكى أضيف إليه بطريقة قبلية شيئا لم أدركه فيه ، يترتب على هذا أن القضية ليست تحليلية ، وإنما هى قضية تركيبية أدركت مع ذلك بطريقة قبلية وبالمثل نجد أن تصورنا للحركة فى القضية الثانية لا يتضمن بالضرورة إدراك معنى المساواة بين الفعل ورد الفعل وإذن فنحن هنا أمام أحكام تركيبية يتم من خلالها تحقيق نمو فى المعارف ، مع كونها فى الوقت ذاته أحكاما قبلية تتصف لصفتي الضرورة والكلية يوقعا إنكارها فى تناقض مبين^(١)

فاذا انتقلنا إلى الميتافيزيقا ، فإنها يجب أن تحتوى على معارف قبلية تركيبية إذا ما أرادت أن تصبح علما ، فليس مهمتها على الإطلاق مجرد تفكيك التصورات المكونة بطريقة قبلية عن الأشياء وشرحها وتفسيرها بطريقة تحليلية . وإنما يجب عليها أن توسع معرفتنا بطريقة قبلية ، ويلزم لتحقيق هذا الهدف أن نستخدم مبادئ قادرة على أن تضيف إلى التصور المعطى شيئا لم يكن محتوى فيه من قبل ، كما يكون لديها القدرة على أن ترتفع بنا - عن طريق الأحكام التركيبية القبلية - ارتفاعا بعيدا بحيث تعجز التجربة نفسها عن اللحاق بنا ، وعلى سبيل المثال كما فى القضية الآتية : يجب أن تكون للعالم بداية أولى .

وهكذا يرى كنط أن الميتافيزيقا - على الأقل بالنسبة للهدف منها - تتكون من قضايا تركيبية قبلية^(٢)

1- Ibid., P. 54 .

2- Ibid., PP. 54 - 5 .

وانطلاقاً من هذه الرؤية الجديدة للأحكام التركيبية القبلية فى كل من الرياضيات والعلوم الطبيعية والميتافيزيقا - إذا كان عليها أن تصير علما - يعالج كنط الأسس التى تحدد علمية هذه العلوم فى إطار ثلاثة أسئلة ترسندنتالية رئيسية ، هى :

كيف تكون الرياضيات المحضة ممكنة ؟

كيف تكون العلوم الطبيعية المحضة ممكنة ؟

كيف تكون الميتافيزيقا على الإطلاق ممكنة ؟

وقد تمكن كنط من إدراج هذه الأسئلة فى سؤال واحد فقط هو :

كيف تكون الأحكام التركيبية القبلية ممكنة ؟ (١)

وفى هذا السؤال يكمن الإشكال الحقيقى للعقل المحض ، الذى يتوقف على إمكان حله أو امتناعه ، قيام أو عدم معرفة ميتافيزيقية عن الله ، والنفس والإرادة ، أى يتوقف على إمكان حله أو امتناعه - التوصل الى قرار بشأن قدرة العقل أو عجزه عن الحكم على مثل تلك الموضوعات : الله ، النفس ، الإرادة ، وبالتالى يمكن فى النهاية الحكم بأن نوسع عقلنا المحض عن ثقة واطمئنان فى مجال بحث الموضوعات الميتافيزيقية ، أو بأن نضع له حدودا ثابتة ومؤكدة . هذا السؤال الأخير الذى انبثق من الإشكال العام الذى سبق ذكره يمكن صياغته وفق الصور الآتية :

كيف يمكن أن تكون الميتافيزيقا علما ؟ (٢)

هكذا نرى أن الإشكال الفلسفى عند كنط قد تشكل - مثلما حدث مع هيوم - تحت تأثير العلم .

لكن هيوم كان أكثر إخلاصا للعلم من كنط ، إذ ظل العلم يمثل عنده الدافع والهدف الوحيد ، أما كنط فقد كان يوجد لديه بجانب العلم -

1- Ibid ., P. 55 .

2- Ibid., P. 57 .

الدين والإخلاق كدافعين أساسيين ، حيث كافح حتى النهاية للتوفيق بين المنهج العلمى ، والعقيدة الدينية ، أو بعبارة أدق - هى عبارته - : استبعد العلم لكى يفسح مجالا للإيمان ^(١) يقول برتراندرسل موضحا هذا الأمر :

« عندما نحاول أن نحدد الدوافع التى قادت الناس إلى البحث فى المسائل الفلسفية ، فإننا نجد بوجه عام أنها يمكن أن تقسم إلى مجموعتين متضادتين غالبا وتؤدى إلى مذاهب شديدة الاختلاف . هاتان المجموعتان من الدوافع هما : الدوافع المستمدة من الدين والأخلاق من ناحية ، هناك الدوافع المستمدة من العلم من ناحية أخرى . ويمكن أن نأخذ افلاطون وسبينوزا وهيجل كنماذج للفلاسفة ذوى الاهتمامات الدينية والأخلاقية أساسا ، وفى المقابل يمكن أن نأخذ لينتس ولوك وهيوم كممثلين للجناح العلمى . ونجد كلا من هاتين المجموعتين من الدوافع متمثلة بقوة عند أرسطو وديكارت وبيركلى وكنط » . ^(٢)

ورغم إعجاب هيوم وكنط البالغ بعلم نيوتن ، ومحاولتهما اتخاذ الميتافيزيقا علما عن طريق تطبيق النهج الذى وفق إليه فى دراسة الميكانيكا السماوية على دراسة الطبيعة البشرية - فإنهما لم يسلما بعلم نيوتن كحق مطلق لا ريب فيه ، بل كانا ينتقدان ، لاسيما كنط ، بعض تصوراته مثل الزمان والمكان ومع أن أيا منهما لم يخضع للتحليل النقدى نسق مقولاته المتكامل الذى جاء فى أوضح تعبير جبرى فى كتاب «المبادئ» العظيم ، إلا أنهما قد وجها ضربات عنيفة إلى فلسفته الميتافيزيقية ، يقول بيرت :

« تلقى لاهوت نيوتن بصفة عامة بعدة ضربات عنيفة على يدى هيوم والراديكاليين الفرنسيين ، وتلقى فيما بعد ضربات هامة بواسطة التحليل الكنطى الحاد » . ^(٣)

1- Ibid., P. 29 .

2- Russell, Mysticism and Logic (London : Univ. Books, 1963), P. 95 .

3- Burtt, The Metaphysical Foundations of Modern Science, P. 230.

ولا غرابة فى ذلك ، فقد كانت فلسفة نيوتن الطبيعية تكاد تكون منقطعة الصلة بفلسفته الميتافيزيقية التى كان يميل إلى الإيمان بها بسائق التصوف الشخصى أكثر مما كان يميل إلى اتخاذها موضوعا لتأملات منهجية ذات ارتباط قوى بعلمه الطبيعى .



الفصل الثانى

عقلانية هيوم فى ضوء عقلانية كنط

- * تمهيد . * مبادئ العقل الأولية عند هيوم .
- * مشكلة السببية بين كنط وهيوم .
- * دور الخيال فى عملية الإدراك .
- * يقينية المعرفة العقلية وقلنية المعرفة
التجريبية عند هيوم .
- * عدم تعويل هيوم على النفس فى موقفه
من العالم الخارجى .
- * أصل الانطباعات عند هيوم .
- * عقلانية هيوم فى مجال الدين .
- * الاتصال والانقطاع بين عقلانية هيوم
والعقلانية الغربية .
- * العقبة الأخيرة : حقيقة منهج الاستدلال
التجريبى وحرب الواقع فى تاريخ الفلسفة .

عقلانية هيوم في ضوء عقلانية كمنط

تمهيد:

لقد أن الأوان للقضاء على اعتقاد شائع في مجال الدراسات الفلسفية ،
فحواه أن هيوم فيلسوف تجريبي صارم ، مار بالتجريبية حتى نهاياتها المنطقية ،
فإذا كان فرنسيس بيكون هو رائد التيار التجريبي ، ثم جاء من بعده هوبز ،
فجون لوك الذي بلور هذا التيار وعمق جذوره ، ثم بيركلي الذي خصبه
بزيادة من عمقه واتساعه - فإن هيوم وصل بهذا التيار إلى نتائجه المنطقية ،
حتى أصبح من المستحيل المضي أبعد مما وصل إليه . وبالتالي فقد اعتبره
اليوم الموضوع المناقشة وتذا ليم وواضعا لأصولهم الفلسفية .^(١)

هذا الاعتقاد الشائع قام نتيجة فهم خاطيء لفلسفة هيوم . وكان السبب
في تـكونه أن أصحابه لم ينظروا إلى فلسفة هيوم نظرة مجردة ، وإنما وضعوها
في سياق التجريبية الإنجليزية ، ونظروا إليها عبر هذا المنظور ، ومن ثم أظهرت
هذه العدسة التجريبية هيوم لكل راء كـ فيلسوف تجريبي .

وعلى العكس تماما من هذا التصور الشائع ، فإن القراءة المتأنية لنصوص
هيوم وتتبع جذورها في الفلسفة الأوروبية لاسيما عند ديكارت ، تثبت أنه
فيلسوف عقلاني ديكارتي قد قام برسم صورة موضوعية للإنسان ، والطبيعة ،
والمجتمع ، من عناصر ذاتية خالصة ، هي الأفكار .^(٢)

١- أحدث دراسة صدرت مباشرة لهذا الاتجاه في فهم هيوم هي التي قام بها الفيلسوف
الإنجليزي A.J. Ayer في كتابه Hume : (Oxford Univ. Press, 1980)
ومن الدراسات العربية دراسة د/ زكي نجيب محمود : ديفد هيوم (القاهرة : دار المعارف ،

١٩٥٧م) سلسلة نوايغ الفكر الغربي رقم ٧ . انظر بصفة خاصة ص ٩ - ١٢ .
2- Ezra Talmor, Descartes and Hume, (Britain : Pergamon press, 1980), P. XVII.

فلم يكن هيوم فى يوم ما فيلسوفا تجريبيا صارما ، نعم ربما يكون قد اعترف بأهمية التجربة فى المعرفة ، لكنه أنكر أن تكون هذه التجربة قادرة على تقديم معرفة تتسم بسمتى الضرورة والكلية . ولا يمكن منطقيا اعتبار فيلسوف لديه رأى مثل هذا عن التجربة - فيلسوفا تجريبيا جذريا .

وقد جاء هذا التصور الجديد لهيوم نتيجة قراءة كنطية لفلسفته ، أى قراءته من منظور كنط ، وفى ضوء الحدوس الكنطية الأساسية . ولا يعنى هذا أن كنط قد فهم هيوم على هذا النحو بالضبط .. لا .. إنما نقصد أننا سنعيد قراءة هيوم بدءا من كنط وانطلاقا من حدوسه الفلسفية بالغة العمق والتميز ، تلك الحدوس التى نتخذها بمثابة كشافات تنير بها فلسفة هيوم فى محاولة لقراءتها قراءة جديدة أو بمثابة معايير نقيس بها فلسفته :

هل هى عقلانية أم تجريبية ؟

إننا هنا نعرض هيوم على كنط : إلى أى حد كان هيوم كنطيا ؟ فإذا كانت الدراسات السابقة تتساءل إلى أى حد كان كنط هيوميا ؟ فنحن نتساءل تساؤلا عكسيا ، لا كنوع من الحذقة أو الرغبة فى المخالفة ، وإنما أملى علينا هذا ضرورة منهجية . ذلك أن القراءات السابقة للعلاقة بينهما كانت تسير دائما من هيوم إلى كنط فى إطار مشكلة العلية ، وتؤكد فى الغالب الأعم أن كنط قد أجاب على مشكلة هيوم ، الأمر الذى كان يوجه دائما إلى الكنطية ويقطع القراءة عن فلسفة هيوم ، فضلا عن أنه يختزل المشكلة كلها فى إطار مشكلة العلية ، فى حين أن المشكلة أعم من ذلك لأنها مشكلة العقل كله .

قد يعتبر البعض قراءتنا لهيوم عبر كنط قراءة غير موضوعية لأنها تنظر إليه من منظور كنطى ، أى منظور غير محايد ، تماما مثلما فعلت القراءات السابقة التى نظرت إلى هيوم من منظور التجريبية الانجليزية .

ربما كان يحق لهؤلاء إصدار هذا الحكم لو أننا اقتصرنا على قراءة هيوم من هذا المنظور فقط . وفى الواقع أننا سنعمل على قراءة هيوم أيضا من منظور الثوابت البنيوية التى يتمحور حولها التيار العقلانى بدءا من فجر

الفلسفة اليونانية حتى العصر الحديث . ونحن نفعل ذلك لسببين :
أولهما : أن تحديد مفهوم العقلانية كما تعين من خلال الفكر الغربي
يعد ذا أهمية من الناحية المنهجية البحتة ، إذ أن هذا الفكر يمثل الإطار
المرجعي لتفكير هيوم نفسه .

ثانيهما : حتى لا نتهم بعدم الموضوعية والخيانة لنص هيوم الفلسفي
نتيجة قراءته من خلال كنت وحده ، مع أننا نؤمن أن قراءة هيوم عبر كنت
وحده هي قراءة له عبر التيار العقلاني كله ، لأن بواعث وتوجهات الفكر
العقلاني تجتمع كلها في فكر كنت ، كما أن بنية الفلسفة الكنتية بكل
ثوابتها البنيوية والتكوينية بعد تجريدتها من كل محتوى ، هي بنية أى فلسفة
عقلية .

إذن ما هي الثوابت البنيوية التي تحدد ماهية المذهب العقلاني ؟
يحدد روزنثال M. Rosenthal في «القاموس الفلسفي» معنى
العقلانية على أنها ذلك المذهب في نظرية المعرفة الذي يرى أن الكلية
والضرورة كصفتين منطقيتين للمعرفة الحقة لا يمكن أن تستنتجا من
التجربة ، وأن عموميتها تستنتج فقط من العقل نفسه : إما من التصورات
المفطورة في العقل (مثل نظرية الأفكار الفطرية عند ديكارت) ، أو من
التصورات الموجودة فقط في صورة الاستعدادات القبلية للعقل . إن التجربة
تمارس تأثيرها المنبه على ظهورها ، لكن سمة الكلية المطلقة والضرورة
المطلقة تعطى لها قبل التجربة ، وأحكام العقل والصور القبلية مستقلة بشكل
مطلق عن التجربة (كنت) . بهذا المعنى تقف العقلانية في مواجهة
التجريبية . إن العقلانية تقوم كمحاولة لتفسير المميزات المنطقية للحقائق
الرياضية والعلم الطبيعي الرياضي . ومثلوها - كما يقول روزنثال - في
القرن السابع عشر هم : ديكارت ، سبينوزا ، ليبنتس ، وفي القرن الثامن
عشر : كنت ، فشته ، شلنج ، هيغل . وهكذا فإن حدود العقلانية تتمثل
في كونها تنكر قضية أن الكلية والضرورة تنشآن من التجربة .^(١)

1- M. Rosenthal and P. Yudin, A dictionary of philosophy
(Moscow : Progress publisher, 1967) , PP. 378 - 79 .

إذا كان هذا هو مفهوم العقلانية فى الفلسفة الغربية بشكل عام ، وكما تبلور عند كـنـط بشكل خاص ، فأين يقع هيوم منه : هل تـنـدرج ثوابت تفكيره الفلسفى وبنية نظرياته تحت هذا المفهوم أم أنها مضادة له ، إذ أنها ثوابت تجريبية وبنية حسية ؟

إن الغرض المنوط بهذا الفصل إثباته هو أن هيوم فيلسوف عقلانى إلى حد كبير بالمعنى العام ، وعقلانى تماما بالمعنى الكـنـطى الذى يقر بأهمية دور العقل وفاعلياته فى عملية المعرفة من خلال تنظيم الانطباعات الحسية المشتتة وتحويلها إلى أفكار ذات كيان واضح ومميز . وتركيز هيوم على دور التجربة لا ينكر عقلانيته ، بدليل أن كـنـط نفسه يقول :

« إن كل معرفتنا تبدأ مع التجربة » .. (١)

ومع ذلك يعده المؤرخون من العقلانيين ، لتأكيدهم على دور العقل فى المعرفة ولقوله بالصور العقلية والمقولات القبلية :

« إذا كانت كل معرفتنا تبدأ مع التجربة فليس معنى هذا أنها تتبع بأكملها من التجربة ، إذ أن من الممكن أن تكون معرفتنا التجريبية نفسها مركبا مؤلفا مما نتلقاه عن طريق الانطباعات الحسية ومما تقوم قدرتنا الخاصة على المعرفة (إذا اقتضت الانطباعات الحسية على مجرد إثارتها) بإنتاجه من ذاتها بحيث لا نتمكن من تمييز هذا الجانب المضاف عن المادة الأولية حتى ينبهنا إليه المران الطويل ويزودنا بالقدرة على عزله » . (٢)

نعم إن التجربة تسبق زمنيا الشروط العقلية فى عملية المعرفة ، لكن الشروط العقلية تتقدم عليها منطقيا .

إن هيوم عقلانى بالمعنى الكـنـطى لأنه - بالإضافة ما سبق - قد بحث عن ضمان اليقين خارج التجربة ، بل إنه هو نفسه الذى شكك كـنـط فى أن التجربة تكفل الضرورة والكلية دعامتى كل يقين .

1- kant, Critique of pure reason, P. 41 .

2- Ibid., PP. 41 - 2 .

ولكن إذا كان هيوم عقلانيا وفقا لتلك المقاييس فهذا لا يعنى أن عقلانيته عقلانية مطلقة على غرار عقلانية أفلاطون وغيره من القائلين بالأفكار الفطرية والمؤكدین على أن المعرفة الحسية معرفة وهمية .

فبطبيعة الحال لا يوجد عند هيوم آراء من هذا القبيل وإنما عنده فقط صور قبلية ومبادئ أولية مثلما هو الحال عند كنت ، وهناك فارق بين الأفكار الفطرية وبين الصور والمقولات والمبادئ القبلية .

ومع أن عقلانية هيوم ليست بنفس هذا المعنى الأفلاطونى ، فإن هناك ثابتا بنويا أو قاسما مشتركا بينهما ، وهو البحث عن سمتى الضرورة والكلية الضامنتين ليقين المعرفة خارج نطاق التجربة .

إن هيوم لا يمكن إدراجه على نحو سليم فى الاتجاه التجريبي الذى اعتاد مؤرخو الفلسفة النظر إليه باعتبار أنه يعد العقل الإنسانى لوحة بيضاء لا تتمتع بأية فعالية فطرية كل مهمتها أن تتقبل انعكاسات العالم عليها عن طريق الحواس ، وتكتسب منه قوانين المعرفة ومضمونها معا ، وكأن التجربة تقدم للذات المعطيات وشروط تعقلها فى الوقت نفسه .

إن هذا لم يقل به هيوم لأنه ذهب إلى أن العقل به مجموعة من القواعد المنطقية الصورية ذات دور إيجابى فى عملية المعرفة ، بل إنه قد جعل الطبيعة نفسها جزءا من العقل مثل كنت بدلا من أن يعتبر العقل جزءا من الطبيعة مثل التجريبيين الجذريين .

ويشترك هيوم فى هذه النقطة مع كل العقلانيين ، ولا سيما مع كنت . وقد التفت لينين إلى هذا فقال :

« الفكرة الأساسية المشتركة بين هيوم وكنت (هى) إنكار القوانين الموضوعية فى الطبيعة واستنباط «شروط التجربة» الخصوصية ، والمبادئ والمصادر والموضوعات الخصوصية من الذات من الشعور البشرى ، وليس من الطبيعة » . (١)

١ - لينين ، المادية والمذهب التجريبي النقدي : تعليقات نقدية على فلسفة رجعية ، ترجمة د/ فؤاد أيوب (دار دمشق ، ١٩٧٥م) ص ١٦٠ .

وكان لينين قد استنتج من قبل أن القائل بهذا الرأي يجعل الطبيعة جزءا من العقل لا العكس ، فقال فى معرض حديثه عن موقف فيورباخ من السببية والضرورة :

« من الواضح حقا أن الاتجاه الذاتى فى مسألة السببية واستنباط نظام الطبيعة وقوانينها ليس من العالم الموضوعى الخارجى ، بل من الشعور والعقل والمنطق ، الخ - لا يفصل العقل البشرى عن الطبيعة فحسب ولا يجابه ذلك العقل بهذه الطبيعة فحسب ، بل يجعل الطبيعة جزءا من العقل بدلا من أن يعتبر العقل بمثابة جزء من الطبيعة . ويؤول الاتجاه الذاتى فى مسألة السببية إلى المثالية الفلسفية ، ومن ضرورتها نظريتا هيوم وكنط فى السببية » (١)

وإذا كان هيوم وكنط يشتركان فعلا فى استنباط «شروط التجربة» من العقل الإنسانى لا من الطبيعة فإنه يمكن لنا وصف «تجربة» هيوم بما وصف به أستاذنا د/ هويدى تجربة كنط عندما قال عنها إنها « تجربة معقولة» ، وعلى هذا تكون تجريبية هيوم المعقلنة صورة جديدة من صور المذهب العقلى لأن هيوم لا يختلف عن كنط الذى قال عنه أستاذنا د/ يحيى هويدى :

« تصور العقل على أنه باطن فى التجربة بدلا من أن يكون بعيدا عنها ، وتحدث عن التجربة على أنها «التجربة المعقولة» أى التجربة مبثوثا فيها العقل ، وقد أراد بذلك أن يكون العقل مسيطرا على الطبيعة تماما عن طريق ما ينشره عليها من صور وقوالب وإطارات فيلفها فى طياته لفا لا يستطيع أى جزء من التجربة أن يخرج عن هذه القوالب أو يشذ عنها » (٢)

* مبادئ العقل الأولية عند هيوم :

لا يمكننا - بطبيعة الحال - الزعم بأن تجربة هيوم معقلنة بنفس درجة عقلنة «تجربة» كنط ، لكن يمكننا الزعم من جهة أخرى أن صور كنط ومقولاته التى تمثل قوالب وإطارات التجربة - تجد جذورها عند هيوم فى

١- المرجع السابق ص ١٤٩ .

٢- د/ يحيى هويدى ، مقدمة فى الفلسفة العامة (القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٧٩م) ص ١٤٢ .

حديثه عن مبادئ العقل الثلاث : التشابه ، التجاور فى الزمان والمكان ، السببية ، فضلا عن سائر العلاقات الفلسفية التى تحدث عنها هيوم . فهذه العلاقات وتلك المبادئ أولية ضرورية عند هيوم ، ومن ثم يمكن اعتبارها «الجذور» التى نمت مع كنط فتحوّلت إلى صور ومقولات ترسندنتالية ، الأمر الذى يؤكد عقلانية هيوم .

هذه الدعوى المجملة وهذا الاستنتاج السريع سنقيم عليهما البرهان التفصيلى فيما يلى :

نص هيوم فى فلسفته على وجود ثلاثة مبادئ أولية فى العقل ، تقوم بنفس الدور الذى يقوم به قانون الجاذبية النيوتونى ، فكما يحفظ هذا القانون النظام فى الكون فإن المبادئ الثلاث تحفظ النظام فى العقل .

وتتمثل هذه المبادئ فى : التشابه ، التجاور فى الزمان والمكان ، والسببية . ويرى هيوم أنه لا يمكن وضعها بأية حال موضع رية ، فالصورة تقود أفكارنا بشكل طبيعى نحو الأصل ، وتذكر شقة فى عمارة يستدعى فى تفكيرنا الشقق الأخرى المجاورة ، وعندما نفكر فى جرح فإن من النادر ألا نتأمل فى الألم الذى يتبعه .

ويستدل هيوم على هذه المبادئ ، انطلاقا من أن الأفكار المختلفة عندما يظهر أى منها فى الذاكرة أو الخيال فإن كلا منها تستدعى الأخرى بدرجة معينة من المنهجية والانتظام . وهذا الترابط ملحوظ بدرجة أكبر عند التفكير أو المحادثة الأكثر جدية ، لدرجة أن أى تفكير خاص يتسبب فى قطع تسلسل الأفكار يتم ملاحظته على الفور ، بل ويتم رفضه .

وحتى فى أحلام اليقظة الشاذة والبعيدة عن الواقع ، وربما فى أحلام نوم كلها فإننا نجد - كما يقول هيوم - إذا ما تأملناها أن الخيال لا يصل إلى حد التخريف ، وإنما ما يزال هناك ترابط بين الأفكار المختلفة التى يتبع بعضها بعضا . وأيضا عند متابعة تسجيل محادثة حرة طليقة تتناول موضوعات شتى ، فإن المرء يمكنه أن يلاحظ أن شيئا ما يربط بين كل الانتقالات التى تتم بين مختلف موضوعاتها .^(١)

1 - Hume, An Enquiry concerning Human Understanding, PP. 23 - 4 .

إن مبادئ التداعى هذه تقوم بدور مشابه إلى حد ما لذلك الدور الذى تقوم به صورتا الحساسية والمقولات عند كنت ، من تنظيم للمعطيات الحسية ، ومن نقل لها من مرحلة التشتت والعماء إلى مرحلة التكوين والنظام ، ولا شك أن صور ومقولات كنت ذات دور أكثر إيجابية من مبادئ هيوم ، لكن هذا لا يحول دون القول بأن صور ومقولات كنت هى التطور الترنسندنتالى الطبيعى لمبادئ هيوم .

ويؤكد هذا التفسير أن هيوم قد اعتبر تلك المبادئ قبنية كلية ، يقول :
« لا يمكن أن نشك أن بين اللغات المختلفة ارتباطا واتصالا ، فالكلمات التى تعبر عن أفكار مركبة فى الغالب بشكل يجعل كل واحدة منها مماثلة تقريبا للآخرى . وهذا دليل أكيد على أن الأفكار البسيطة ، التى تصبح مركبة عند إدراكها مرتبطة معا (فى العقول البشرية) بواسطة مبدأ كلى ما ، له تأثير متعادل على الجنس البشرى كله » .^(١)

ومن الأمور ذات الدلالة البالغة فى هذا المقام اعتبار هيوم لتلك القوانين الثلاثة بالنسبة لأفكارنا مثل قانون الجاذبية النيوتونى للأجسام ، فهى تحفظ النظام فى الذهن مثلما يحفظ قانون الجاذبية نظام الكون .

بل إن هيوم - كما أظهر برهنيه^(٢) - قد شجب «التفاسير» الفسيولوجية المزعومة التى طلبها الديكارتيون - وعلى الأخص مالبرانث - لهذه القوانين ، فهى فى نظره أصلية وأولية .

وبما أن مبادئ التداعى قبلية كلية

ومبدأ السببية أحد مبادئ التداعى

إذن فإن مبدأ السببية مبدأ قبلى كلى

1- Ibid ., 23 .

٢- إميل برهنيه ، تاريخ الفلسفة : القرن الثامن عشر ، ص ١١٧ - ١١٨ .

هذه كانت أول خطوة نخطوها نحو مشكلة المشاكل فى فلسفة هيوم ..
مشكلة العقل ذاته .. مشكلة السببية . فارتباط السببية بالعقل ارتباط جوهري
لأن العقل فى نهاية التحليل يرتد بنىويا إلى السببية . وقد انعكس هذا
التصور للعقل على اللغات الأوربية ، حيث نجد أن كلمة Ratio
اللاتينية أو ما اشتق منها ، مثل كلمة Raison الفرنسية و Reason
الانجليزية - تدل تارة على ملكة العقل ، وتارة على علاقة السببية .

ومن هنا فإن حديثنا عن السببية عند هيوم هو حديث عن العقلانية عنده؛
لأن السببية بشرطيتها الضرورية والكلية ، تستنبط عند هيوم من الذات ، من
العقل الإنسانى لا من الطبيعة . وهذا رأى الجوهري لهيوم هو الثابت
البنىوى الذى يميز كل الفلسفات العقلانية عن الفلسفات التجريبية المحض
التي ترى أن الروابط السببية والضرورة والكلية إنما توجد فى القوانين
الموضوعية للطبيعة الخارجية ، مستقلة استقلالاً تاماً عن العقل الإنسانى .
ولما كان المعيار الحاسم والدقيق الذى يقسم التيارات الفلسفية جمعاء إلى
تيارات عقلانية وتيارات تجريبية ، هو : هل السببية بشرطيتها الضرورية والكلية
كصفتين للمعرفة الحقة ، تستمد من التجربة أم من خصائص ذهننا وملكاته
الفطرية ومبادئه القبلية؟^(١)

لما كان ذلك هكذا فإن إثبات عقلانية هيوم - إذا أردنا له أن يكون إثباتاً
فلسفياً دقيقاً - ينبغى أن ينطلق فى فحص فلسفة هيوم - فى جانبها المعرفى
- ابتداء من هذا المعيار ، الذى أقره لينين بقوله :

« إن المسألة المعرفية العامة حقاً التى تقسم التيارات الفلسفية ليست هى
درجة الدقة التى توصلت إليها أوصافنا للروابط السببية ، أو ما إذا كانت هذه
الأوصاف ، يمكن أن يعبر عنها بصيغ رياضية دقيقة ، بل ما إذا كان مصدر

1 - Rosenthal and P . Yudin, A dictionary of Philosophy , PP.
378 - 9

معرفتنا لهذه الروابط هو فى القوانين الموضوعية للطبيعة أو فى خصائص
ذهننا ، ملكته الفطرية لتفهم بعض الحقائق القبلية » . (١)

وإذا ما أثبتنا - بواسطة النصوص - أن تصور هيوم للضرورة يؤكد على
أنها كامنة فى العقل كتحديد أولى ، وأنه لا يختلف عن تصور كנט ، فإن
هيوم لابد أن يكون كنطيا ، أى لابد أن يكون عقليا .

ولقد سهل علينا كנט جزءا كبيرا من هذه المهمة - أعنى إثبات توافق
تصور هيوم مع تصور كנט - حيث بين كנט فى « المقدمات » اتفاقه مع
هيوم فى عدة جوانب من تصوره لعلاقة السببية .

فبدأ كנט بتأييد هيوم فى قوله إننا لا نستطيع بالعقل أن ندرك إمكان
العلية ، أى الاقتران بين وجود شئ ووجود شئ آخر يضعه الأول ضرورة .
ويضيف كנט أننا لا نستطيع تصور إمكان مثل هذا الشئ ، وعدم الفهم
هذا يمتد أيضا إلى العلاقات المتبادلة بين الأشياء ، لأننا لا نفهم كيف أنه
يمكن من حال شئ أن نستنتج حال أشياء خارجة عنه ، وبالعكس ، ولا
كيف أن جوهرًا يتبع جوهرًا آخر بالضرورة مع أن كل جوهر له وجوده
الخاص المتميز والمنفصل . (٢)

ولا يكتفى كנט نفسه ببيان اتفاقه مع هيوم فى تلك الجوانب ، بل يدافع
عنه ضد الذين يزعمون - على سبيل الخطأ - أنه قد أنكر السببية ،
وبالتالى زعموا أنه حطم الأساس الذى يقوم عليه العلم ! يقول كנט :

١- لينين ، المادية والمذهب التجريبي النقدي ، ص ١٥٣ .

2- Kant, Prolegomena to any Future Metaphysics, ed., John Richardson, PP. 88-9 .

قارن الترجمة العربية ، ص ١٢٠ ، حيث يأتى هذا النص تحت بند رقم ٢٧ فى حين يأتى فى
الطبعة الانجليزية المذكورة تحت بند رقم ٢٨ .

وقارن أيضا : عبدالرحمن بدوى ، الأخلاق عند كنت (الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٩م) ،

ص ٢٣ .

« أراد سوء الحظ الذى حالف الميتافيزيقا ألا يفهم أحد ما قاله هيوم ولا نستطيع أن نرى دون أن نشعر بشيء من الأسى كيف أخفق خصومه : ريد ، وأوزوالد ، وبيتى ، وأخيرا برستلى ، فى فهم النقطة الرئيسية فى هذه المسألة ، وكيف أنهم جميعا أخطأوا فى فهمها ، فحسبوا الأمور التى يشك فيها هيوم أمورا متفقا عليها ، وحاولوا بالعكس أن يثبتوا بطريقة عنيفة ، وفى أغلب الأحيان مع كثير من الفضول ، الأمور التى لم يخطر بباله قط أن يشك فيها ، فأنكروا ما قام به من أجل إصلاح الميتافيزيقا . وكانت النتيجة أن بقى كل شيء على حاله وكأن شيئا لم يكن ، إن المسألة لم تكن خاصة بمعرفة هل تصور العلة تصور دقيق ذو فائدة عملية ولازم فى الطبيعة ، فإن هيوم لم يخامره الشك فى هذا أبدا »^(١)

لكن كمنظّر رغم دفاعه عن هيوم وإعلانه لاتفاقه معه فى عدة جوانب مهمة ، إلا أنه يزعم أن ثمة نقطة اختلاف بينه وبين هيوم ، ذلك أن هذا الأخير - فيما يعتقد كمنظّر - يرى أن تلك التصورات مستمدة من التجربة ، وأن الضرورة المتمثلة منها هى مجرد وهم واختراع ومظهر ناتج عن طول الاعتياد . لكن كمنظّر - فيما يقول هو - لا يقر بأن هذه التصورات بعدية ، وإنما يقر أن تصور العلية والمبادئ المشتقة منه تقوم على أساس قبلى متقدم على كل تجربة ، وأنها ذات دقة موضوعية لا يتناولها الشك .^(٢)

وفى الحقيقة أن نقطة الخلاف هذه التى يحدثنا عنها كمنظّر - مفتعلة ، لأن نصوص هيوم تخبرنا بأن هيوم لم يقل بأن الضرورة مستمدة من التجربة ، بل على العكس من ذلك تنطق باللفظ الصريح بأن الضرورة تحديد عقلى ، وأن من غير الممكن اشتقاقها من التجربة ؛ لأن التجربة لا تقدم مفهوم الضرورة ولا مفهوم الكلية . يقول هيوم :

1- Kant, Prolegomena to any Future Metaphysics, ed . Richardson, الترجمة العربية ، ص ٤٥ - ٤٦ . P . XXI .

2- Ibid., P. 89 . الترجمة العربية ، ص ١٢١ .

انظر أيضا : عبدالرحمن بدوى ، الأخلاق عند كنت ، ص ٢٣ .

« لا يستطيع أحد من الناس - بعد أن يرى جسما واحدا يتحرك نتيجة لدفعه بجسم آخر - أن يستدل من ذلك أن كل جسم آخر سيتحرك إذا ما تعرض لمثل هذا الدفع نفسه ^(١) فيستحيل على الإنسان أن يستنتج شيئا عن فكرة القوة (= الرابطة الضرورية) من تأمله للأجسام كما تبدو في الأمثلة الفردية لعملياتها ، ذلك لأن الأجسام لا تشف أبدا عن قوة وراءها يمكن أن تكون هي الأصل لهذه الفكرة » ^(٢).

فالتجربة عندهيوم لا تقدم إلا «تجاوز» بين السبب والمسبب ، لكنها لا تدل مطلقا على وجود «رابطة ضرورية» تنبع من السبب نفسه بحيث يتحتم معها نشوء المسبب .

وإذا كان يشيع عن هيوم أنه أنكر أن تكون العلاقة بين السبب والنتيجة عقلية فهذا فقط في نطاق الحالات الجزئية بين (س،ص) ، ولا يقصد بذلك مبدأ السببية العام من حيث هو مبدأ ، فالعقل لا يمكن أن يستنتج أنه مادامت س قد سبقت ص إذن فلا بد أن تكون الأولى سببا والثانية نتيجة ، لأن علاقة السببية بين (س،ص) - من حيث هي أحداث جزئية - لا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق التجربة . وهذا ما قال به كمنط أيضا : « لا يمكن أبدا أن ندرك بالعقل إمكان العلية ، أى الاقتران بين وجود شيء ووجود شيء آخر يضعه الأول بالضرورة » ^(٣).

أما المبدأ نفسه ، أوبلغة كمنط المقولة ، التى تجعل الإنسان يفكر تفكيراً سببياً ، فهى مقولة عقلية ، لأنها - كما أثبتنا من قبل - مبدأ من مبادئ التداعى الثلاثة التى تبين أنها مبادئ قبلية كلية .

يؤكد هذا التفسير قول هيوم الصريح :

1- Hume, An Enquiry Concerning Human Understanding, P. 43 .

2- Ibid ., P . 640 .

3- Kant, Prolegmena to any Future Metaphysics, PP. 88 - 9 .

الترجمة العربية ص ١٢٠ .

« إن الضرورة شيء يوجد في العقل لا في الموضوعات ، وإذا لم تكن الضرورة ممكنة لنا على هذا النحو فلا يمكن تكوين فكرة ثابتة عنها ، وعدت صفة في الأجسام». (١) إن هيوم يؤكد هذا أكثر في عبارة تالية للعبارة السابقة مباشرة ، مستخدما الأسلوب الشرطي المنفصل الذي يفيد الحسم فيقول :

« أما ألا يكون لدينا فكرة عن الضرورة ، أو تكون الضرورة ليست إلا تحديدا للفكر لكي ينتقل من الأسباب إلى المسببات ومن المسببات إلى الأسباب وفقا لوحدها التجريبية ». (٢)

وفي نص ثالث يقول :

« هاتان الصفتان (أى القوة والضرورة) إنما هما صفتان للإدراك لا للموضوعات وتشعر بهما الذات داخليا ، ولكنها لا تدركهما خارجيا في الأجسام ». (٣)

ويقول في نص رابع يأتي في خاتمة الكتاب الأول من «الرسالة» : إن الارتباط بين العلة والمعلول « يقع فقط في ذاتنا » وأن هذا الارتباط « ليس شيئا » وإنما هو « تحديد للعقل » (٤)

ويقول هيوم في القاعدة السادسة من القواعد الثمانية التي تحكم علاقة الأسباب بالمسببات :

« إن المبدأ الآتى مؤسس في العقل نفسه : تنشأ الاختلافات الموجودة بين المعلولات الصادرة عن موضوعين متشابهين ، من وجود صفة خاصة يختلف فيها كل من الموضوعين المتشابهين . فإذا كانت العلل المتماثلة تنتج دائما المعلولات متماثلة ، ثم وجدنا في حالة ما توقع حدوث فشل ، فيلزم

1- Hume, A Treatise of Human Nature, PP. 165 - 6

2- Ibid., P. 166 .

3- Idem .

4- Ibid., P. 266 .

أن نستنتج أن عدم الانتظام هذا إنما ينشأ عن وجود اختلافات معينة في
العلل ، (١)

إذن فهذه النصوص تدل على أن الضرورة عند هيوم تحديد للعقل أو
للتفكير لكي ينتقل من الأسباب إلى المسببات ، أقول « تحديد » وليس
انطباعا ، لأن هناك فرقا بين التحديد وبين الانطباع ، مثلما هناك فرق بين
المقولة وبين الحدس الحسى أو العقلى عند كنت .

ومن هنا يتبين لنا عدم دقة الذين ذهبوا إلى أن فكرة الضرورة لا أصل
لها عند هيوم (٢)

إن نصوص هيوم تنطق باللفظ الصريح والعبارة المحكمة بأن إيمانه
بالضرورة السببية كتحديد عقلى أمر ثابت لا ريب فيه ، لدرجة أنه يرى أن
الأحوال التى يتخلف فيها السبب عن إحداث المسبب لا تعنى عدم الارتباط
بينهما ، أو عدم الانتظام ، وإنما يحدث ذلك نتيجة لتدخل أسباب أخرى لم
نتمكن من معرفتها بعد ، مما يدل على أن هيوم يعتبر تصور السببية متصفا
بالدقة الموضوعية التى لا تقبل شكاً ، يقول هيوم :

« إنه لأمر صواب : عندما تتخلف أى علة عن إحداث معلولها المعتاد فإن
الفلاسفة لا ينسبون ذلك إلى عدم الانتظام فى الطبيعة وإنما يفترضون أن
بعض العلل فى بنية خاصة من الأجزاء قد أعاقَت العملية » . (٣)

فقوانين السببية التى تحكم الطبيعة لا تقبل استثناء ، ولم يحدث شيء
يدل على عكس ذلك ، يقول هيوم :

1- Ibid ., P . 174 .

(٢) من القائلين بأن فكرة الضرورة لا أصل لها عند هيوم : د/ زكي نجيب محمود فى كتابه عن
هيوم ، ص ٨٢ وما بعدها .

3- Hume, An Enquiry ... , P . 58 .

« توجد بعض الأسباب منتظمة ومطرودة تماما فى إحداث نتيجة خاصة ، ولا يوجد أى مثال لتخلف أو عدم انتظام فى وقوع عملياتها . فالنار دائما تحرق ، والماء يخنق ، والجاذبية قانون كلى لم يقبل استثناء حتى الآن » (١)

وتقوم كل الاستدلالات المتعلقة بأمر الواقع على أساس علاقة السببية . وبواسطة هذه العلاقة وحدها - فيما يرى هيوم - « يمكن لنا أن تتجاوز حدود شهادة ذاكرتنا وحواسنا ، فإذا سألت إنسانا : لماذا يعتقد فى أى أمر غائب من أمور الواقع ، كأن تسأله - على سبيل المثال - لماذا يعتقد أن صديقه يتواجد فى الريف أو فى فرنسا ؟ فإنه سيقدم لك السبب ، وهذا السبب هو واقعة أخرى ما ، كأن يكون قد تسلم خطابا منه ، أو معرفته بقرار أو وعد سابق منه . أيضا : الإنسان الذى يجد ساعة أو أى آلة أخرى فى جزيرة مهجورة ، فإنه يستنتج أن هناك إنسانا كان يعيش ذات مرة فى هذه الجزيرة . فكل استدالاتنا - المتعلقة بالواقع - كما يقول هيوم - لها نفس تلك الطبيعة . وهنا يفترض دائما أنه يوجد ارتباط بين الواقعة الحاضرة وتلك الواقعة الغائبة التى نستدل منها ، وإذا لم يوجد رابطة بينهما فإن الاستدلال سيكون مشكوكا فيه تماما . فسماع صوت واضح وحديث معقول فى الظلام يؤكد لنا حضور شخص ما :، لماذا ؟ لأن هذه معلومات خاصة بالإنسان ومرتبطة به . وإذا حللنا كل الاستدلالات الأخرى التى لها هذه الطبيعة ، فإننا سنجد أنها تقوم على أساس علاقة العلة والمعلول ، وتلك العلاقة إما قريبة أو بعيدة ، مباشرة أو غير مباشرة ، فالحرارة والضوء معلولان مصاحبان للنار ، والواحدة منها تستنتج بالضبط من الأخرى » (٢)

هذا ، وقد يعترض علينا بعض الزاعمين لنكران هيوم للسببية بقولهم : إنه إذا اعتبرها نتيجة للعادة يكون قد هدمها ، لأنها بهذا لا تكون مستندة إلى ضرورة عقلية أو طبيعية وإنما تكون نتيجة للتكرار .

1- Ibid ., PP . 57 - 8 .

2- Ibid., PP. 26 - 7 .

إن حديث هيوم عن السببية كنتيجة للعادة إنما هو فى إطار الأسباب والمسببات الجزئية الخاصة ، وليس فى إطار الحديث عن السببية من حيث هى مبدأ ، فحدث (أ) لا يمكن أن نستنتج منه عقليا حدوث (ب) ، إلا إذا حدث أمامنا فى الواقع الخارجى تتابع لهاتين الحادثتين أكثر من مرة ، فهنا يعتاد المرء تلازمهما ، ومن ثم لا يجد مفرا من الاستدلال على (ب) من (أ) .

فهذا الاستدلال - كما قلت - يتم فى نطاق الحوادث الجزئية والحالات المعينة . أما مبدأ السببية من حيث هو مبدأ للتفكير الإنسانى ، لا يمكن اعتباره نتيجة للعادة ، لأنه هو نفسه الذى يجعل العادة ممكنة ، إذ يهيىء المرء للتعامل مع الواقع على أساس التفكير السببى ، ولو لم يكن المرء مزودا بهذا المبدأ قبلها لما تمكن من إدراك تتابع الأشياء الخارجية .

يؤكد تأويلنا هذا لهيوم أنه عندما نتحدث عن السببية كمبدأ عام للتفكير ، نتحدث عنها على أساس أنها : « تحديد للفكر لى ينتقل من الأسباب إلى المسببات ، ومن المسببات إلى الأسباب »^(١) ، أما عندما نتحدث عن العادة كأساس للاستدلال ، إنما كان يتحدث عن ظواهر وعمليات جزئية محددة ، يقول هيوم :

« ... حيثما أدى تكرارنا لفعل معين أو عملية معينة إلى ميل فىنا نحو العودة من جديد إلى أداء الفعل نفسه أو العملية نفسها ، دون أن يكون ثمة دافع من تدليلات العقل أو عملياته ، قلنا دائما عن هذا الميل أنه أثر للعادة »^(٢).

إذن فالميل للتوقع كأثر للعادة يتعلق فقط بفعل أو عملية محددة ، عندما تتكرر يؤدى ذلك إلى حدوث ميل للتوقع عندنا بأن نفس النتيجة ستترتب على نفس السبب .

1- Hume, A Treatise of Human Nature, P. 166 .

2- Hume, An Enquiry Concerning Human Understanding, P 43.

لكن الميل للتوقع لا شأن له بالسببية من حيث هي مبدأ عام يجعل الإنسان يفكر تفكيراً سببياً ، فهذا المبدأ قبلى ، لأنه كما سبق أن قال هيوم «تحديد للفكر لى ينتقل من الأسباب إلى المسببات ، ومن المسببات إلى الأسباب»^(١) ، ولا يمكن اعتباره نتيجة للميل إلى التوقع ، لأنه هو نفسه الذى يجعل الميل إلى التوقع أمراً ممكناً ، فالميل إلى التوقع يفترض مقدماً مبدأ السببية العقلية ، وليس العكس .

وحتى لو فرضنا جدلاً أنه يعتبر السببية نتيجة للعادة ، فإن هذا لا يعنى أنه أنكرها ، بل يعنى - كما يقول جان فال - إنه يسلم ضمناً بسلامة السببية كمبدأ ، مادامت العادة والتوقع هى علل لفكرة العلة .^(٢)

هذا وقد يعترض البعض علينا فيقول : ألا يطعن حديث هيوم عن الاحتمال فى إيمانه بالضرورة ؟

والرد على هذا الاعتراض بسيط ، لأن الاحتمال الذى يتحدث عنه هيوم احتمال رياضى مبنى على أسباب موضوعية ، ولا يعنى العشوائية والمصادفة ، إذ أنه يقوم على حساب عقلى لعدد الفرص التى ترجح جانباً على آخر نتيجة زيادتها ، يقول هيوم :

« يوجد على وجه التأكيد الاحتمال الذى ينشأ من تفوق المصادفات فى أى جانب من الجوانب ، وطبقاً لذلك فإنه كلما زاد تفوق (بعض المصادفات) وتجاوز هذا التفوق المصادفات المواجهة ، فإن الاحتمال يزيد زيادة متناسبة ، وتزداد درجة الاعتقاد أو القبول فى هذا الجانب الذى اكتشفنا تفوقه . فإذا علمنا زهرة نرد بشكل واحد أو بعدد واحد من النقاط على أربعة جوانب ، وبشكل آخر أو عدد آخر من النقاط على الجانبين المتبقين ، فإن احتمال ظهور الأشكال الأولى سيكون أكبر من احتمال ظهور الأشكال

1- Hume, A treatise of Human Nature, P. 166 .

2- J. wahl, The Philosopher's way (O.U. Press, 1948) , P. 108 .

وانظر : محمود أمين العالم ، فلسفة المصادفة (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠) ص ٩٦ .

الأخيرة ، وإذا كان لهذه الزهرة ألف جانب معلم بنفس الطريقة ، وكان لها جانب واحد فقط مختلف عنها ، فإن الاحتمال سيكون أعلى بكثير وسيكون اعتقادنا في الحدث أكثر رسوخا وتأكيذا .^(١)

ولا شك أن الاحتمال الذى يشير إليه هيوم ، لا يستلزم العشوائية وانتفاء الضرورة والسببية ، وإنما هو تأكيد لهما ، لأنه احتمال مبنى على أسباب موضوعية ، تتمثل فى زيادة عدد الفرص فى جانب عنه فى جانب آخر . وهذا النوع من الاحتمال يدخل فى نطاق ما يسمى فى علم الرياضيات بحساب الاحتمالات ، وهو علم عقلانى بحث يسير وفق قواعد سببية .

ومن هنا فإن الاحتمال الذى يعنى العشوائية وعدم الانتظام ، أمر لا وجود له فى العقل عند هيوم ، أما الاحتمال الذى يتحدث عنه ، فهو الاحتمال المبنى على أسباب موضوعية وحسابات عقلية .

ويعتبر هيوم هذا الاحتمال درجة من درجات المعرفة ، وليس له أى وجود انطولوجى عقلانى ، وذلك أن درجات المعرفة ثلاث :

الأولى : درجة الاحتمال التخمينى .

الثانية : درجة الاحتمال البرهانى .

الثالثة : درجة اليقين .

ولا يصل الإنسان إلى المعرفة اليقينية مباشرة ، وإنما لابد أن يمر بمرحلة المعرفة القائمة على الاحتمال التخمينى ، ثم تلك القائمة على الاحتمال البرهانى ، وحتى يمكنه الانتقال من الأولى إلى الثانية يلزم أن يخطو خطوتين هما : احتمال المصادفات ، ثم احتمال الأسباب ، ويتخطى هاتين الخطوتين ، يتم الوصول إلى الاحتمال البرهانى ، وهو أعلى درجات الاحتمال حيث تليه مباشرة المعرفة اليقينية .^(٢)

1- Hume, An Enquiry Concerning Human Understanding, P. 56 .

2- Hume, A Treatise of Human Nature, Part III .

إذن فهيوم إذ يتحدث عن الاحتمال ، فإنما يعنى الاحتمال بوصفه درجة من درجات المعرفة الإنسانية يمكن اجتيازها . أما المصادفة فلا وجود لها إلا بوصفها درجة من درجات الاحتمال المعرفى لا الانطولوجى ، ومن ثم يمكن اجتيازها معرفيا .

وهكذا يتأكد إيمان هيوم بالسببية ، لأن إنكارها يستلزم إثبات المصادفة انطولوجيا ، وهو الأمر الذى رفضه هيوم رفضا قاطعا . وبهذا تثبت عقلانية هيوم ، حيث قد ثبت إيمانه بجوهر العقل الإنسانى وماهيته : السببية .

هذا ، وقد وضع هيوم ثمانى قواعد تتحكم فى علاقة الأسباب بالمسيبات ، وقال : « هنا يتمثل كل المنطق الذى أعتقد صواب استعماله فى تفكيرى العقلانى » .^(١)

وهى كالاتى :

- ١- يجب أن ترتبط العلة بالمعلول فى المكان والزمان .
- ٢- يجب أن تسبق العلة المعلول .
- ٣- يجب أن يوجد اتحاد ثابت بين العلة والمعلول . وغالبا ما تعين هذه الصفة العلاقة المذكورة .
- ٤- نفس العلة تنتج دائما نفس المعلول ، ونفس المعلول ينشأ دائما من نفس العلة . وهذا المبدأ نستمدّه من التجربة ، وهو مصدر معظم استنتاجاتنا الفلسفية .
- ٥- ويوجد مبدأ آخر مترتب على هذا المبدأ ، أعنى أنه : حيثما تنتج عدة موضوعات مختلفة نفس المعلول ، فإنه يجب أن يكون ذلك بواسطة صفة ما نجدها مشتركة بين هذه الموضوعات المختلفة ، هى التى تجعلها تنتج نفس المعلول .

1- Ibid., P. 175 .

٦- أن المبدأ الآتى مؤسس فى العقل نفسه : تنشأ الاختلافات الموجودة بين المعلولات الصادرة عن موضوعين متشابهين من وجود صفة خاصة يختلف فيها كل من الموضوعين المتشابهين . فإذا كانت العلل المتماثلة تنتج دائما معلولات متماثلة ، ثم وجدنا فى حالة ما توقع حدوث فشل ، فيلزم أن نستنتج أن عدم الانتظام هذا انما ينشأ عن وجود اختلافات معينة فى العلل .

٧- عندما يزيد موضوع أو ينقص بزيادة أو نقصان سببه ، فإنه يكون معلولا مركبا من اتحاد عدة معلولات مختلفة ناشئة من أجزاء عديدة مختلفة للسبب ، وغياب أو حضور جزء مناسب من المعلول . ويبرهن هذا الارتباط الثابت بشكل كاف على أن جزءا ما هو سبب للآخر .

٨- أما القاعدة الثامنة والأخيرة التى سأسجلها فهى : إن الموضوع الذى يوجد فى أى وقت وهو فى كامل تمامه دون أن يحدث أى معلول ، فإنه ليس السبب الوحيد لذلك المعلول ، وإنما يتطلب موازنة مبادئ أخرى .^(١)

* دور الخيال فى عملية الإدراك :

يقوم الخيال عند هيوم بنفس الدور تقريبا الذى يقوم به عند كنط فى عملية المعرفة ، وتبلغ درجة التلاقى بينهما حدا يدفع المرء للتساؤل عن مدى أصالة ما يسمى بالكشف الكنطى .

وفى البداية ينبغى أن نميز بين استخدامين مختلفين لمصطلح الخيال عند هيوم وكنط .

1- Ibid., PP. 173 - 4 .

فأحيانا يستخدم كنت مصطلح الخيال وأشباهه حسب الطريقة المألوفة والمعتادة لهذا المصطلح . ويبدو ذلك عندما يقارن بين تخيلنا لشيء ما ، وبين معرفتنا الواقعية لشيء آخر . فكتب يقول - مثلاً - فى ملاحظة له على (تفنيد المثالية) : « لا يستتبع كل تصور حدسى للأشياء الخارجية وجود تلك الأشياء ، لأنه قد يكون بالفعل مجرد نتيجة للخيال (كما فى الأحلام والجنون) . لكن حتى فى هذه الحالة فإنه لا يحصل إلا باسترجاع إدراكات خارجية . لقد كان كافياً إذن أن ندلل على أن التجربة الباطنة بعامة ليست ممكنة إلا بالتجربة الخارجية بعامة . إما إذا كانت هذه التجربة المزعومة أو تلك مجرد تخيل فذاك ما يجب اكتشافه من خلال تعييناتها الخاصة وتماسكها وفق معايير كل تجربة متحققة » .^(١)

ولكن يستخدم كنت مصطلح الخيال - فى أحيان أخرى أكثر تكراراً - بشكل يبدو مختلفاً تماماً عن أى استخدام معتاد أو مألوف ، لدرجة تجعل المرء يميل إلى القول بأنه حتماً يستخدم هذا المصطلح بطريقة تقنية خاصة .

افترض على سبيل المثال - فيما يقول سترافسون (2) P.F. Strawson

أنى لاحظت كلباً غريباً فى الحديقة ، ولاحظت تحركاته لفترة قصيرة ، وربما لاحظت أيضاً لبضع دقائق - فيما بعد - أنه ما يزال موجوداً هناك . فلا يمكن أن نقول حسب المعتاد أن هذا الوصف القصير وغير الممتع من تاريخي يشتمل على تقرير أى عمل للخيال . لكن وفقاً للاستخدام التقنى الواضح للمصطلح عند كنت فإن التحليل الكافى لمثل هذا الموقف سيتفق مع الوظيفة الرئيسية للملكة ما تدعى « الخيال » .

ويوجد تشابه بين كنت وهيوم فى كل من هذين الاستخدامين لمصطلح الخيال ، ذلك أنه يمكن القول بأن هيوم مثل كنت يستخدم هذا المصطلح

1- Kant, Critique of pure reason, ed . M. John, P. 172 .

2- P. F. Strawson, "Imagination and perception" in kant on pure Reason , edited by R.C.S. walker (Oxford Univer., press, 1982) , P . 83 .

أحيانا حسب الاستخدام المعتاد له (مثلا عندما يناقش الاختلافات بين الذاكرة والخيال ^(١)) ، ويستخدمه - فى أحيان أخرى - استخداما تقنيا خاصا على نحو واضح . ويتمثل هذا الاستخدام الأخير فى أنه -مثل كنط- يقول إن الخيال يدخل بشكل جوهرى فى تحليل الموقف العادى جدا الذى وصفته منذ لحظة .

وإذا رجعنا إلى ذلك الموقف فسنجد أن هيوم وكنط يقولان :

(أ) إن إدراكى للكلب الغريب الذى أراه بوصفه كلبا يرجع إلى الخيال إلى حد ما .

(ب) إن تسجيلى المستمر ، أو المتقطع ، لملاحظة نفس الموضوع ، نفس الكلب ، طوال الوقت ، يدين أيضا إلى ملكة الخيال .

فكل من الفيلسوفين يتصور الخيال بوصفه قوة موحدة أو رابطة تعمل على مستويين أو فى بعدين ، هما :

البعد الأول : يربط الخيال إدراكات الموضوعات المختلفة من نفس النوع .

البعد الثانى : يربط الخيال الإدراكات المختلفة لنفس موضوع النوع المعطى .

فالخيال عندهما هو وسيلة إدراكنا الحسى لكل من هوية النوع وهوية الفرد ، لكل من هوية التصور وهوية الموضوع ^(٢) .

ولمزيد من التفاصيل حول التشابه بين هيوم وكنط فى تفسير عمل الخيال أو الخيلة ، فيمكن القول - إذا بدأنا بكنط - إن نظرية الخيال هى أحد أهم جوانب الفلسفة الكنطية ، حيث يتم من خلال الخيال توحيد الإحساسات المحض بالفهم المحض بوصفهما متغايران متعارضان بشكل مطلق .

1- Hume, A Treatise of Human Nature, PP. 8 - 9 .

2- Strawson, " Imagination and perception, " P. 83 .

فقد رأى كنط أن تحصيل المعرفة يتطلب وجود طرفين :

أولهما: وجود المفهوم الذى تحصل بواسطته معرفة الشيء بشكل عام (المقولات) .

وثانيهما: وجود الانطباعات الحسية التى يعطى من خلالها الشيء .. وإذا لم يحصل المفهوم على الانطباعات الحسية المطابقة له ، فسيكون عندها فكرة من حيث الشكل فقط ، ولكن دون أى موضوع ما ، وبالتالى سيستحيل عندها معرفة أى شيء ما من خلاله .

ولكن ما هو ذلك الوسيط الذى يربط بين طرفي المعرفة ؟

يبدو واضحا « أنه يتحتم وجود طرف ثالث يكون من جهة مماثلا للمقولات ، ومن جهة أخرى مماثلا للظواهر ، ويجعل من الممكن تطبيق الأولى على الثانية - كما يتعين على هذا الوسيط أن يكون ذهنيا من جهة وحسيا من جهة أخرى . وهذا ما يسمى بالرسم الترنسندنتالى » .^(١)

وتتمثل أهم وظيفة للخيال عند كنط فى التأليف المبدئى بين الحدوس المشتتة وضمها فى حدس مركب متوحد ، ثم تقديمه بعد ذلك إلى ملكة الفهم بمقولاتها المتنوعة ، يقول د/ مراد وهبه فى كتابه المتقن « المذهب عند كنط » : « المهمة الأساسية للرسم التخطيطى أن يقيم قنطرة بين التلقائية والتقبل ، لأنه ينبغى لقيام المعرفة من توفر ضربين من الامتثال : هما الحدس الذى بواسطته نعطى الموضوع ، والمعنى المجرد الذى به يعقل . ومن ثم كى نقيم معرفة انطلاقا من هاتين «اللحظتين المعرفيتين» ، يقتضى الأمر فعلا آخر ، ألا وهو صياغة هذا الشتات المتباين المعطى عن طريق الحدس ، ليوائم الوحدة التركيبية للوعى ، تلك الوحدة التى يعبر عنها المعنى المجرد . وهذا الفعل الآخر هو المخيلة » .^(٢)

1- Kant , Critique of Pure Reason, P. 117 .

٢- د/ مراد وهبه ، المذهب عند كنط ، ترجمه من الفرنسية إلى العربية د/ نظمي لوقا (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٩م) ص ٤٥ .

ويقوم الخيال (أو المخيلة) بدوره عبر مراحل ثلاث :

أولها : تأليف الضم في الحدس ، وهو عبارة عن تأليف سريع للانطباعات الحسية المشتتة الآتية من الخارج ، وجعلها تظهر في «صورة كلية مبدئية» ذات هوية ما

ثانيها : التأليف الاسترجاعي للخيال ، وهو الذى يقوم بدور مكمل لتأليف الضم في الحدس ، حيث أن هذا الأخير إذا كان يقتصر على التأليف بين الانطباعات الحسية الحاضرة ، فإن التأليف الاسترجاعي يقوم باستدعاء الانطباعات الحسية الماضية التى تتعلق بموضوع الإدراك ، وذلك بواسطة مبادئ التداعى مثل التجاور فى المكان ، والتالى فى الزمان ، والتشابه .. الخ . ويقوم التأليف الاسترجاعي بهذا الاستدعاء للانطباعات الحسية الماضية من أجل إدراك أوجه الشبه القائمة بينها وبين الإدراكات الحسية الحاضرة ، وذلك لأن الإدراكات الحسية الحاضرة إدراكات وقتية عارضة تمضى مع اللحظة التى تتم فيها . ولو لم تكن للمخيلة القدرة على استرجاع الصورة الماضية التى تشترك مع الصور الحاضرة فى بعض أوجه الشبه ، لما استطاع الإنسان أن يقف عندها طويلا ، ولما استطاع كذلك أن يؤلف بين عناصرها .^(١)

وثالثها : التأليف التصورى أو تأليف الإدراج تحت تصورها (أو التأليف عن طريق التعرف على التصور - حسب د/ يحيى هويدى) .^(٢)

وهذا هو التأليف الترنسندنتالى ، فى حين يدخل النوعان السابقان من التأليف الخيالى تحت التأليف التجريبي ؛ لأن التركيب فيهما يتم بين

١- د/ يحيى هويدى ، دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

٢- المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

حدوس تجريبية ، أما النوع الأخير فيقوم بالتركيب بين حدوس ذهنية أولية ، حيث يتم فيه إنتاج الرسوم الترنسندنتالية (الصور التخطيطية = الاسكيمات) ، التى تؤلف المتنوع الحسى بواسطة تصور يتناسب مع التصور المحض ، وهذه الرسوم الترنسندنتالية بمثابة رموز يمكن أن تترتب تحتها الحدوس الحسية فمثلا نحن لا نستطيع التفكير فى دائرة دون أن نرسمها فى ذهننا ، أو فى الزمان دون أن نرسم مستقيما خياليا ، أو فى الكم دون أن نتصوره عددا .. الخ .

فالخيال يفرض على الحدس درجة أولى من التنظيم ، وتركيبا مصورا حقيقيا ، يهيئ التركيب العقلى الذى يتحقق بفضل المقولات .^(١)

ويتم عمل الخيال هذا داخل الذهن ، ولهذا يجب أن يكون شكله هو شكل الحس الباطن ، أعنى الزمان . ذلك أن الزمان يبدو لنا هو الآخر على أنه وسيط بين الحدس الحسى والمقولات . إنه مجانس للحدس ، من حيث أنه متضمن فى كل واحد من امتثالاتنا التجريبية ، ومجانس للمقولة ، من حيث أنه كلى ويمثل قاعدة قبلية . وإذن فى حدس الزمان يرسم الخيال قبليا إطارات يمكن أن تدخل فيها الظواهر وتدل على المقولة التى يجب أن ترتب تحتها وهذه الإطارات هى ما يسميه كنط باسم « الاسكيمات المتعالية »^(٢) أو « الرسوم الخيالية الترنسندنتالية »^(٣) أو « الصور التخطيطية »^(٤) .

ويجب أن نفرق بين الاسكيم وبين الصورة الحسية . وعندما أضع خمس نقاط الواحدة بجوار الأخرى .. فإن ذلك هو الصورة الحسية للعدد خمسة . ومن ناحية أخرى إذا فكرت فقط فى العدد بشكل عام ، وقد يكون خمسة أو مئة ، فإن هذا التفكير هو تمثيل فقط لمنهج امتثال كمية (ألف مثلا)

١- د/ عبدالرحمن بدوى ، امانويل كنت ص ٢٢٣ .

٢- حسب ترجمة د/ عبدالرحمن بدوى ، المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

٣- حسب ترجمة د/ محمود زيدان ، كنط ، وفلسفته النظرية ، ص ١٦١ .

٤- حسب ترجمة د/ يحيى هويدى ، دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، ص ١٤٠ .

فى صورة حسية ما وفقا لتصور معين .^(١) كذلك فإن صورة المثلث هى دائما معينة : متساوى الزاوى ، متساوى الساقين .. الخ بينما اسكيم المثلث يحتوى على السواء على كل هذه الأشكال ، ولا يمكن أن يوجد إلا فى الخيال المحض^(٢) .

ويوجد من الرسوم الخيالية أو الاسكيمات بقدر ما يوجد من المقولات ، ومن هنا فإن كمنط يعرض الاسكيمات وفقا لنسق المقولات وحسب ارتباطها بها :

فالاسكيم المحض لكم بوصفه تصورا من تصورات الفهم ، هو العدد ، الذى هو امثال يضم إضافة الواحد إلى الواحد إضافة متتالية .^(٣)

والاسكيم المحض لمقولات كيف هو الواقعية فى الزمان .

وتوازي الاسكيمات الثلاثة الآتية مقولات الإضافة : فاسكيم مقولة الجوهر هو دوام الواقعى فى الزمان ، واسكيم مقولة العلية هو التوالى المنتظم للظواهر فى الزمان ، أما مقولة التبادل فاسكيمها هو المعية لتعينات جوهر ما مع تعيينات سائر الجواهر وفقا لقاعدة عامة .^(٤)

أما الاسكيمات التى تقابل مقولات الجهة الثلاثة فهى كالاتى : فاسكيم مقولة الإمكان هى امثال الوجود لموضوع ما فى زمن غير معين ، واسكيم مقولة الوجود هو الوجود فى زمن معين ، واسكيم مقولة الضرورة وهو وجود الموضوع فى كل زمن .^(٥)

1- H.A. Prichard, Kant's Theory of knowledge (Oxford : At the Clarendon press , 1909) , P. 249 .

See also : Kant, Critique of pure Reason, P. 109 .

2- Kant, Critique of pure Reason, P. 109 .

وأيضا : د/ بدوى ، أمانويل كنت ، ص ٢٢٥ .

3- H.A. Prichard, Kant's Theory of Knowledge, P. 255

See also : Kant, Critique of pure Reason , P. 110 .

4- Kant, Critique of pure Reason, P. 120 - 1 .

5- Prichard, Kant's Theory of knowledge, P. 259 .

وبناء على هذا ، فإن الزمان هو الشكل العام للاسكيمات التى يقدمها الخيال إلى الذهن لوضع الظواهر فى إطارات وإدراجها تحت التصورات . ومن ثم يعتبر الخيال المحض بمثابة ملكة أساسية للنفس الإنسانية ، هى مبدأ القبلى لكل معرفة . بواسطة هذه الملكة يربط الإنسان بين متنوع الحدس وبين الوحدة الضرورية للوعى المحض . ولا بد لكلا الطرفين - أى الحساسية والذهن - من التوافق فيما بينهما بفضل هذه الوظيفة الترנסدنتالية للخيال^(١) ومع هذا فإن الاسكيمية « فن دفين فى أعماق النفس الإنسانية يظل من الصعب دائما انتزاع سر أدائه الحقيقى من الطبيعة بغية عرضه على نحو واضح ظاهر للعيان » .^(٢)

ولعل هذه العبارة الأخيرة لکنط فى تشابهها مع قول هيوم عن الخيال : « إنه نوع من القدرة السحرية فى النفس ، ومع أنه غالبا ما يكون تاما فى أعظم العبقریات ، وهو الذى ندعوه على وجه الدقة بالعبقرية ، فإنه على أية حال متعذر تفسيره بواسطة أعظم جهود الفهم الإنسانى » .^(٣) - أقول لعل تشابه عبارة کنط تلك مع قول هيوم هذا ، لحظة مناسبة للانتقال من کنط إلى هيوم ، حتى نتبين أن الفضل الحقيقى فى اكتشاف دور الخيال فى عملية الإدراك يرجع أساسا إلى هيوم .

ويكفى أن نشير إلى أن إدراك وجود الأشياء الخارجية على نحو متصل ومستقل لا يرجع عند هيوم الى حواس ولا إلى العقل ، بل يرجع إلى الخيال فإدراك الشئ الخارجى واستمراره فى الوجود وتميزه عنا يتم أساسا عن طريق قدرة الخيال ، فالمرء إذا ما أتته سلسلة من الانطباعات المتنوعة والمختلفة فى فترات متتالية من الزمان ، بحيث تتشابه فيما بينها ، فإن الخيال يميل إلى

١- د/ عبدالرحمن بدوى ، امانويل كنت ، ص ٢٢٦ .

2- Kant, Critique of pure Reason, P. 119 .

See also : Prichard, kant's Theory of knowlege, P. 250 .

3- Hume, A Treatise of Human Nature, P. 24 .

التأليف بين تلك الانطباعات ، حتى تغدو انطباعا يشير إلى شيء وحيد ذى هوية . وعلى سبيل المثال ، فإن المرء إذا وجه نظره إلى «س» أو «ص» من الأشياء عدة مرات يفصل بينها فواصل زمنية قد تطول أو تقصر ، فانه سيأتيه انطباع حسى منفصل عن باقى الانطباعات فى كل مرة ينظر فيها إلى «س» أو «ص» ، ومع ذلك فإن المرء يميل بخياله إلى الربط بين تلك الانطباعات والتأليف بينها ، بحيث يفترض أنها آتية من شيء واحد وحيد . ولو كان المرء منطقيا تماما ، لقال إن الانطباع الذى جاءه من «س» فى المرة الأولى مختلف عن الانطباع الذى جاءه منها فى ثانى مرة ، وأيضا مختلف عن الانطباع الذى جاءه فى ثالث مرة . كما أن الانطباعات الحسية الآتية من الحواس لا تدل إلا على أن هناك عدة انطباعات منفصلة فيما بينها ومختلفة ولا تشير إلى شيء واحد ، بل تشير إلى عدة أشياء بقدر ما لدى المرء من انطباعات والمسئول مسئولية مباشرة عن الربط بين الانطباعات الماضية والحاضرة هو «الخيال» .^(١)

ولكى نؤكد هذا - فيما يقول هيوم نفسه - أى أن إدراك الوجود المتصل والتميز ينشأ عن «الخيال» نلاحظ أن ثمة أنواعا ثلاثة مختلفة من الانطباعات التى تنقلها إلينا الحواس ، وأولها هو الانطباعات التى تمثل الأشياء المادية شكلا وحجما وحركة وصلابة ، والثانى هو الانطباعات التى تمثل الألوان والطعوم والروائح والأصوات والحرارة والبرودة ، والثالث هو الآلام واللذائذ التى تنشأ عن اتصال الأشياء بأجسادنا كما تحز لحم الإنسان بقطعة من الصلب مثلا أو ما شابه ذلك . أما النوع الأول من الانطباعات فهو عند الفلاسفة وعند عامة الناس على السواء ، يمثل أشياء موجودة وجودا متميزا ومتصلا ، وأما النوع الثانى فعامة الناس وحدهم هم الذين يعدونه مماثلا تمام المماثلة للنوع الأول ، ثم يعود الفلاسفة فيتفقون مع عامة الناس إزاء النوع الثالث إذ يجعلونه مجرد إدراكات ، وبالتالى فهو يمثل

1 - Hume, A Treatise of Human Nature (Everyman's edition) P. 193 .

كائنات متقطعة الوجود ومعتمدة في وجودها على وجود من يدركها . غير أنه من الواضح أنه مهما يكن من أمر المذهب الفلسفى الذى نذهب إليه ، فإن الألوان والأصوات والحرارة والبرودة كما تبدو لحواسنا ، لا تختلف فى طبيعة وجودها عما تكون عليه حركة الأجسام وصلابتها (كما تبدو لحواسنا) . وأن وجه الاختلاف الذى نفرق بينهما على أساسه من هذه الناحية لا ينشأ عن إدراكنا لهذا وذلك والطائفة الأولى من الصفات (الألوان والأصوات .. الخ) إنما تمثل عند الناس أشياء موجودة وجودا متميزا متصلا ، وأنهم ليأخذون بهذه العقيدة أخذا يبلغ من قوته ، أن الفلاسفة المحدثين إذا ما تقدموا إليهم بالرأى المضاد فى هذا الصدد ، كادوا يفندون رأى الفلاسفة هذا تفنيدا يعتمدون فيه على شعورهم وخبرتهم ، حاسبين أن حواسهم نفسها تنقض مثل هذه الفلسفة . غير أنه كذلك من الواضح أن الألوان والأصوات وما إليها ، هى فى أسسها شبيهة بالألم ينشأ عن حز أجسادنا بجسم صلب ، وباللذة تنشأ عن الدفء ينبعث من النار ، وأن الفرق بين هذه وتلك لا يبنى على إدراك الحس ولا على العقل ، ولكنه وليد الخيال ، لأننا ما دمنا نعرف لكلا النوعين معا بأنهما ليسا سوى إدراكات حسية تنشأ عن الطريقة الخاصة التى تتشكل بها أجزاء الجسم وتحرك ، فمن أين يجيىء ما بينهما من اختلاف ؟ إننا نستطيع إذن - أن نستنتج على وجه الجملة أنه فى حدود ما تحكم به الحواس فلا فرق بين الإدراكات الحسية فى شتى أنواعها من حيث طريقة وجودها ^(١) . ومن ثم فإن الخيال هو منشأ الفرق بينها .

ولقد استخدم هيوم الخيال أيضا فى حل مشكلة الوحدة والتعدد فى عملية الإدراك ولاشك أن هذه المشكلة وثيقة الارتباط بالمشكلة السابقة ، فالمرء عندما يدرك «س» من الأشياء ، فإنه يعتقد أنها شىء واحد ، رغم أن الانطباعات الآتية من «س» هذه متعددة ، ويحل هيوم هذا الإشكال بواسطة

1- Hume, A Treatise of Human Nature, (ed. Selby-Bigge), PP. 192 - 193 .

عن د/ زكى نجيب ، ديفد هيوم ص ١٧٧ - ١٧٩ .

مفهوم « الزمان » ودوره البارز في عمل الخيال - ويمكن هنا أن نلاحظ الإرهاص الهيومى لفكرة الزمان عند كنت ودورها في عمل الخيال - فالزمان بمعناه الدقيق يستلزم التتالى أو التتابع . فلو كان عند المرء شىء ثابت ثم أضاف إليه مفهوم الزمان ، فإن خياله سيصور له أن هذا الشىء الثابت إنما يشارك الأشياء الأخرى في تغيرها ، أى فى تتابع حالاتها الذى يتضمنه مفهوم الزمن . ومن هنا فإن المرء إذا ما ركز انتباهه فى شىء ثابت لا يتغير فى ذاته تركيزا يدوم فترة من الزمن ، فإنه رغم ثبات الشىء الذى جعله موضوع الانتباه ، سيقارن الحالة فى لحظة من لحظات تلك الفترة الزمنية ، بالحالة فى لحظة غيرها من لحظات تلك الفترة عينها ، ومن ثم ينشأ له فى خياله فكرة الوحدة التى لم تتغير على تعدد اللحظات ، أو ربما نظر فى لحظة ثالثة إلى تلك اللحظتين المذكورتين واضعاً فى اعتباره ثبات الشىء ، فتنشأ له فكرة التعدد رغم وحدانية الشىء .. وهنا يصل هيوم إلى مفهوم « الهوية » الذى هو عبارة عن ثبات الشىء على حالة واحدة خلال تغير مفروض فى لحظات الزمان. (١)

وهكذا نرى أن هيوم فى حديثه عن الخيال لم يستخدمه حسب الاستخدام التقليدى ، وإنما استخدمه استخدماً تقنياً خاصاً ، حيث قال بأن له دوراً فى عملية الإدراك للأجسام الخارجية ، وللحوية الشخصية . فالاعتقاد بوجود أشياء باقية ومتميزة عنا لا يرجع عند هيوم إلى الحواس ، لأنها لا تقدم سوى موضوعات متلاشية بلا انقطاع ، تنحل إلى محض انطباعات ، وهذه الانطباعات على نحو ما تعطى لنا مباشرة ، ليست بخارجية عنا أكثر من اللذة والألم ، ومن المحقق أن العقل ليس هو السبب فى ذلك ، لأن الاعتقاد سابق على كل استدلال ، وإنما الخيال وحده هو الذى يتدخل ولكن من المحقق هنا أيضاً أنه لا يمكن له أن يشتغل إلا بشرط : وهو أن تتكرر فى آناء متقطعة بعض الائتلافات بين الانطباعات من مجاميع أو

1- Hume, A Treatise of Human Nature (Everyman's edition), P. 195

ود . زكى نجيب ، ديفد هيوم ، ص ٦٠

سلسلات . غير أن خاصيات الخيال هي وحدها التي تستطيع أن تفسر كيف نعتقد في كل آن من تلك الآناء بأن تلك الائتلافات هي الأجسام عينها وقد واصلت وجودها في الفواصل ما بين ظهورها . إن جسما يكون ذاته أو هو هو ، هو جسم يبقى بلا تغيير من آن إلى آخر ، ويتم إدراكه بصورة منقطعة في تلك الآناء المختلفة ، وفي هذه الحالة يكون الانتقال من آن الى الآن الآخر بالغ اليسر حتى ليصعب الإحساس به . لنفرض الآن ائتلافا من الانطباعات يتكرر حدوثه على تقطع ، فالانتقال من الموضوع إلى الموضوع الآخر ، سيكون في هذه الحال ميسورا بقدر يسده تقريبا في حالة موضوع متماثل ، والانشيال الميسور للفكر سيجعلنا نعتقد بتمائل هذه الموضوعات . ولكن بما أن تناوبها المتقطع يعارض هذا الاعتقاد^(١) ، فإننا نميل بخیالنا للاعتقاد بوجود متصل . وإذا كان الخيال يقوم بهذا الدور الكبير في عملية الإدراك عند هيوم ، فلا بد أن جان لاكروا في كتابه « كانط والكانطية » قد جانب الصواب عندما نسب لكانط اكتشاف الوظيفة الخاصة للخيال المتمثلة في التأليف بين المتنوع الحسى المتقطع ، يقول لأكروا : « الوظيفة الخاصة للمخيلة ، هي إدخال رابطة ما في المتنوع لا تكون له بطريق الحس . وقد شدد كانط ذاته على قيمة اكتشافه . فقبله كان المعتقد أن الأحاسيس لم تكن تزودنا فقط بالانطباعات ، وإنما تربط بينها أيضا وتكون صور أشياء . وفي هذه الحالة أن هذه النتيجة تتضمن ، عدا عن تلقى الانطباعات شيئا أكثر ، وهو معرفة تركيبتها . وبدون شك أن المكان والزمان ، اللذين ينتميان إلى الحساسة ، هما شكلان يعطيان أول اتحاد . ولكن الوظيفة الحقيقية للتركيبية هي المخيلة » .^(٢) ولا شك أن جان لاكروا لو كان اطلع على هيوم لما أصدر هذا الحكم الذي أكد فيه على أن الاعتقاد قبل كمنط كان هو أن الأحاسيس لم تكن تزودنا فقط بالانطباعات وإنما تربط بينها أيضا وتكون صور الأشياء ، فقد رأينا كيف أن هيوم رفض إرجاع إدراك هوية الأشياء

١- برهيه ، تاريخ الفلسفة : القرن الثامن عشر ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

٢- جان لاكروا ، كانط والكانطية ، ترجمة نسيب عبيد (بيروت : المنشورات العربية سلسلة ماذا أعرف ٤٢ ، ١٩٧٧) ، ص ٢٧ .

واستمرارها فى الوجود وتميزها عنا - إلى الحواس واعتبر أن منشأ الربط بين الانطباعات الحسية هو الخيال .

إذن فالفضل أساسى فى اكتشاف دور الخيال فى عملية المعرفة يرجع أساسا الى هيوم قبل أن يرجع إلى كنط ، لكن ليس معنى هذا أننا نريد اختزال كنط كله فى هيوم ، أو أننا ننكر الدور الهام الذى قام به كنط ، فلاشك أن له إضافاته الطريفة والمبتكرة فى هذا الصدد ، والتي تتمثل فى دفعه للكشف الهيومى الى أقصى مدى له ، وتفصيله الدقيق لما أجمله هيوم ، بل واكتشافه لبعض الجوانب والدقائق الخفية التى كانت مستغلقة على هيوم . ولا أدل على ذلك من تحليلاته العميقة للرسوم الخيالية أو الاسكيمات ، تلك التى لم يتطرق إليها هيوم البتة ، والتي تدل على أصالة التفكير الكنطى ، وقدرته الفذة على تطوير وتعميق الكشف الهيومى وتوسيع مداه إلى آفاق بالغة الثراء والخصوبة .

* يقينية المعرفة العقلية وظنية المعرفة التجريبية عند هيوم :

ومن المعايير الأساسية التى تميز بين التجريبيين والعقلانيين ، موقف كل منهما من المعرفة اليقينية ، حيث اعتبر التجريبيون المعرفة التجريبية معرفة يقينية ، أما العقلانيون فقد نظروا إليها بوصفها معرفة ظنية احتمالية ، واعتبروا الرياضيات الأنموذج المثالى للمعرفة اليقينية .

وإذا رجعنا إلى حديث هيوم عن أنواع المعرفة نجد أنه يذكر نوعين أحدهما : يقينى وثانيهما : احتمالى . ويشتمل النوع اليقينى على قضايا منطوق الحكم فيها البرهان العقلى ، ومثال هذا النوع الرياضيات . أما النوع الاحتمالى فيكون أساس الحكم فى قضايا التجربة وحدها ، ونحكم بيقينية النوع الأول لأن النتائج تترتب فيه على المقدمات ترتيبا ضروريا يستحيل معه أن نتصور عقليا نقيض تلك النتائج . أما النوع الثانى فنحكم باحتماليته لأنه لا يوجد لزوم منطوق بين مقدماته ونتائجها ، لأن النتائج تتحدد بناء على التجربة ، التى تخبرنا بأن هذه المقدمات تترتب عليها تلك النتائج . ولكن العقل يجيز

منطقيا أن تغير التجربة في المستقبل مجراها فلا توجد ضرورة عقلية تمنع من ذلك ، إذ لا استحالة عند العقل ولا تناقض في أن تأتي النتائج في المستقبل مناقضة للنتائج التي ظهرت في الماضي .^(١)

ولاشك أن فيلسوفا ينظر إلى المعرفة التي تتكون نتيجة عمليات عقلية صرفة ، وليس لها مستند تجريبي باعتبارها معرفة يقينية ، ثم ينظر إلى المعرفة الحسية التجريبية باعتبارها معرفة ظنية احتمالية تفتقد البرهان العقلي القائم على الضرورة المنطقية - لاشك أنه فيلسوف عقلاني . فكيف أعتبر بأية حال من الأحوال من يشك في التجربة على هذا النحو - فيلسوفا تجريبيا ، لاسيما وقد اعتدنا في التقليد العقلاني مثل هذا الرأي تجاه التجربة والحواس ، وليس أفلاطون ولا ديكارت منا يبعد ؟

ثم ألا نلاحظ أن المقياس الذي استخدمه هيوم في التفرقة بين الاستدلال البرهاني والاستدلال الاستقرائي - إنما هو مقياس عقلاني بحت ، فالأول قضاياء يقينية لأن العقل لا يتصور نقيضها ، والثاني قضاياء احتمالية لأن العقل يتصور نقيضها .

وهذا المقياس الذي استخدمه هيوم - أعني مقياس إمكانية ظهور الشيء ونقيضه عقليا - من أكثر المقاييس التي يستخدمها هيوم لرفض الآراء المعارضة التي تزعم لذاتها الضرورة والحتمية . أقول إن هذا المقياس مقياس عقلي قبلي ، لأن المرء إذا ما أمعن النظر في ماهيته وطرق استخدام هيوم له ، سيجد أنه يفيد ضمان التساوي في إمكانية حدوث حالات كثيرة لنفس الظاهرة الواحدة عقليا دون الاستناد إلى التجربة ، إذ أن هذه الأخيرة لا تقدم إلا احتمالا واحدا فقط عند إجراء عملية التحقق . ومن ثم فإن مناط الحكم بتساوي كل الاحتمالات الممكنة في حادثة ما ، هو مناط عقلاني قبلي .

ويمكن أن نذكر في هذا الصدد مثالين اثنين :

1- Hume, An Enquiry Concerning Human Understanding, PP. 25 - 6 .

أولهما : الاحتمالات العقلية لتحديد ماهية الله والعالم التي ذكرها هيوم على لسان فيلون في كتابه « محاورات في الدين الطبيعي » من أنه يمكن أن يكون شبيها في تكوينه بالشجرة ، ويمكن أن يكون شبيها بالكائن الحي في تكامل وظائفه وانسجام أعضائه واطراد نموه ، ويجوز أن يكون النظام الموجود في العالم نابعا من طبيعة المادة ذاتها ، لا من وجود متعال .. وبالتالي لا يمكن تحديد ماهية معينة لله . وكل هذه الإمكانيات العقلية يذكرها هيوم على لسان فيلون في مقابل أمر وحيد يؤمن به كلنثيز ، وهو أن العالم على مثال الآلة التي اخترعها الإنسان ، وبالتالي فإن الله شبيه بالإنسان حسب الاستدلال التمثيلي الذي يقول إنه إذا ما تساوت المعلولات تساوت العلل .

ثانيهما : حادثة تصادم كرتي البلياردو ، فإن اصطدام الكرة الأولى المتحركة بالكرة الثانية الثابتة ، من الممكن عقليا أن يترتب عليه حالات كثيرة : فمن الجائز أن تصطدم الكرة الأولى بالثانية فتتحرك الثانية وتقف الأولى ، ومن الجائز أن تقفز الأولى من فوق الثانية ، أو تحيد إلى اليسار أو إلى اليمين ، ومن الجائز أن تقف الكرتان معا .^(١) فهذه الحالات كلها ممكنة عند العقل . ولا يستلزم هذا إنكار مبدأ السببية ، فإنه ما يزال موجودا ، من حيث أن السبب لا بد أن يعقبه نتيجة ما ، لكن تحديد نوعية هذه النتيجة ليس من اختصاص العقل ، وإنما من اختصاص التجربة ، لأن العقل يقدم احتمالات عديدة لما قد تكون عليه النتيجة ، لكن ليس من بين هذه الاحتمالات عدم حدوث نتيجة ما ، فلا بد أن يسفر السبب عقليا عن مسبب ما ، أما تحديد هذا المسبب بالضبط فيكون عن طريق التجربة .

1- Ibid., PP. 29 - 30 .

* عدم تحويل هيوم على الحس في موقفه من العالم الخارجي :

ومن المواقف الفلسفية التي اتخذها هيوم والتي تؤكد عقلانيته وعدم تعويله على الإحساس والتجربة مثلما يعول عليهما الحسيون والتجريبيون : موقفه من العالم الخارجي ، حيث يعتبر أن الحجج الفلسفية هي الأساس الذي ينبغي الاعتماد عليه بخصوص هذه المشكلة ، وثبتت تلك الحجج أن كل ما يبدو للعقل ليس إلا إدراكا ، وهذا الإدراك بدوره غير متصل وغير متميز عن العقل ، أما التجربة العادية التي لا تقوم على التفكير البرهاني ، فهي ليست مما يعتد به لأن أصحابها - وهم العامة - يخلطون بين الإدراكات والأشياء ويعتقدون أن لهذه الأشياء وجودا متصلا متميزا ، يقول هيوم :

« في الواقع أن الفلاسفة مهما تصوروا أنهم قادرون على استنتاج حجج لتدعيم الاعتقاد في وجود أشياء مستقلة من العقل ، فإن من الواضح أن هذه الحجج لن تكون معروفة إلا لعدد بالغ القلة ولا يعول الأطفال والفلاحون وغالبية البشر على تلك الحجج عندما يعزون أشياء إلى بعض الانطباعات وينكرون على أشياء أخرى انتسابها إلى بعض الانطباعات الأخرى ، وطبقا لهذا فإننا نجد أن كل النتائج التي تكونها العامة في هذا المجال معارضة تماما لتلك النتائج التي أثبتتها الفلسفة . فالفلسفة تخبرنا أن كل شيء يظهر للعقل ما هو إلا إدراك غير متصل وغير مستقل عن العقل ، في حين تخلط العامة بين الإدراكات والأشياء وينسبون إلى الأشياء التي يشعرون بها أو يرونها وجودا متميزا ومتصلا» .⁽¹⁾ وعندما يتحدث هيوم عن السبب الذي يجعلنا نعتقد باتصال وجود الأشياء الخارجية واستقلالها عنا ، فإنه يقول إنه ليس الحواس ، لأن المرء عندما يرى «س» من الأشياء يحكم بوجوده ، ثم عندما يغييب عنه هذا الشيء فإنه لا يكون على صلة بحواسه ، ومع ذلك يحكم بوجوده أيضا . ولا شك أن الحكم الثاني غير نابع من الحواس لأن

1- Hume, A Treatise of Human Nature, P. 193 .

المرء حينما يصدر هذا الحكم بوجود «س» ، لا تكون «س» على صلة بحواسه . إذن فالحكم باستمرار وجود الشيء فى الوجود غير مستمد من الحواس ، والأمر كذلك إذا ما صدر الحكم باستقلال الشيء عن المدرك ، لأن الحواس لا تقدم إلا الانطباع ، أما أصل الانطباع فلا تقدمه ، وبالتالي لا يمكن الحكم باستقلال الشيء عن المدرك ، لأن هذا الحكم يقتضى أن تقدم الحواس الانطباع وأصله معا . وفى رأى هيوم أنها لا تفعل هذا .

أيشك أحد بعد ذلك أن هيوم ليس فليسوفاً حسيّاً تجريبياً ؟ .. فهذا هو ذا ينكر أن تكون الحواس أو التجربة أساساً لحكمنا بوجود العالم الخارجى وجوداً متصلاً متميزاً ، ذلك الحكم الذى يعتبر عند الحسيين أو التجريبيين من بديهيات الإحساس والتجربة .

ثم يبلغ هيوم درجة متقدمة من درجات العقلانية عندما يقول :

« دعونا نركز انتباهنا خارج ذواتنا بأقصى درجة ممكنة ، دعونا نتبع خيالاتنا حتى السماوات أو حتى أقصى حدود العالم ، فإننا لن نتقدم بالفعل خطوة واحدة خارج ذواتنا ولن نستطيع تصور أى نوع من الوجود إلا تلك الإدراكات التى ظهرت فى هذا المجال المحدود » .^(١) إن استخدام هيوم لتعبير Never really وأسلوب النفى والاستثناء Nor ... but فى قوله السابق :

"... we never really advance a step beyond ourselves, nor can conceive any kind of existence, but those reception ..."

أقول إن استخدامهما لهذين الأسلوبين فى التعبير اللذين يعتبرهما البلاغيون من أساليب القصر التى تفيد التأكيد - يدعم تأويلنا لنص هيوم .

1- Ibid., P. 67 - 8 .

* أصل الانطباعات عند هيوم :

لا خلاف فى أن حديث هيوم عن الانطباعات وأنها أصل أفكارنا ، هو أحد الأسباب التى جعلت المؤرخين يذهبون إلى الحكم بتجريبية هيوم .

لكن نسى هؤلاء أن هيوم نفسه قد فرق بين نوعين من الانطباعات : انطباعات الإحساس ، وانطباعات التفكير ، وقال بأن : «النوع الأول ينشأ فى الذات أصلاً من أسباب غير معلومة» .^(١) وكأن التجربة ليست أصلاً عند هيوم لهذه الانطباعات .

ويؤكد هذا قوله فى نص آخر : « فيما يتعلق بالسبب النهائى لتلك الانطباعات التى تنشأ عن الحواس ، ففى رأى أنه لا يمكن تفسيره البتة بواسطة العقل الإنسانى ، وسيظل من المستحيل دائماً تقرير شىء مؤكداً فيما إذا كانت تنشأ هذه الانطباعات مباشرة عن الموضوع ، أو أن قوة العقل الخلاقة هى التى تنتجها ، أو أنها تستقى من مبدع وجودنا» .^(٢)

إذن فهيوم لم يقل بأن أصل الانطباعات هو التجربة . وحتى لو كان قال بهذا كما تشير بعض النصوص ، فهذا لا يتعارض مع عقلانيته المعرفية بالمعنى الكنطى الذى يقول : « إن التجربة تقدم فقط الحدوس الحسية التى لا تستطيع أن تكون معرفة يقينية إلا بعد تدخل العقل بفاعلياته ومبادئه القبلىة الكلية» . أقول إذن أنه على فرض أن هيوم قال بأن أصل الانطباعات هو التجربة ، فإن هذا لا ينفى عقلانيته بالمعنى الكنطى ، لأن كنط نفسه قد قال : «إن كل معرفتنا تبدأ مع التجربة»^(٣) ، ومع ذلك يعده المؤرخون فى العقلانيين لتأكيدهم على دور العقل وفاعلياته فى المعرفة ، وهذا ما قد أكدته هيوم من قبل عندما نص على أولية وكلية مبادئ التداعى ، وعلى أن الضرورة مبدأ عقلى .

1- Ibid. , P. 7 .

2- Ibid. , P. 84 .

3- kant, Critique of pure Reason, P. 41 .

* عقلانية هيوم فى مجال الدين :

عملنا حتى الآن على بيان عقلانية هيوم فى ضوء الاستخدام المعرفى لكلمة «العقلانية» ، لكن يوجد لهذه الكلمة استخدام آخر غير الاستخدام المعرفى ، تذكره الموسوعة الفلسفية .

فيقول محرر مادة «المذهب العقلى» :

«هناك أيضا استعمال معروف للكلمة تشير فيه إلى رأى القائل بأنه لا يجوز الإيمان بخوارق الطبيعة ، وأن الدعاوى الدينية ينبغى أن تختبر بمحك عقلى» .^(١)

يشير هذا الاستعمال للكلمة إلى أمرين هما :

١ - عدم الإيمان بخوارق الطبيعة .

٢ - اختبار المعتقدات الدينية اختبارا عقليا .

وإذا عرضنا فلسفة هيوم على هذا الاستعمال بشقيه فسنجد أنها تتطابق معه تطابقا تاما لا يدع مجالا للشك ولا يعطى أدنى مساحة لإمكانية تأويل فلسفة هيوم - فى هذا الجانب - تأويلا يخالف التفسير المقدم هنا .

فمن حيث أن المذهب العقلى لا يجيز الإيمان بخوارق الطبيعة ، فإن هيوم قد فند المعجزة ، لأنها أمر خارق للطبيعة . يقول هيوم :

« لا يوجد دليل كاف على إثبات وقوع المعجزة ، إلا ذلك الدليل الذى إذا أثبت بهتانه كان فى حد ذاته أكثر إعجازا من الحادث الذى يحاول إثباته .. ولا يمكن البتة إقامة الدليل على معجزة بحيث تكون أساسا لنظام من الدين ... ولنفترض أن كل المؤرخين الذين يكتبون عن انجلترا اتفقوا على أن (الملكة اليصابات ماتت وأنها بعد أن دفنت شهرا عادت على عرشها

وحكمت انجلترا ثانية) . لا أستطيع أمام مثل هذا القول أن أشك فى حادث عودتها المزعوم وفى تلك الظروف العامة الأخرى التى أعقبته . غير أنى أؤكد

١- أوردسون وآخرون ، الموسوعة الفلسفية ، نقلها عن الانجليزية : فؤاد كامل وآخرون (القاهرة

مكتبة الانجلو ، ١٩٨٢ م) ص ٣١٢ .

بلا شك أن موتها هذا كان أمرا مزعوما ، وأنه لم يقع ، ولا يمكن أن يكون حقيقيا .. وأجيب على ذلك إن حماقة الناس وخداعهم هما من الظواهر العامة حتى أنني أفضل الاعتقاد بإمكان اتفاقهم على أن أكثر الحوادث شذوذا قد وقعت من أن أسلم بخرق واحد واضح لقوانين الطبيعة . ولكن لو نسبت هذه المعجزة لأى نظام دينى جديد ، لرأيت الناس - وهم الذين فرضت عليهم فى جميع العصور مضحكة من هذا القبيل - يجدون فى هذا الزعم بالمعجزة برهانا كاملا على الكذب ، وكافيا لأن يحدو بجميع ذوى العقول ، لا أن يرفضوا هذه المعجزة فحسب ، بل أن يرفضوها دون المزيد فى التمحيص .. ولما كانت مخالفات الحقيقة أكثر شيوعا فيما يتعلق بالمعجزات الدينية منها فى أى أمر آخر - فإن هذا الأمر يجب أن يدفعنا إلى أن نأخذ قرارا بأن لا نعيرها أى انتباه مهما كانت سعة الإدعاء حولها (١) .

فهيوم لا يجيز وقوع المعجزة ، لأن من الصعب عليه - وهو المؤمن باطراد الطبيعة وانتظام قوانينها - أن يقول بإمكانية وقوع حدث خارق لها ، معتمدا على أقوال بعض الرواة الذين تعرضت رواياتهم لكل ما تتعرض له الرواية التاريخية ، عبر عصور كانت تجهل أدنى معرفة بالتوثيق والنقد التاريخيين ، فضلا عن عدم توافر شروط النقل الصحيح فى هؤلاء الرواة ، تلك الشروط التى تتضمن التواتر واليقين ، فلم يكن عددهم كافيا ، كما لم يكن من المؤكد اتصافهم بالصلاح والضبط ، والقدرة على التمييز بين الحقيقة والخيال . وتشير المعرفة الانثروبولوجية إلى أن الإيمان بخوارق العادات والكرامات والمعجزات ، لا يشيع غالبا إلا بين ذوى العقول ذات الطابع الأسطورى ، وهو ما كانت تتسم به البيئات التى ظهر فيها القول بالمعجزات .

وفى مقابل ذلك فإن العقل والتجربة المستنديين إلى فيزياء نيوتن ، يشيران إلى انتظام واطراد قوانين الطبيعة بشكل لا يسمح البتة بوجود ذلك الاستثناء الذى يقتضيه حدوث المعجزات .

1- Hume, An Enquiry concerning Human Nature, PP. 114 - 116 .

وهنا يجد هيوم نفسه بين أمرين : أن يشك فى أقوال الرواة الذين لم يقم دليل على صدقهم وضبط أقوالهم ولا يمنع أن يكونوا قد انخدعوا وهىء لهم ، أو أن يؤمن بأن قوانين الطبيعة قد انخرقت .

يرى هيوم أن الأمر الجدير بالرفض هو أكثر هذين الأمرين إعجازا ، أما أقلهما إعجازا فهو الأقرب إلى الاعتقاد السليم .

ولاشك أن من الصعب إن لم يكن من المستحيل ، على فيلسوف مثل هيوم يؤمن بفيزياء نيوتن - أن يرى انخراق قوانين الطبيعة أمرا أقل إعجازا من انخداع الرواة ، ومن ثم فإن من الصعب عليه أن يقبل القول بالمعجزات . إن انخراق قوانين الطبيعة أبعد وأكثر امتناعا عند هيوم من الاعتقاد فى انخداع الرواة وتحريف الرواية ، لأن العقل والخبرة قد دلا دلالة قاطعة على ثبات واطراد العمليات الطبيعية ، كما أن القرائن التاريخية وقواعد النقد التاريخى ليست فى صالح الروايات التى تؤكد حدوث المعجزات .

وبصرف النظر عن مدى خطأ أو صواب رأى هيوم فى المعجزات ، لأن هذا أمر يخرج عن نطاق الدور المنوط بهذا الفصل ، وهو إثبات عقلانية هيوم فى ضوء الاستخدام الغربى لكلمة العقلانية - أقول بصرف النظر عن ذلك فإن من الواضح اتفاق موقف هيوم من عدم جواز خرق قوانين الطبيعة مع الشق الأول من الاستعمال الثانى لكلمة العقلانية أو المذهب العقلى فى إطار الفكر الفلسفى الغربى .

أما فيما يتعلق بالشق الثانى من الاستعمال الأخير للكلمة ، وهو اختبار المعتقدات الدينية اختبارا عقلانيا ، فإن من الواضح كذلك أن موقف هيوم السالف من المعجزات قد تم اتخاذه على أساس الاختبار العقلى لها . ومن هنا فإن موقف هيوم من المعجزات ليس فقط دليلا على عدم إيمانه بخوارق الطبيعة (الشق الأول من الاستعمال الثانى) ، وإنما دليل على اختباره للمعتقدات الدينية اختبارا عقلانيا (الشق الثانى من الاستعمال الثانى) . ولاشك أن المرتكزات الأساسية التى كان يركز هيوم عليها فى « محاورات فى الدين الطبيعى » كانت مرتكزات عقلية بحثة بصرف النظر عن اختلافنا

أو اتفاقنا معها ^(١) ، وهذا ما سيثبته الفصل التالى عندما يتعرض لموقف هيوم من القضايا الدينية بوصفها قضايا ميتافيزيقية .

* الحقبة الأخيرة : حقيقة منهج الاستدلال التجريبي :

بقيت عقبة أخيرة يستند إليها أولئك الذين يؤكدون تجريبية هيوم ، وهى تصريحه فى العنوان الفرعى للرسالة ، وفى مقدمتها ، أنه يحاول إدخال منهج الاستدلال التجريبي فى الموضوعات الأخلاقية ، وهذا المنهج يشتمل على إجراء « تجارب دقيقة ومضبوطة » ^(٢) « وملاحظات حريصة عن الحياة الإنسانية » ^(٣) ، تماما مثلما يفعل الآن علم النفس التجريبي ^(٤) .

إن هذا التصريح من هيوم ينبغى ألا يخدعنا ، لأنه ليس وصفا سليما لمنهجه الحقيقى . فالقارىء لأعمال هيوم لا يجد نماذج فعلية لما أسماه « تجارب دقيقة ومضبوطة » ولا « ملاحظات حريصة عن الحياة الإنسانية » ^(٥) .

إن جميع التجارب التى يجربها هيوم فى أعماله إنما هى « تجارب فكر » لا « تجارب حس » . أما ملاحظاته فليست هى من قبيل الملاحظات العلمية ، إنما هى ملاحظات مفكر عن الصفات العامة للسلوك الإنسانى .

وفوق ذلك فإن المنهج التجريبي للاستدلال الذى حاول هيوم إدخاله فى الفلسفة الإنسانية ، هو نفسه منهج عقلانى البداية والأصل ، يشتمل فى خطواته الأساسية على مقولات ومقدمات عقلية واضحة . وهذا ما كشف كنىظ النقاب عنه ، وأكدناه نحن من خلال تحليل منهج العلم الحديث فى الفصل السابق .

١- ثمة انتقادات عديدة لموقف هيوم من الدين فى بحث آخر لنا بعنوان « فلسفة الدين الطبيعي عند ديفيد هيوم » .

2- Hume, A Treatise of Human Nature, P. XXI .

3- Ibid., P. XXII .

4- Basson, David Hume (London : Penguin Books, 1958), P. 19.

5- Basson, David Hume, P. 19 .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هيوم كان يطبق منهاجا ظاهره التجريبية وباطنه العقلانية ، مما يؤكد أن هيوم كان عقلانيا وإن لم يكن على وعى مباشر بذلك . ويرجع ذلك إلى أنه لم يكن يعي تعدد الأسس التي يركز عليها المنهج العلمى الجديد ، وظن أنه ذو أساس واحد فقط ، هو الأساس التجريبى . إن هيوم لم يكن ذا تكوين علمى متمكن ، ولم تكن معارفه العلمية بما فيه الكفاية مثل كنت . وهذا ما جعله يسقط فى وهم الاعتقاد بتجريبية العلم النيوتونى . أما كنت صاحب التكوين العلمى الجيد ، والذي كانت اهتماماته الأولى علمية فى الأساس كما تدل على ذلك مؤلفاته المبكرة ، فقد تمكن من اكتشاف عقلانية ما يسمى بالمنهج التجريبى .

إن تعمق كنت فى العلم والفلسفة ، جعله على دراية تامة بموقعه الفلسفى ، فى حين لم يستطع هيوم تحديد موقعه الجديد ، ولم يتمكن من التنظير له ، لأنه ببساطة ليس على دراية بحرب المواقع فى تاريخ الفلسفة .

* الإلتصال والانقطاع بين عقلانية هيوم والعقلانية الغربية :

وهكذا نجد أن فلسفة هيوم كانت فلسفة عقلانية سواء حسب الاستعمال الابستمولوجى للكلمة ، أو حسب الاستعمال الدينى الفلسفى الغربى لها . فمفهوم العقلانية باستعماله المذكورين ينطبق تمام الانطباق على اتجاهات هيوم .

لكن هل معنى هذا أن عقلانية هيوم امتداد للتقليد العقلانى بكل ثوابته الابستمولوجية ؟

لا يمكن الإجابة بالإثبات التام ، ولا بالنفى التام ، لأن عقلانية هيوم تعتبر من جهة معينة استمرارا للتقليد العقلانى ، ومن جهة أخرى تمثل انقطاعا ابستمولوجيا عنه . وهذا الانقطاع هو ما أعطاها جدتها فى تاريخ الفلسفة .

إن عقلانية هيوم امتداد للتقليد العقلانى ، لأن الهم واحد ، وهو البحث

عن اليقين خارج التجربة ، لأن التجربة لا تتضمن بمفردها الضرورة والكلية اللتين هما شرطان لأية معرفة يقينية . أما الضامن لهما فهو العقل الذى له بنية سابقة على كل تجربة .

ورغم تواصل عقلانية هيوم من هذه الجهة مع العقلانيات الغربية ، فقد كانت فى نفس الوقت تمثل انقطاعا ابستمولوجيا عنها ، بل كانت ناقدة لها وهادمة لكثير من ثوابتها ، فقد رأى هيوم التقدم الكبير للعلوم فى عصره ، فى نفس الوقت الذى شاهد فيه تخلف الفلسفة وتعرشها ، فحاول أن يدفعها دفعة قوية تجعلها تلحق بالتقدم العلمى . وقد وجد أن هذه الدفعة لن تتم إلا بهدم الفلسفات التقليدية ، بما فيها العقلانية الجذرية . فإذا كانت تلك الفلسفات يمكن تقسيمها قبل هيوم إلى عقلانية وتجريبية ، فإن هذا الانفصال بين جناحي الفلسفة هو المسئول عن فشلها ، ومن هذا المنطلق يلزم إضافة متغير جديد إلى التقليد العقلانى ، ومتغير جديد آخر إلى التقليد التجريبى ، وتلقيح الاتجاهين ببعضهما البعض . وبالفعل قام هيوم بهذه المهمة عن طريق القضاء على كل الجوانب الجامدة التى تمثل عائقا ابستمولوجيا أمام المعرفة الفلسفية الحقة .

ونتج عن نقد هيوم للفلسفات التقليدية انقطاع ابستمولوجى بينها وبين فلسفته ، لكن هذا الانقطاع ليس خصاما تاما ، لأنه يتضمن فى جوفه استمرارية حقيقية مع الثابت الأساسى للتقليد العقلانى ، واستمرارية محدودة مع المذهب التجريبى تتمثل فى عدم إنكار أهمية التجربة ، لكنها مع هيوم أصبحت التجربة المعقولة . الأمر الذى تمخض عنه حوار خلاق بين العقل والتجربة وانفتاح كل منهما على الآخر ، بيد أنه حوار تكون فيه المبادرة للعقل وليس للتجربة . فقد آمن هيوم بالأسبقية المنطقية للعقل ، لكن على العقل نفسه أن يتعلم من التجربة وأن يتخلى عن انغلاقه الدوجماتيقي على ذاته ، فالعقل يسبق التجربة باشتماله على مبادئ أولية ثلاثة هى : التشابه ، التجاور فى المكان والزمان ، العلية . ثم باشتمال هذه الأخيرة على فكرة الضرورة التى تسمح بقيام المعرفة العلمية ، فلولا الضرورة لما كانت هناك قوانين ، أى لما كانت هناك معرفة ، أى لما كانت هناك تجربة . واعتقد هيوم

من هذا المنطلق أن القول بأن الضرورة تحديد عقلى هو الذى يضمن قيام معرفة يقينية ، لأن اليقين لا يمكن أن يقوم على أساس تجريبي متغير .

وهكذا تحول العقل مع هيوم من منبع للأفكار الفطرية (أفلاطون - ديكارت) إلى بنية ذات مبادئ قبلية تضيف الوحدة على الانطباعات الحسية ، وتعيد بناءها مما يسمح بقيام التجربة . فالتجربة ذاتها ليست ممكنة إلا بمبادئ العقل الضرورية الكلية .

إذن فالانقطاع الاستمولوجي بين عقلانية هيوم والعقلانية التقليدية يتمثل فى رفضه للأفكار الفطرية من جهة ، ولقوله بانفتاح العقل على التجربة من جهة أخرى .

ومن هنا فقد ظن جمهور المؤرخين أن فلسفة هيوم ضد العقلانية بإطلاق ، لكنهم لم يتنبهوا إلى أن الثابت البنيوي الجوهرى للعقلانية ليس هو القول بالأفكار الفطرية ، وإنما هو البحث عن الضرورة والكلية خارج التجربة . ولا شك أن فلسفة هيوم وفقا لهذا المقياس الحقيقى تعتبر استمرارا للتقليد العقلانى ، وبالتالى فهى فلسفة عقلانية فى الصميم رغم رفضها لانغلاق العقل على ذاته .

لقد أراد هيوم أن يقدم فلسفة جديدة تسير العلم المعاصر له ، ووجد أن هذا لن يتأتى إلا بإدخال مكتسبات العلم النيوتونى فى الفلسفة ، لاسيما المكتسبات المنهجية التى جعلت العقل يفتح على التجربة ، وجعلت التجربة تتأسس فى العقل . ومن هنا جاءت عقلانية هيوم الجديدة متعددة الجوانب والآفاق ، حيث تصالح فيها العقل مع التجربة ، فى حين باءت العقلانية التقليدية بالفشل لأنها كانت ذا بعد واحد فقط .

لكن تلك الخطوة الجديدة التى اتخذها هيوم وعمقها كنط من بعده ، رغم أنها خطوة بالغة الأهمية فى نظرية المعرفة ، ورغم ما تمثله من انقطاع مع التيارات العقلانية ، فإنها مازالت تدور فى فلك العقلانية التقليدية ، لأن هيوم مازال يعتقد مع العقلانيين القدماء فى ثبات العقل وبواحديته أيضا . وقد وقع كنط أيضا فى هذا الشرك بإضافته الثبات المطلق على صور العقل

ومقولاته ومبادئه . فلاشك أن جوهر تصور كنط للعقل هو بعينه جوهر تصور هيوم ، غير أن الجديد عند كنط هو تنويع مستويات العقل وتوسيع عناصر كل مستوى .

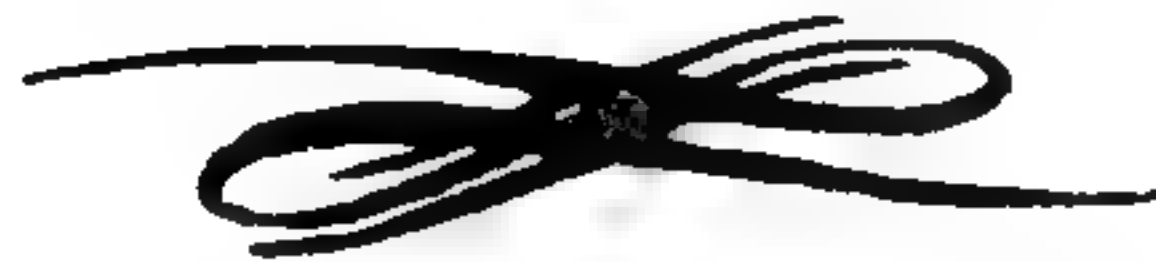
فأصبح العقل مع كنط ذا مستويات ثلاثة :

المستوى الأول : الحساسية الترנסدنتالية ، وتشمل صورتين أوليتين هما : الزمان والمكان ، بفضلهما يتحول الحدس إلى ظاهرة ، حيث يضيفان أول شكل من أشكال الوحدة على الحدوس الحسية المشوشة الهلامية .

المستوى الثانى : الفهم الترנסدنتالى ، ويتضمن اثنتى عشرة مقولة قبلية ، تقوم بتحويل الظاهرة الناجمة عن ملكة الحساسية إلى «تجربة» متسمة بالكلية والضرورة ، لأن الفهم بمقولاته ما هو إلا قدرة على الربط القبلى ، وعلى إرجاع متباين التمثلات المعطاة فى الحدس إلى وحدة الشعور .

المستوى الثالث : العقل ، الذى تأتى إليه التجربة من الفهم ، فيضيف عليها وحدة عليا ، فتتحول الى أفكار .

هكذا وسع كنط من عناصر العقل ومستوياته ، لكنه لم يتجاوز هيوم تجاوزا جوهريا فى العمق ، فقد ظل يعتقد معه بثبات مبادئ العقل وعدم قابليتها للتغير ، وكأن العقل شىء اكتمل تكوينه . وهذا التصور أثبتت الاستمولوجية الحديثة قصوره ، لأن العقل كأى ظاهرة تاريخية قابل للتغير والتطور ، وفى كل مرحلة تاريخية جديدة يتجاوز ذاته حيث يعيد بناءها بشكل جديد .



الفصل الثالث

موقف هيوم من الميتافيزيقا ومشكلاتها في ضوء موقف كنط

* هذا الفصل .

* المشروع الميتافيزيقي بين كنط وهيوم .

* بأي معنى كان هيوم ميتافيزيقيا ؟

* مشكلة النفس بين كنط وهيوم .

* مشكلة وجود الله وطبيعته بين كنط وهيوم .

* مشكلة النقائض بين كنط وهيوم .

في ضوء موقف كنط

* هذا الفصل :

إن تحرير الميتافيزيقا من أوهامها على أيدي ديفيد هيوم ، لم يكن هدما لها أو قضاء عليها ، وإنما كان تأسيسا لمناهجها ، وتحديدًا لموضوعاتها ، وتطويرا لأهدافها .

ومن أسف فإن الغالبية لم ترد أن تفهم هذه الحقيقة ؛ فهيوم إذ يجتث بمعوله التحليلي الحاد أوهام الميتافيزيقيين التقليديين حول طبيعة النفس الإنسانية ، وأصل العالم ومصيره ، وطبيعة الذات الإلهية ، إنما يهدف إلى تحويل الميتافيزيقا من أحلام ورؤى إلى علم دقيق محكم يستطيع أن يحقق تقدما مثل التقدم الذي حققه العلم الطبيعي والرياضي .

هذه هي القضية التي يقوم عليها هذا الفصل تحليلا وبرهانا . فإذا كان الفصل السابق قد قرأ هيوم قراءة كنطية فيما يتعلق بنظرية المعرفة ، فإن هذا الفصل منوط به قراءة ميتافيزيقا هيوم في ضوء ميتافيزيقا كنط ، لا بقصد إجراء مقارنة بين آراء هيوم وآراء كنط فقط ، وإنما أيضا بقصد النظر إلى هيوم عبر كنط ، أي أننا سنقرأ فلسفته وفي ذهننا حدوس كنط الفلسفية وآراؤه الميتافيزيقية على أساس أن تكون هذه الحدوس والآراء بمثابة العدسات التي سنرى بها فلسفة هيوم ، أملين الكشف عن :

كيف يتلاقى مشروع مع مشروع كنط ؟

ما هو الدور الحقيقي الذي قامت به فلسفة هيوم ؟

هل رفض هيوم الميتافيزيقا على الإطلاق ، أم أنه رفض فقط الميتافيزيقا التقليدية ؟

وهل يمكن التماس شيء من الميتافيزيقا التقليدية فى فلسفة هيوم ؟
ولذا ثبت أن هيوم كان ميتافيزيقياً ، فهل كان ميتافيزيقياً بكل المعانى ،
أم أنه ميتافيزيقى تنطبق عليه فحسب بعض تلك المعانى لا كلها ؟
وهل يمكن اعتبار هيوم ميتافيزيقيا بمعنى جديد ؟
ولماذا اعتبر المحللون هيوم محطما لكل ميتافيزيقا ؟
وهل يمكن الكشف عن تهافت الأسباب التى استندوا إليها ؟
وفى النهاية سنقوم ببيان التشابه بين كنط وهيوم فى موقفهما - من
حيث المرتكزات والنتائج - من القضايا الميتافيزيقية الكبرى :

١- النفس .

٢- الكون ومشكلة النقائص .

٣- مشكلة وجود الله وطبيعته .

وسيكون مناط اعتمادنا فى التحليل والبرهنة على وجهة نظرنا هو نصوص
كنط وهيوم أساسا ، لأن النصوص أصدق أنباء من أى شيء آخر عندما
يتعلق الأمر بتأويل فلسفة أى فيلسوف من الفلاسفة .

* المشروع الميتافيزيقى بين كنط وهيوم :

من المعلوم أن الإشكال الحقيقى للعقل المحض ، الذى يتوقف على إمكان
حله مشروعية وجود الميتافيزيقا أو عدم مشروعيتها ، هو :
كيف تكون الأحكام القبلية التركيبية ممكنة ؟ (١)

1- Kant , Critique of pure Reason , P . 55 .

وإذا كانت آراء الفلاسفة حول الميتافيزيقا قد تأرجحت حتى الآن بين الشك في وجودها والتناقض فيما بين أحكامها ، فإن السبب الوحيد في هذا - فيما يرى كنت - هو أن أحدا من الفلاسفة لم يخطر على باله أن يفكر في هذا الإشكال في وقت مبكر ، وربما لم يفكر أيضا في الفرق بين الأحكام التحليلية والأحكام التركيبية .^(١)

وليس من شك في أن ما ذهب إليه كنت في هذا الصدد ليس صحيحا على إطلاقه ، ذلك أن هيوم قد ميز في بحثه عن الفهم الإنساني تميزا دقيقا بين هذين النوعين من الأحكام ، عندما فرق بين نوعين من الموضوعات يتناولهما التفكير ، فهناك موضوعات تتعلق « بالعلاقات الموجودة بين فكرة وفكرة » ، وهناك موضوعات أخرى تتعلق « بأمر من أمور الواقع » ، وينتمي إلى النوع الأول الرياضيات ، أما النوع الثاني فتتنمى إليه علوم الطبيعة .^(٢)

أما الإشكال الحقيقي للعقل الخالص : « كيف تكون الأحكام التركيبية القبلية ممكنة ؟ فقد كان هيوم الفيلسوف الوحيد - كما يذكر كنت نفسه - الذي اقترب منه أكثر مما فعل أى فيلسوف آخر ، وإن كان في الواقع لم يتمكن من تحديده تحديدا كافيا ولم ينظر إليه في عموميته . يقول كوبلستون Copleston : « نستطيع أن نذكر بأن هيوم نفسه أكد على وجود الإسهام الذاتى Subjective Contribution في تشكيل الأفكار المعقدة المحددة ، وذلك مثل (الإسهام الذى تقوم به) علاقة العلية . وهكذا يمكن أن نفهم نظرية كنت عن القبلى بوصفها أيضا متأثرة بموقف هيوم في ضوء الاقتناع السابق بأن الفيزياء النيوتونية تقدم لنا القضايا القبلية التركيبية . وبعبارة أخرى فإن كنت لم يقدم فقط إجابة على هيوم ، ولكنه أيضا أفاد في تكوين هذه الإجابة من الاقتراحات التى قدمها الفيلسوف الانجليزى نفسه ، رغم أن الأخير لم ير دلالاتها الكاملة وإمكاناتها » .^(٣)

1- Idem .

2- Hume, An Enquiry Concerning Human understanding, P . 25 .

3- Copleston, A History of Philosophy, Vol. VI., Wolf to kant, PP. 427 - 8 .

هذا ، وإذا تمكنت الميتافيزيقا من حل ذلك الإشكال : « كيف تكون الأحكام القبلية التركيبية » ؟ فإنها تصبح مهياة للإجابة على السؤال المحورى الذى ينتظم المشروع الهيومى الكنطى : ما هو الإنسان ؟

وهذا السؤال يتفرع بدوره إلى ثلاثة أسئلة ، وهى :

١- ما هى حدود العقل الإنسانى ؟

٢- ما هى آفاق وحدود الأمل الإنسانى ؟

٣- ماذا ينبغى على الإنسان أن يعمل ^(١) ؟

وفى سبيل الإجابة على هذه الأسئلة بحث هيوم ، واقتفى به كنط ، الإنسان من ثلاثة جوانب هى :

١- المعرفة .

٢- العواطف .

٣- الاخلاق .

ويمكن أن نلاحظ بكل سهولة التوازى الموجود بين مشروعى هيوم وكنط من خلال العناوين الرئيسية لأعمالهما ، فقد اشتملت رسالة هيوم فى الطبيعة البشرية على ثلاثة أبحاث ، إحداها : تناول فيه الفهم الإنسانى ، وثانيها : تناول فيه العواطف ، وثالثها : تناول فيه الأخلاق ، أما كنط فتتوزع فلسفته النقدية بين ثلاثة كتب تأتى مناظرة تماما لأعمال هيوم ، كالآتى : نقد العقل المحض ، ونقد ملكة الحكم ، ونقد العقل العملى ، ويتضح لنا هذا التناظر أكثر إذا ما علمنا أن «نقد ملكة الحكم» وإن كان قد جاء من حيث التاريخ بعد «نقد العقل المحض» و «نقد العقل العملى» إلا أنه فى الحقيقة يقع فلسفيا بينهما ، لأنه يردم الهوة القائمة بين حال الطبيعة

١- بالنسبة لكنط يمكن مقارنة ما قلناه عنه هنا بما قاله جان لاكروا فى كتابه : كانط والقانطية ، ترجمة نسيب عبيد (الطبعة الأولى ، بيروت : المنشورات العربية بدون تاريخ) ص ٩ - ١١ .

وحال الأخلاق ، يقول كنط : «لو ضح أن هناك هوة كبيرة بين ميدان مفهوم الطبيعة الحسى وميدان مفهوم الحرية الأعلى من الحس ، وأن لا مجال البتة للمرور من الأول إلى الثانى كما لو كانا عالمين مختلفين حيث لا يمكن للأول أن يؤثر فى الثانى ، فإننا مع ذلك لا نستطيع إلا أن ندرك تأثير الثانى فى الأول ... إن تلقائية اللعب فى الملكات الفكرية ذلك الانسجام الذى هو أساس المتعة ، يجعل من غائية الطبيعة بمثابة الخيط الموصل بين ميدان مفهوم الطبيعة وميدان مفهوم الحرية ^(١)

ونقد ملكة الحكم إذ يقع فلسفيا بين نقد العقل المحض ونقد العقل العملى ، فانه يناظر بذلك موقع بحث هيوم عن العواطف ، حيث وضعه بين بحثه فى الفهم وبحثه فى الأخلاق .

ومن أوجه التشابه العجيبة فى هذا الصدد أن هيوم قد أعاد كتابة جزئين من أجزاء رسالته الثلاثة ، هما : الفهم ، والأخلاق ، أما الجزء الخاص بالعواطف فلم يعد كتابته . أما الفهم فقد أعاد كتابته فى «بحث فى الفهم الإنسانى» ، والأخلاق أعاد كتابته فى «بحث فى مبادئ الأخلاق» .

هذا الذى فعله هيوم - قام بفعله أيضا كنط ! حيث أعاد كتابة كتابين من كتبه النقدية الثلاثة ، هما : «نقد العقل المحض» ، و«نقد العقل العملى» . أما «نقد ملكة الحكم» فلم يعد كتابته . بالنسبة لنقد العقل المحض فقد أعاد كتابته فى «مقدمات لكل ميتافيزيقا مقبلة تريد أن تصير علما» وبالنسبة لنقد العقل العملى فقد أعاد كتابته فى «تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق» . ولا يعنى هذا التناظر اللافت للنظر بين بنية مشروع هيوم وبنية مشروع كنط ، وجود تطابق تام بينهما فى المضمون ، فلاشك أن هناك كثيرا من الاختلافات بقدر ما هنالك من جوانب الاتفاق والتناظر .

ويمكننا أن نذهب أبعد من ذلك فى اكتشاف وجوه التناظر بين مشروعى هيوم وكنط إذا نظرنا إلى فلسفة هيوم كما يصفها هو على أنها محاولة

1- kant, Critique of Judgment, Tr. by J . C . Meredith , (Oxford 1957) , P . 14 .

لتحديد «المبادئ» التي يفترض فيها أن تحدد بالنسبة إلى كل علم حدود كل فضول بشري» ، فهذه الصيغة - كما يقول برهيه - تشف في حد ذاتها عن أصالة تفكير هيوم : فالفلسفة نقد : نقد الفهم ، نقد الأخلاق ، نقد الأدب والفن .^(١) أو بتعبيرات كنت : نقد العقل المحض ، نقد العقل العلمى ، نقد ملكة الحكم .

* بأي معنى كان هيوم ميتافيزيقيا ؟

هكذا نرى أن المشروع الفلسفى عند كنت قد تشكل بالتوازي مع مشروع هيوم . لكن هل يمكن اعتبار هذين المشروعين - لاسيما مشروع هيوم - من المشروعات الميتافيزيقية ؟ وإذا كانا يندرجان ضمن إطار تلك المشروعات ، فبأي معنى ؟

لعل الإجابة الدقيقة على هذه التساؤلات تلزمننا منطقيا بضرورة البدء بتحديد معانى الميتافيزيقا السائدة فى الوسط الفلسفى .

تذكر الموسوعة الفلسفية^(٢) عدة معان للميتافيزيقا كالاتى :

- ١- الميتافيزيقا دراسة شاملة لما هو جوهرى فى المعرفة والتفسير والوجود .
- ٢- وهى دراسة للواقع من حيث أنه يقابل الظاهر المحض .
- ٣- وموضوعها هو - أوقد كان - مما يتجاوز الخبرة .
- ٤- وهى دراسة الجهاز العقلى أو حدود الكائنات الإنسانية ، أو هكذا ينبغي أن تكون .

٥- ومنهجها «قبلى» أكثر من أن يكون تجريبيا ، أو هكذا كان .

٦- وهى تقترح مراجعة لمجموعة الأفكار التى على أساسها نفكر فى العالم ، وتغيرا فى مجموعة أفكارنا ، وطريقة جديدة فى الكلام .

١- إميل برهيه ، تاريخ الفلسفة : القرن الثامن عشر ، ترجمة جورج طرابيشي (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٢ م) ص ١١٥ .

٢- أودمسون وآخرون ، الموسوعة الفلسفية ، ص ٣٥٧ .

يبدو أن هذه القائمة التى تقدمها الموسوعة الفلسفية لمعانى الميتافيزيقيا متنافرة وتخلو من الاتساق . ولكن يمكن تعقب بعض الارتباطات العامة بين بعض أجزائها .

فمن الممكن مثلا فى الوقت الذى نستطيع فيه أن نفسر مذهب ميتافيزيقيا ما على أنه . (٦) اقتراح بمراجعة تصوراتنا ، ودعوة للنظر إلى العالم على نحو جديد ، فإن هذا المذهب لن يقدمه الميتافيزيقى عامة على أنه مجرد اقتراح ، بل على أنه (٢) صورة للأشياء كما هى حقيقة ، لا كما تظهر لنا فى صورة مضللة ، أى أن ذلك المذهب وصف للواقع فى مقابل الظاهر .

وإذا بدأ الميتافيزيقى من (١) اهتمامه بما هو جوهرى فى الوجود ، فقد يصل إلى التقابل السابق بعينه (٢) إذ قد يعبر عن احساسه بأهمية ما يراه جوهريا بقوله أنه هو وحده الذى يوجد حقيقة ، وأن كل ماعداه ظاهر .

ولو كانت هذه الصورة المنقحة للواقع فيها من التنقيح الأساسى ما يكفى لكان التمييز بين الظاهر والواقع الحقيقى تمييزا يجوز أن يقام بين ما يقع داخل الخبرة وما يقع خارجها (٣) ؛ ومن الجلى أنه لو كان الاهتمام منصبا على ما يتجاوز التجربة ، فانه ينبغى أن يكون المنهج لا تجريبيا (٥) .

والناظر فى تلك القائمة وفى مضمون العمل الفلسفى لكنط وهيوم ، يجد أنهما ميتافيزيقيان بالمعنى الرابع والسادس والأول ، فى حين أنهما يهاجمان سائر معانى الميتافيزيقا المذكورة فى القائمة . فهما يميزان بين معان مقبولة للميتافيزيقا ومعان مرفوضة لها ، فالأولى تجعل الميتافيزيقا علما والثانية تدخلها فى دائرة الرؤى والأحلام .

وليس من شك أن ميتافيزيقا كنط كانت نقدا للعقل المحض ، ونقدا للعقل العملى ، ونقدا للملكة الحكم ، أى أنها فحص للملكات الإنسانية بهدف الكشف عن حدود تلك الملكات لتقرير إمكان الميتافيزيقا بوجه عام وتحديد مصادرها ومداها وحدودها .

بهذا المعنى نفسه حاول هيوم أن يقيم الميتافيزيقا علما دقيقا ، ورأى أن هذا لا يتأتى إلا بجعل موضوعها هو « تحليل الطبيعة الإنسانية بطريقة منظمة » ^(١) بهدف استكشاف « مبادئ الطبيعة الإنسانية » ^(٢) . فهو يريد نظرية عامة تماما عن تلك الطبيعة تفسر الأسباب التي تجعل الكائنات الإنسانية تفكر ، تدرك ، تفعل ، تشعر .

ولا يعتقد هيوم - بطبيعة الحال - أن بإمكانه تفسير كل جوانب الطبيعة الإنسانية ، ولكنه يعتقد أن لديه خطة عامة يمكن أن يتم بها هذا العمل فى النهاية . ^(٣)

نلاحظ هنا أن الميتافيزيقا مع هيوم قد أصبحت علما للإنسان ، حيث صارت تتساءل عن شروط ومبادئ المعرفة والأخلاق والعواطف . وهذا يتفق تماما مع حديث كمنط عن الميتافيزيقا المشروعية التى تبحث عن الشروط الأولية للعقل المحض والعقل العملى وملكة الحكم ، ولذا فهى تختلف عن الميتافيزيقا اللامشروعة التى تحاول أن تتجاوز عالم الواقع ، فتمتد بأفكار العقل إلى الروح والعالم والله امتداداً غير مؤسس على مبادئ يقينية ، إذ تستخدم تلك الأفكار استخداما مفارقا غير مشروع . فلقد أراد كمنط أن يحل الميتافيزيقا المشروعة محل الميتافيزيقا اللامشروعة ، أو بعبارة وود Wood قد أراد أن يؤسس ثيولوجية عقلية نقدية بدلا من الثيولوجية الدوجماتيقية . ^(٤)

وينظر هيوم إلى الميتافيزيقا التى أصبحت معه علما للإنسان - على أنها ذات أهمية جوهرية لكل العلوم الأخرى التى تعتمد عليها اعتمادا أساسيا ، فالهندسة ، والفلسفة الطبيعية (أى علم الطبيعة) ، والدين الطبيعى ، تعتمد

1- Hume, Abstract of a Treatise of Human Nature, P . 6 .

2- Idem .

3- Stroud, Hume, P . 3 .

4- Wood, Kant's rational theology (London : cornell Univ. press, 1978), P. 19 .

كلها على علم الإنسان » لأنها تخضع لمعرفة الإنسان وتحكمها طاقاته وقدراته» .^(١) ومن ثم يلزم أن نعرف حدود وطبيعة هذه الطاقات والملكات إذا ما أردنا لتلك العلوم أن تقوم على أساس سليم . وتعتبر علوم المنطق ، والأخلاق ، والنقد ، والسياسة ، أكثر قربا وصلة بالطبيعة الإنسانية^(٢) ، لأن « النهاية الوحيدة للمنطق هي تفسير المبادئ والعمليات التي تقوم بها ملكة الاستدلال عندنا وتفسير طبيعة أفكارنا . ويدرس علم الأخلاق والنقد أذواقنا وعواطفنا . أما السياسة فتأمل الإنسان بوصفه وحدة في المجتمع . ويعتمد كل علم من هذه العلوم على الآخر» .^(٣) ويزعم هيوم أنه في تقديمه لعلم الإنسان (= الميتافيزيقا) إنما يقدم في الواقع « نسقا تاما للعلوم معتمدا على أساس جديد تماما على وجه التقريب ، وبعد هذا هو الأساس الوحيد الذي يمكن لتلك العلوم أن تقوم عليه بشكل آمن » .^(٤)

إذن فالميتافيزيقا (= علم الإنسان) هي أساس كل العلوم النظرية والعملية ، ولذا فإن تقديم تصورات جديدة عن الطبيعة الإنسانية لابد أن يترتب عليه تغيير في تصورات تلك العلوم .

ومن هنا فإن هيوم إذا كان ميتافيزيقيا بالمعنى رقم (٤) الذي يوحد بين الميتافيزيقا وعلم الإنسان ، ذلك العلم الذي يعتبره هيوم أساسا لكل العلوم - فإنه بالضرورة ميتافيزيقي بالمعنى رقم (٦) الذي ينص على أن الميتافيزيقا تقترح مراجعة لمجموعة الأفكار التي على أساسها نفكر في العالم ، وتغييرا في مجموعة في أفكارنا ، وطريقة جديدة في الكلام ، لأن كل العلوم النظرية والعلمية التي تعتمد على الميتافيزيقا اعتمادا وثيقا هي التي نكون من خلالها تصوراتنا للكون والحياة ، ولا يستطيع أحد إنكار أن هيوم قد قدم نسقا من الأفكار الجديدة الجادة التي غيرت نظرتنا إلى الأشياء وأنه مبتكر لأسلوب متميز وطريقة جديدة في الحديث الفلسفي .

1- Hume, A Treatise of Human Nature, P., XIX.

2- Basson, David Hume , P . 20 .

3- Hume , A Theatise of Human Nature , P . XIX .

4- Ibid ., P . XX .

ولاشك أنه إذا كان ميتافيزيقيا بهذين المعنيين (٤) و (٦) فإنه لابد أن يكون ميتافيزيقيا بالمعنى رقم (١) الذى ينص على أن الميتافيزيقا دراسة شاملة لما هو جوهري فى المعرفة والتفسير والوجود .

وفضلا عن هذا فإن هيوم قد أعلن صراحة أن هدفه يتمثل فى محاولة إدخال منهج الاستدلال التجريبي فى الموضوعات الأخلاقية . وبصرف النظر عن حقيقة ذلك المنهج : هل هو فعلا منهج تجريبي أم أنه عقلى ، فإن من الواضح أن هيوم مهتم بتحقيق تقدم فى « الموضوعات الأخلاقية » مثل التقدم الذى حققه نيوتن فى علم الطبيعة ، وليس المقصود بـ « الموضوعات الأخلاقية » هنا نفس المعنى الدلالى الذى يحمله علم الأخلاق الآن ، وإنما كان المقصود به على وجه التحديد هو « الميتافيزيقا » ، فقد كان تعبير «الموضوعات الأخلاقية» فى القرن الثامن عشر يعادل كلمة « الميتافيزيقا » . ولا أدل على ذلك من أن هيوم نفسه قد عبر عن هذا الاستخدام المتعادل للكلمتين بشكل مباشر فى كتابه « بحث فى الفهم الإنسانى » حيث يقول فى عبارة صريحة :

«تتمثل العقبة الرئيسية التى تقف أمام تقدمنا فى العلوم الأخلاقية أو الميتافيزيقية فى غموض الأفكار والتباس معانى المصطلحات» .^(١)

فقول هيوم هنا « العلوم الأخلاقية أو الميتافيزيقية » يدل على أن صفتى «الأخلاقية» و «الميتافيزيقية» تشيران إلى مسمى واحد .

وفى نص تال مباشرة للنص السالف يقارن هيوم بين الميتافيزيقا وعلوم الرياضة والطبيعة مؤكدا على ضرورة بذل جهد أكبر حتى يمكن للميتافيزيقا أن تتجاوز العقبات التى تقف امامها ، ويمكنها تحقيق تقدم ملموس ، يقول :

1- Hume, An Enquiry concerning Human understanding, P. 61 .

« اذا كانت الفلسفة الأخلاقية قد تلكأت فى تقدمها عن العلوم الرياضية والطبيعية ، فذلك معناه أننا يجب أن ننفق مجهودا أكبر وعناية أكثر لإزالة ما يعوق تقدمها من عقبات » . (١)

ثم يصرح هيوم بأنه سيحاول الإسهام فى إزالة العقبات التى تقف حجر عثرة امام تقدم الميتافيزيقا ، وعلى وجه التحديد فى إزالة العقبة الرئيسية ، وهى غموض أفكار الميتافيزيقا ، فيقول :

« لا توجد أفكار فى الميتافيزيقا أكثر غموضا وأبعد عن اليقين من أفكار مثل energy , force , power أو necessary connexion

التي تعتبر أفكارا ضرورية جدا بالنسبة لنا لكى نعالج كل بحوثنا . ولذلك سنحاول أن نقدم فى هذا الجزء - كلما أمكن - معانى دقيقة لهذه المصطلحات ، وتلك الوسيلة سيزول جزء ما من ذلك الغموض الذى يعتبر موضوع شكوى كبيرة جدا فى هذا النوع من الفلسفة » . (٢)

إن هيوم إذ يجعل محور اهتمامه القضاء على غموض أفكار الميتافيزيقا من خلال تحليل العقل الإنسانى وطاقاته وحدوده وطبيعة أفكاره ، إنما يعد فى طليعة ميتافيزيقى القرن الثامن عشر ، حيث كان موضوع الميتافيزيقا فى القرن الثامن عشر هو دراسة العقل الإنسانى وفحص ملكاته . يقول الأب بوفيه (١٦٦١ - ١٧٣٧ م) :

« إن موضوع الميتافيزيقا هو القيام بتحليل صحيح جدا لموضوعات الذهن بحيث نجرى محاكمتنا العقلية بصدد الأشياء طرا بأعظم قدر ممكن من الصحة والدقة » . (٣)

ولاشك أن الموضوع الذى كان يدرسه هيوم يتطابق تماما مع موضوع الميتافيزيقا الذى يتحدث عنه الأب بوفيه .

1- Idem .

2- Ibid., PP . 61 - 2 .

٣- بوفيه ، مبادئ الميتافيزيقا ، طبعة بوفيه ، ص ٢٦٠ . عن بوهيه ، تاريخ الفلسفة : القرن الثامن عشر ، ص ١٤ .

بل يمكن اعتبار هيوم ميتافيزيقيا بالمعنى التقليدي إلى حد ما ، لو أخذنا بقول هيجل عما يسمى بالتجريبية العلمية - التي يدرج هيوم نفسه فيها - يقول هيجل :

« إنها تستخدم مقولات ميتافيزيقية مثل المادة ، والقوة ، والواحد ، والكثير ، والعمومية ، واللامتناهى .. الخ ، وهي تتابع هذه المقولات وتستخرج منها نتائجها وهي بذلك تفترض مقدما الصورة القياسية (أو شكل القياس في التفكير) وتستخدمها ، دون أن تدرك طوال هذا الوقت أنها تتضمن في جوفها الميتافيزيقا ، وأنها تستعمل هذه الميتافيزيقا وتستفيد من هذه المقولات وتراكيبها بأسلوب غير نقدي يخلو تماما من التفكير » .^(١)

ويشير هيجل إلى أن التحليل الفلسفي « الذي يبدأ من العيني [كما هو الحال عند هيوم] ، والاستحواذ على هذه المادة يعطيه ميزة لها اعتبارها يتفوق بها على التفكير المجرد الذي كانت تأخذ به الميتافيزيقا القديمة ، فهو يؤكد الفروق والاختلافات في الأشياء ، وتلك مسألة بالغة الأهمية : لكن هذه الاختلافات نفسها ليس قبل كل شيء سوى صفات مجردة أعني أفكاراً ولقد قيل أن هذه الأفكار هي الماهية الحقيقية للأشياء ، وهكذا نرى البديهية القديمة التي كانت تأخذ بها الميتافيزيقا تعود إلى الظهور من جديد وهي القول بأن حقيقة الأشياء تكمن في الفكر » .^(٢)

ولا يعنى استشهادنا هذا بهيجل أن ميتافيزيقا هيوم كانت ميتافيزيقا تقليدية . قد تكون ميتافيزيقا هيوم متضمنة لبعض مقولات الميتافيزيقا التقليدية ، لكنها في نهاية الأمر ومن حيث الجوهر تختلف تماما عن ذلك النوع من الميتافيزيقا التي كانت تخلق بأجنحة الوهم في عالم من الأحلام بعيدا عن أرض الواقع .

١- هيجل ، موسوعة العلوم الفلسفية ، المجلد الأول ، ترجمة وتقديم وتعليق : د/ إمام عبد الفتاح إمام (الطبعة الأولى ، بيروت دار التنوير ١٩٨٢ م) ص ١٣٩ .
٢- المرجع السابق ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

لكن لماذا اعتبر المحللون هيوم محطما لكل ميتافيزيقا على الإطلاق ؟

يرجع ذلك من وجهة نظرى إلى ثلاثة أسباب :

الأول : أن ميتافيزيقا هيوم كانت ميتافيزيقا جديدة ، تمثل فى حقيقتها ثورة جذرية على كل الميتافيزيقيات التقليدية ، فظن المحللون أن تلك الثورة الجذرية تعنى رفض الميتافيزيقا على الإطلاق . وقد كان ظنهم هذا نتيجة أنهم اعتادوا قياس الحاضر على الماضى ، فقاموا بمواقف هيوم الفلسفية على ميتافيزيقيات الماضى ، فوجدوها مبينة لها تماما ، ومن ثم صدر حكمهم المتقدم . ونسوا أن ميتافيزيقيات الماضى ليست كل الميتافيزيقا ، وأنها لاتعدو أن تكون محاولات إنسانية أولى لفهم العالم لابد من تجاوزها فى يوم ما .

الثانى : وهذا السبب متفرع عن السبب الأول .. ويتمثل فى الظن بأن تنفيذ هيوم الفلسفى للأدلة القبلية والبعدية على تحديد طبيعة الله وانكاره للأدلة على جوهرية النفس يعنى أنه ليس ميتافيزيقيا ، فأن تكون ميتافيزيقيا فى نظرهم لابد أن تكون مؤمنا من الناحية الفلسفية بطبيعة محددة لله ومعتقدا فى جوهرية النفس .

ولا ريب أن هذا ظن خاطيء لأن هيوم إذ يتفلسف على ذلك النحو إنما يقدم تصورات جديدة للكون والحياة والإنسان ، تقنع بالوقوف عند هذا العالم ، وتلتمس مبادئ تفسيره من داخله . وبالتالي فإنه يقدم ميتافيزيقا جديدة تسعى لاكتشاف الحقيقة الموجودة داخل العالم بدلا من التحليق فى عوالم الأوهام .

الثالث : الفهم الخاطيء لقول هيوم : « أننا إذا ما استعرضنا المكتبات مزودين بهذه المبادئ فيالها من إبادة تلك التى نضطر إلى فعلها ، فلو تناولنا بأيدينا كتابا كائنا ما كان ، كتابا فى اللاهوت أو فى الميتافيزيقا المدرسية - مثلا - فلنسأل هل يحتوى هذا

الكتاب على تدليلات مجردة خاصة بالكم والعدد ؟ لا . هل
يحتوى على تدليلات تجريبية خاصة بأمور الواقع والوجود ؟ لا .
إذن فآلق به فى النار لأنه يستحيل أن ينطوى على شىء غير
السفسطة والوهم ^(١) .

فهذا النص الذى ختم به هيوم « بحث فى العقل الإنسانى » يستشهد به
المحللون دائما على رفض هيوم للميتافيزيقا على الاطلاق .

لكن لو أمعنا النظر فى عبارات هذا النص لوجدنا أن هيوم لم ينصح بإبادة
كتب الميتافيزيقا مطلقا دون تقييد بشرط أو سبب وإنما اشترط خلوها من
الاستدلالات الاستنباطية والاستقرائية ، لأنها بفقدانها لهذه الاستدلالات
تفقد صفة العلم الدقيق ، ومن ثم فإنها لا تحوى إلا استدلالات سفسطائية
وأحكاما وهمية .

وهكذا فإن حكم هيوم حكم مسبب . وبالتالى إذا زال السبب زال الحكم
أى إذا زالت الاستدلالات السفسطائية والأحكام الوهمية وحل محلها
الاستدلالات الاستنباطية والاستقرائية - زال حكم هيوم .

وهكذا نرى أن هيوم قد رفض فقط الميتافيزيقا القديمة المشتملة على
السفسطة والوهم ، وسعى إلى إدخال الأنواع الدقيقة من الاستدلال فى
دراسة الموضوعات الميتافيزيقية بهدف جعلها علما محكما .

* مشكلة النفس بين كنط وهيوم :

رغم اختلاف كنط عن هيوم فى معالجة موضوع « النفس الإنسانية »
من الناحية الشكلية ، إلا أنه يتفق معه فى مضمون تلك المعالجة ، حيث
يستند إلى نفس الأساس الذى استند اليه هيوم فى تفنيد القول بجوهرية
النفس وبساطتها وخلودها ، كما أنه قد انتهى إلى نفس النتيجة التى انتهى

1- Hume, An Enquiry , P . 165 .

اليها هيوم ، من أن العقل النظري عاجز عن تقديم براهين محكمة على جوهرية النفس . وإذا كانت توجد بينهما بعض الاختلافات التي تأتي هنا أو هناك ، فإنها لا تؤثر مطلقا على اتفاقهما الجوهرى حول أسس المعالجة ونتائجها .

وإذا ما بدأنا بهيوم ، فإننا نجد أنه يدرش تحليلاته بالكشف عن المقدمة الأولى التى بنى عليها الميتافيزيقيون أو هامهم حول النفس الإنسانية ، والتى تعتبر نقطة الانطلاق بالنسبة لكل براهينهم . وقد وجد أنها تتمثل فى «خبرة الشعور بالذات» ، فالإنسان يشعر دائما بذاته أو نفسه شعورا لا يشوبه أدنى شك ، وهذا الشعور ليس بحاجة إلى دليل أو برهان ؛ لأن النفس التى يشعر بها المرء هى أساس كل إحساس أو إدراك أو انفعال أو عاطفة . فهى النواة التى تتعاقب عليها كل تلك الحالات المتغيرة ، ولذا فلا يمكن الشك فى وجودها لأنه لو حدث مثل هذا الشك لما كان هناك شىء يمكن أن يحكم بأنه يقينى ، فهى أكثر الأشياء التى تدخل فى حيز يقيننا ، لأنها أقرب الأشياء إلينا ، ولا يكتفى هؤلاء الميتافيزيقيون بالتأكد على وجودها ، بل يتحدثون أيضا عن طبيعتها ، فهى عندهم ذات هوية تامة وهذه الهوية بسيطة ، ومن هنا يحكمون بخلودها . يقول هيوم :

« يوجد بعض الفلاسفة الذين يتخيلون أننا نشعر شعورا قويا فى كل لحظة بما يطلق عليه ذواتنا ، ذلك أننا نشعر بوجودها واستمرارها فى الوجود ، ويتخيلون أننا متأكدون تأكدا لا يحتاج إلى بينة البرهان من هويتها الكاملة وبساطتها » . (١)

ولا يختلف كنت عن هيوم فى تأكيده على أن خبرة الشعور بالذات أو «الانا أفكر» هى المقدمة التى يبنى عليها علم النفس العقلى ، والتى منها يستنبط الميتافيزيقيون كل النتائج المتعلقة بجوهرية النفس وبساطتها وخلودها يقول كنت بعد إيراد بعض الاستدلالات :

1- Hume, A Treatise ..., 251 .

أمامنا إذن علم مزعوم مبني على هذه القضية الوحيدة (أنا أفكر)
« .. (١) »

وفي نص تال يؤكد هذا المعنى فيقول :

« (أنا أفكر) هو إذن نص علم النفس العقلي الوحيد الذي يجب أن
تستمد منه كل حكمتها » . (٢)

إذن فمنشأ أوهام الميتافيزيقيين المتعلقة بعلم النفس العقلي ، هو «الأنافكر» بلغة كنط ، أو خبرة «الشعور بالذات» بلغة هيوم ، ومن هذه الخبرة يصعدون إلى كل أحكامهم المتعلقة بجوهرية النفس وبساطتها ، وخلودها .

ولقد ركز كل من هيوم وكنط معظم تحليلاتهما الفلسفية على نقد جوهرية النفس أكثر من تركيزهما على نقد فكرة البساطة والخلود .

وفي ظني أن هذا مسلك منطقي تماما لأن فكرة الجوهرية هي أساس الحكم ببساطة النفس ، وبساطة النفس بدورها أساس الحكم بخلودها . فإذا ثبت عدم جوهريتها تصدع على الفور الإيمان ببساطتها ، وبالتالي تلاشي الأمل في خلودها . فلكني أقول عن شيء ما إنه جوهر بسيط يلزم أولا أن يكون جوهرًا ، ولكي أحكم بخلود النفس يتحتم قبلًا أن تكون بسيطة غير مركبة لأن المركب يفنى بتحليل أجزائه ، أما البسيط فهو ما ليس له أجزاء وبالتالي لا يتحلل ، أي لا يفنى . وربما يدل النص المقتبس أعلاه من هيوم ، على أنه على وعي بترابط هذه المفاهيم وإنشاء كل منها على الآخر . أما كنط فيتضح وعيه التام بهذا الانبثاق والترابط عندما يقول :

« يعطى وصف النفس بأنها جوهر - من حيث هو موضوع للحس الباطن فقط - تصور اللامادية ، ومن حيث هو جوهر بسيط فإنه يعطى الالافساد ،

1- kant, Critique of pure Reason, Tr. by J.M.D. Meiklejohn (London : J.M. Dent & Sons LTD ., 1934) , P . 234 .

من الآن وحتى نهاية الفصل ستكون إشارتنا لهذه الطبعة ، وإذا رجعنا لطبعة أخرى فستلقت النظر إلى ذلك .

2- Idem .

ومن حيث هو جوهر عقلي فإن هويته تعطى تصور الشخصية وهذه العناصر الثلاثة مجتمعة تعطى تصور الروحانية وعلاقة النفس بالموضوعات في المكان تعطى تصور التعامل مع الأجسام ، فهي تمثل إذن الجوهر المفكر بوصفه مبدءاً للحياة في المادة ، أى كنفس (anima) وكمبدءاً للحياة بعامة ، ومبدءاً للحياة وهو في إطار حدود الروحانية يعطى : الخلود . وينشأ عن ذلك أربع مغالطات يقع فيها علم النفس الترنسندنتالى الذى يعد خطأ بمثابة علم للعقل المحض يعالج طبيعة ما هيتنا المفكرة ^(١).

وإذا ما انتقلنا إلى الأساس الذى يستند إليه كل من هيوم وكنط فى تفنيد القول بجوهرية النفس فإننا سنجد أنه أساس واحد لا يختلف من هيوم إلى كنط ولا من كنط إلى هيوم ، إذ يرى الاثنان أن وجود الجوهر يستلزم وجود حدس حسي ثابت دائم ، وهذا ما لا يمكن العثور عليه لأن كل حدوسنا متغيرة متعاقبة لا تثبت على حال واحد ، ومن ثم فإن «الانا أفكر» أو الشعور بالذات لا يدل على جوهرية النفس لعدم وجود حدس حسي يمكن اعتباره أساساً لها .

والدليل على هذا هو نصوص كنط وهيوم . فبالنسبة لكنط فإن صفوة نقده لعلم النفس العقلي تتمثل - كما يشير عبد الرحمن بدوى ^(٢) - فى أن الفكر بوجه عام لا يكفى لمعرفة موضوع ما ، بل لابد من الحدس الذى ينطبق عليه هذا الفكر . والمرء حين يقول «أنا أفكر» فإنه يعبر فقط عن الشرط العام الذى تخضع له كل تصوراته . ولا بد له - كى يعرف نفسه - من حدس باطن يزوده بمادة ذلك الشكل العام الحاوى للفكر . وعلى هذا فإن المرء لا يستطيع بتحليل الفكر بوجه عام أن ينسب إلى الأنا صفات مثل

1- Ibid ., P . 235 .

٢- عبد الرحمن بدوى ، امانويل كنت (الكويت : وكالة المطبوعات ١٩٧٧ م) ، ص ٢٨٢ .

الجوهرية ، البساطة ، الهوية الشخصية ، لأن هذه النسبة تفترض تركيبا يظل عديم القيمة والمعنى إن لم يوجد حدس . يؤيد هذا قول كنت :
« حتى يمكن لهذا المفهوم المسمى جوهر أن يدل على موضوع يمكن

أن يعطى - كى يصير معرفة يجب أن يكون ثمة حدس دائم فى الأساس بوصفه شرطا لابد منه للواقع الموضوعى لكل مفهوم ، أعنى ما به وحده يعطى الموضوع وفى الواقع أنه ليس لدينا أى شىء دائم فى الحدس الباطن ، لأن الأنا هو مجرد وعى بتفكيرى . وإذا ما اقتصرنا على التفكير وحده فإنه سيظل ينقصنا الشرط الضرورى لكى نطبق على ذاتنا ككائن مفكر مفهوم الجوهر ، أعنى مفهوم موضوع يقوم بنفسه ويستتبدد كليا ببساطة الجوهر المربوطة به مع الواقع الموضوعى لهذا المفهوم لكى تتحول إلى وحدة محض منطقية وكيفية للوعى الذاتى فى التفكير بعامة ، سواء كان الموضوع مركبا أو غير مركب » .^(١)

ولو دققنا النظر فى هذا النص لوجدنا أنه قد استند إلى مبدأ يسرى فى النقد كله ، هذا المبدأ هو أن الفكر لا يكفى بصفة عامة من أجل معرفة أى موضوع ، وإنما لابد من حدس حسى ينطبق عليه هذا الفكر . ولاشك أن هذا المبدأ مبدأ هيومى تماما ؛ لأن هيوم هو الذى أكد على حتمية وجود حدس أو انطباع لكى أحكم بجوهرية النفس .

ولقد اعتبر كنت « الأنا أفكر » شرطا ضروريا لقيام المعرفة ؛ فهى ليست موضوعا ، وإنما شرط منطقى للمعرفة ، أو هى « مجرد وظائف منطقية لا تعطى الفكر أى معرفة بموضوع ، ومن ثم لا تجعلنى أعرف نفسى كموضوع » .^(٢)

1- kant, critique of pure Reason, P . 240 .

2- Ibid., P . 237 .

وإذا ما رجعنا إلى هيوم فإنا سنجد تفنيده لجوهرية النفس لا يختلف من حيث الأساس عن تفنيد كנט لها ، حيث يعتبر أن أية فكرة حقيقية لا بد أن تنشأ عن انطباع فإذا كان كנט يقول :

« أنا لا أعرف أى موضوع بمجرد أنى أفكر ، بل على العكس ، لا يمكننى أن أعرف أى موضوع إلا بتعيين حدس معطى » .^(١)
فإن هيوم كان قد سبق له القول :

« لا بد لكل فكرة حقيقية أن تنشأ عن انطباع حسى واحد معين » .^(٢)
وإذا كان كנט يقول :

« إن تحليل وعى بذاتى فى التفكير بعامة لا يقدم لى أى معرفة بـ (ذاتى) كموضوع » .^(٣)

فإن هيوم قال من قبل :

« لا أستطيع أبدا أن أمسك بـ (ذاتى) فى أى وقت .. » .^(٤)

نزيد هذا الأمر تفصيلا ، فنقول إن هيوم - مثله مثل كנט - يفند القول بجوهرية النفس على أساس أن وجود الجوهر يستلزم وجود حدس ثابت دائم ، وإذا لم يوجد هذا الحدس لصار القول بجوهرية النفس خلوا من كل معنى .

ويطرح هيوم رأيه هذا فى شكل سؤال استنكارى قائلا :

« من أى انطباع أمكن لهذه الفكرة أن تأتى ؟ » .^(٥)

1- Idem.

2- Hume, A Treatise of Human Nature, P . 251 .

3- kant, critique of pure Reason, P . 238 .

4- Hume, A Treatise of Human Nature, P . 252 .

5- Ibid ., P . 251 .

ويجب بقوله :

« إنه محال علينا أن نجيب عن هذا السؤال بغير الوقوع في تناقض ظاهر وسخف ، ومع ذلك فهو سؤال لا بد من الإجابة عنه ، فلا محيص لنا عن ذلك إذا أردنا أن نجعل فكرة النفس واضحة مفهومة ، فلا بد لكل فكرة حقيقية أن تنشأ عن انطباع حسى واحد معين ، لكن النفس أو الذات الشخصية ليست انطباعاً بذاته من الانطباعات الحسية ، بل هى ذلك الشيء الذى يفترض فيه أنه المرجع الذى تستند إليه انطباعتنا وأفكارنا على اختلافها ، ذلك لأنه لو كانت فكرة النفس قد نشأت عن انطباع واحد معين للزم أن يظل ذلك الانطباع على حاله دائماً لا يتغير إبان فترة حياتنا كلها لأن المفروض فى النفس أن يكون وجودها قائماً على هذا النحو ، لكن ليس هناك انطباع واحد متصف بالدوام وعدم التغير ، فالألم واللذة ، والحزن والسرور ، والعواطف والإحساسات ، كلها يتبع بعضها بعضاً ، ويستحيل عليها أبداً أن يتحقق لها الوجود كلها دفعة واحدة ، وإذن فلا يمكن لفكرة النفس أن تستمد من أحد هذه الانطباعات أو من غيرها ، وبالتالي فليس هناك فكرة كهذه» .^(١)

ثمة أمور عدة جديرة بالملاحظة والتنويه فى هذا النص بالغ الأهمية .

أولها : يشير هيوم صراحة فى مطلع النص إلى أن الحديث عن النفس يؤدى إلى الوقوع فى « تناقض ظاهر وسخيف » ، وتكشف هذه الإشارة بوضوح عن وعى هيوم بأن مجاوزة عالم الظواهر ، عالم التجربة الممكنة ، لا بد أن يسفر عن السقوط فى النقائص . وربما لا يختلف معنى أحد فى أن رأى هيوم هذا يمثل جوهر النقد الكنطى الذى يؤكد على أن العقل الإنسانى مقيد بعالم الظواهر ، وإذا ما تجاوزه إلى عالم الشيء فى ذاته (الذى يشتمل على الموضوعات المفارقة ومنها النفس) فإنه سيقع فى متناقضات ،

1- Ibid ., PP . 251 - 2 .

وعندئذ ينهار النقد كله ، لأنه لو جاز مثل هذا المسلك ،
واستطعنا من واقعة التفكير أن نستنبط الطبيعة الجوهرية للأنا إذن
لانهدمت النقدية عن آخرها . (١)

ثانيها : إن تأكيد هيوم على عدم وجود انطباع واحد دائم يعتبر أصلا
لفكرة النفس ، ومن ثم لا يوجد أساس متين للقول بجوهريتها -
أقول إن تأكيد هيوم هذا هو نفسه الذى نص عليه كنت عندما
قال إن الذات : « لا تنطبق عليها مقولة الجوهر التى تفترض حدسا
معطى دائما ، وبالتالى لا يمكن لهذه الذات أن تعرف » . (٢) كما
أن قول كنت : « ليس لدينا فى الحدس الباطن أى شىء دائم » (٣)
يتشابه تمام التشابه مع قول هيوم : « ليس هناك انطباع واحد
متصف بالدوام وعدم التغير » . (٤)

ثالثها : ألا يعنى قول هيوم إن « الذات ليست انطبعا بذاته من الانطباعات
الحسية ، بل هى ذلك الشىء الذى يفترض فيه أنه المرجع الذى
تستند إليه انطباعتنا وأفكارنا ... » (٥) - ألا يعنى هذا أنه يعتبر
الذات شرطا للانطباعات والأفكار ، أى شرطا للمعرفة ، وبالتالى
فإن كنت يتشابه معه عندما يرى أن « الشعور بالذات فكرة لا
تشير إلى كائن موجود هو نفسى وإنما فكرة تعبر عن الشرط
الضرورى لحصول المعرفة .. فموضوعات المعرفة محتاجة إلى ذات
تعرف تلك الموضوعات » . (٦) ومن هنا فإن كنت يقول : « نرى
بسهولة أن هذا المفهوم (أى الأنا أفكر) هو الحامل Vehicle

1- kant, Critque of pure Reason , P . 239 .

2- kant, Critque of pure Reason, P. 244 .

3- Ibid., P. 240 .

4- Hume, A Treatise of Human Nature , P. 251 .

5- Idem .

٦- محمود زيدان ، كنت وفلسفته النظرية ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

لكل المفاهيم بعامة » . (١) .

ولا خلاف فى أن كـنـط وهـيوم بتـصـديـعـهـما للأسس البرهانية التى ينهض عليها الاعتقاد بجوهرية النفس قد حسما مقدما مسألة بساطة النفس ، لأنه إذا لم تكن النفس جوهرًا لا يمكن القول عنها أنها بسيطة ، فلكى يقال عن شىء ما أنه جوهر بسيط يلزم أولا أن يكون جوهرًا .

وإذا لم تكن النفس جوهرية ، وبالتالى ليست بسيطة ، فإنها منطقيا ليست خالدة لأن الخلود مقترن بالبساطة اقترانا لا ينقسم عدما ووجودا فلا يخلد إلا البسيط إذ أنه ليس له أجزاء ومن ثم لا يتحلل .. لا يفنى . فالنفس التى هى ليست بجوهر عند كـنـط وهـيوم لا يمكن القول عنها أنها بسيطة ، فهى لا تعدو أن تكون عند كـنـط - كما سبق بيانه : « مجرد وظائف منطقية .. » (٢) ، كما أنها لا تعدو أن تكون عند هيوم : « حزمة أو مجموعة من الإدراكات يعقب بعضها بعضا فى سرعة هائلة لا يمكن تصورها ، وهى فى حركة وتدفق لا ينقطعان . فالعقل أشبه ما يكون بالمرح تتعاقب عليه الإدراكات المختلفة تعاقبا سريعا واحدا فى أثر واحد ، وهى لا تفتأ فى تعاقبها السريع يختلط بعضها ببعض لتتكون منها تركيبات لا نهاية لاختلافها ولاحد لصنوفها وأوضاعها ، حتى لنستطيع أن نجزم بأن (الذات) لا تكون ذاتا واحدة بسيطة مدى لحظة واحدة من زمن ، كلا ولا هى تؤلف (هوية واحدة) تجمع العناصر المختلفة .. على أن تشبيها العقل بالمرح لا ينبغى أن يضللنا ، إذ ليس العقل إلا الإدراكات المتوالية ، دون أن يكون لهذه الإدراكات مكان لظهورها » . (٣)

ولا أدل على ارتباط فكرتى جوهرية النفس وبساطتها بفكرة الخلود عند هيوم ، من أنه يفند القول بالخلود فى نفس السياق الذى يفند فيه فكرتى الجوهرية والبساطة ، وينطلق فى هذه التفنيدات - مثله مثل كـنـط - من

1- kant, Critique of pure Reason, P. 234 .

2- Ibid ., P . 237 .

3- Hume , A Treatise of Human Nature , P. 253 .

منطلق واحد فقط ، هو عدم وجود حدس حسي يتضمن الجوهرية والبساطة والديمومة . يقول هيوم :

« إننى لا أستطيع أبدا أن أمسك بـ (ذاتى) فى أى وقت بغير إدراك ما ، كما لا أستطيع أبدا أن أرى شيئا على الإطلاق فيما عدا ذلك الإدراك ، حتى اذا ما أزيلت إدراكاتى لفترة من الزمن كما يحدث فى حالة من النعاس العميق ، فاننى أكون طوال تلك الفترة غير حاس بـ (ذاتى) حتى ليتمكن أن يقال عني بحق أنى لست موجودا ، فإذا ما أزيلت كل إدراكاتى بالموت بحيث يمتنع على التفكير والحس والرؤية والحب والكراهية بعد تحليل جسدى ، فإننى عندئذ أكون فى حالة من العدم التام ، فلست أتصور ماذا يطلب غير هذا ليتحقق انعدامى انعداما كاملا ؟ » .^(١)

ويخلص كنط إلى نفس النتيجة تقريبا عندما يشير إلى أنه لا يمكن « أبدا معرفة الذات بوصفها موضوع الحس الباطن إلا بواسطة الظواهر التى تكون حالة من حالات الذات الباطنة ، فى حين أن ماهيتها فى ذاتها وهى أساس هذه الظواهر تكون غير معلومة » .^(٢) وكما نلاحظ فإن هيوم إذا كان يستطيع أبدا أن يمسك بـ (ذاته) فى أى وقت بغير ادراك فإن كنط أيضا لا يمكنه أبدا معرفة الذات .. إلا بواسطة الظواهر التى تكون حالة من حالات الذات الباطنة .

وإذا كان هيوم فى النصف الأخير من النص السابق يتحدث عن أن الموت هو « عدم تام » فإن كنط أيضا يتحدث عن « أن موت الإنسان هو نهاية كل تجربة بالنسبة إلى النفس أو الذات موضوع التجربة » .^(٣)

1- Ibid ., P . 252 .

2- kant , prolegomena to Future Metaphysics, Trans. by john Richardson, in Metaphysical works (London : Mdccxxxvi, p . 131 .

انظر الترجمة العربية ص ١٦١ .

3- Ibid ., p . 129 .

انظر الترجمة العربية ، ص ١٥٩ .

تجدر الإشارة إلى أن إحالتنا على المقدمات فى هذا الفصل ستكون على طبعة جون ريتشاردسون ، وإذا احلنا إلى غيرها فسنلفت النظر إلى ذلك .

ويؤكد هيوم هذا الرأي في مقاله « عن خلود النفس » المنشور ضمن كتابه المعنون بـ « مقالات غير منشورة » حيث يتساءل تساؤلا استنكاريا عليه مسحة من الاستغراب :

بأى البراهين أو الاستدلالات يمكن أن نثبت حالة للوجود لم يشاهدها أحد ولا تماثل بأى شكل أية حالة سبق رؤيتها ؟^(١)

من الواضح هنا أن هيوم يستبعد وجود براهين أو استدالات مقنعة على خلود النفس كما يستبعد وجود تجربة إنسانية تثبت الحياة المستقبلية . وهذا نفسه هو ما أكد عليه كنت عند ما قال في « المقدمات » « إنه فعلا لأمر غريب جدا أن ينزلق الميتافيزيقيون دائما من غير اكشراث إلى القول بمبدأ دوام الجوهر ، ولا يحاولون أبدا أن يعطوا لنا أى دليل على ذلك ، وهذا بلا شك لأنهم حين يتناولون بالبحث معنى الجوهر فإن كل وسائل الإثبات تنقصهم تماما »^(٢) ، « أن التجربة لا يمكن أبدا أن تتابع بعيدا عن هذه الأجسام (الجواهر) في كل تحولاتها وتحليلاتها لكى نجد فيها المادة التى لا تخضع لعملية رد أخرى »^(٣) ، « لا يمكن إثبات دوام الذات (= النفس) إلا بالنظر الى حياة الإنسان ، لا بالنظر إلى الزمان الذى يعقب الموت »^(٤) لأن هذا الزمان لا خبرة لنا به ، فـ «قانون دوام الجوهر لا قيمة له إلا بالنظر إلى التجربة ، وبالتالي فلا يمكن أن تكون له قيمة إلا بالنسبة إلى الأشياء من حيث أنه يجب أن تعرف في التجربة وأن تتحدد وترتبط مع غيرها في التجربة أيضا ، لا بالنسبة إلى الأشياء بوصفها مستقلة عن كل تجربة ممكنة ، ولا بالتالى بالنسبة إلى النفس بعد الموت »^(٥) وخلاصة الأمر كما يقول:

١- هيوم ، عن خلود النفس ، المقال الأول في كتاب «مقالات غير منشورة» ، (لندن لونجمانز جرين ، ١٨٧٥م) ، راجع بصفة خاصة ص ٤٠١ - ٤٠٦ . وانظر : جاك شورون ، الموت في الفكر الغربي ، ترجمة يوسف كامل حسين ، مراجعة وتقديم أمام عبدالفتاح أمام (الكويت : عالم المعرفة ٧٦ ، ١٩٨٤م) ص ١٤٦ - ١٤٨ .

2- kant, prolegomena to Future Metaphysics, P., 129 .

3- Idem .

4- Idem .

5- Ibid ., p. 130 .

كنط فى «نقد العقل المحض» : «إنه لا يمكن لنا أن نعرف شيئا - بأى طريقة - عن قوام النفس فيما يخص إمكان وجودها المستقل عن الموضوعات الخارجية» .^(١)

ولا يكتفى هيوم وكنط بطرح الإشكالات النظرية التى تواجه فكرة الخلود وإمكانية إقامة البرهان النظرى عليها ، بل يقدم الاثنان الأدلة التى ترجح حدوث الفناء عن طريق اللجوء إلى ملاحظة الطبيعة ، فالطبيعة عند هيوم تؤكد أن النفس والبدن مرتبطان معا من البداية حتى النهاية ، من المولد فالطفولة إلى الصبى والشباب حتى الكهولة والشيخوخة ، وكل منهما يتوافق مع الآخر ويلازمه تلازما طرديا بشكل يصعب معه الفصل بينهما .

ثم يعادو هيوم - عبر تقديمه لهذا الدليل على فناء النفس - إلى تقديم إشكال جديد ضد فكرة الخلود ، فيتساءل فى عبارات مختزلة لكنها تبرز حجته فى أقوى صورة لها :

« ما هو ذلك السبب الذى يمكن أن يؤدى إلى تصور أن تغيرا كبيرا مثل ذلك التغير الذى يحدث للنفس بتحلل البدن وسائر أعضائه الفكرية والحسية - كيف يمكن أن يحدث مثل هذا التغير دون حدوث تحلل لجميع مكونات الانسان ؟ » .^(٢)

إن هذا الإشكال لا يمكن الرد عليه - فيما يرى هيوم - إلا إذا كان للنفس وجود سابق قبل حلولها فى البدن ، ولذا فالاحتمال الوحيد الممكن - عند هيوم - هو نظرية التناسخ ، ولكن حتى هذا الاحتمال لا ينجو من تفنيده فلا يوجد دليل على الوجود السابق للنفس لأنه تجربة لم يسبق لأحد أن مربها ، ولا يمكن للعقل أن يقيم عليها البرهان المحكم .^(٣)

أما كنط ، فإن له موقفا مشابها إن لم يكن متطابقا مع هيوم ، فيما يتعلق بأن ملاحظة الطبيعة تدل على فناء الفرد ، فىرى - أثناء انتقاده

1- kant, critique of pure Reason, p., 243 .

١- هيوم ، عن خلود النفس ، نفس الموضوع السابق .

٢- المرجع السابق ، نفس الموضوع .

لكتاب أفكار حول فلسفة تاريخ الجنس البشرى لهردر - أنه لا يوجد تشابه البتة بين ارتقاء الفرد إلى حالة أكثر كمالاً في الحياة المستقبلية^(١) وما نلاحظه في الطبيعة التي لا تظهرنا إلا على دمار الفرد وحفظ النوع . أما الزعم بمعرفة أن الفرد الإنساني سيعيش بعدد ماره فربما أمكن طرحه على أسس أخلاقية وميتافيزيقية ، ولكن ليس من خلال القياس على التطورات الطبيعية ، تلك التي تدل على فناء الفرد لا بقاءه .^(٢)

ومن الأدلة التي قدمها هيوم على الفناء في مقاله «عن خلود النفس» ذلك الدليل الذي يرى فيه أنه إذا كان من المؤكد أن الإنسان يخشى الموت ، فهذا شاهد على فناء النفس الإنسانية بالموت لأنه إذا «كانت الطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً ، فإنها لا يمكن أن تملأنا بالفرع تجاه حدث مستحيل» .^(٣)

إن هيوم المتشائم يستنتج هنا من كون «الطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً» الدليل على الفناء .

لكن كمنط الذي يملؤه التفاؤل - طبعاً ليس بسبب من العقل النظري المحض - يستنتج من نفس هذه المقدمة الدليل على الخلود ، حيث لديه اقتناع عميق بأننا نجد في كافة أنحاء العالم دلائل جلية على نظام يسير طبقاً لغرض محدد وينفذ بحكمة عظيمة^(٤) ، وبعد هذا الاقتناع هو الأساس والمعيار لإيمانه بوجود «عالم أفضل» وهو الذي يبرر أمل الإنسان

١- كان هردر قد قدم نظرية الميلاد الجديد التي تقول بميلاد روى وجسماني يقوم علي الوحدة الصوفية للخلق ، فهناك موت وصيرورة دائماً تنشأ في غمارها الحالة المستقبلية من رحم الحاضر علي النحو ذاته الذي تنتج به الأشكال العليا للحياة العضوية من تطور الكائنات الحية الأدنى . انظر : هردر ، ما يتعلق بالمعرفة والغيب - ٦ - ذ - زر شترويتزر - بلاتر - ١٧٩٧م عن : جاك شورون ، الموت في الفكر الغربي ص ١٤٩ ، ٣١٢ .

٢- كمنط ، تنقيح كتاب هردر أفكار حول فلسفة تاريخ الجنس البشري ، الماني ليطراتور - زايتونج ١٧٨٥م . عن : المصدر السابق ، نفس الموضوع .

٣- هيوم ، عن خلود النفس ، المقال الأول في كتاب «مقالات غير منشورة» راجع بصفة خاصة ص ٤٠١ - ٤٠٦ .

4- kant, Critique of pure Reason, P . 468 .

فى حياة مستقبلية فلا يمكن أن يعتقد المرء بأن الطبيعة لابد قد منحت عقلنا الدأب الذى لا يعرف السكينة للبحث عن مثل هذا الطريق « إذا لم يكن هناك قبل هذا » الطريق المؤكد ذلك أن « الطبيعة لا يمكن أن تواصل تضليلنا بعود خادعة ثم تغدر بنا فى النهاية » . (١)

هنا نكون قد وصلنا إلى مفترق الطرق بين هيوم وكنط ، فإذا كان الاثنان قد اتفقا على إثبات عدم قدرة العقل على إثبات قضايا نظرية تطمح إلى تعيين طبيعة النفس ، وقاما بتفنيد كل الأدلة النظرية المحضة على جوهرية النفس وبساطتها وخلودها وذلك بسبب عدم وجود حدس دائم أو تجربة ضرورية تثبت مثل تلك القضايا ، ومن ثم فقد انتهى الاثنان إلى أن مسألة خلود النفس تمثل اشكالا لا يجد حله فى المعرفة النظرية - أقول إذا كان الاثنان قد سارا فى طريق واحد حتى الآن فإن كنط لم يتوقف عند المرحلة التى توقف عندها هيوم ، بل اتبع السبل وتشعب به الطريق ، فتفرق به عن سبيل هيوم حيث بحث عن حل لتلك الاشكالية فى مجال آخر - غير مجال العقل النظرى - هو مجال الاخلاق والغائية ، فوجد أن الانسان « يستشعر نداء داخليا لإعداد نفسه من خلال سلوكه فى هذا العالم وعبر التضحية بالعديد من مزاياه ليكون مواطنا فى عالم أفضل يحلق إليه بفكره وهذا البرهان القوى الذى لا يمكن تفنيده تدعمه معرفتنا المتزايدة دائما بوجود هدف فى كل ما نراه حولنا ، كما يدعمه تأمل عظمة الخلق وكذلك الوعى بلا محدودية الامتداد الممكن لمعرفتنا والكفاح المعادل لها » . (٢)

فمع أن كنط يرى وجوب « أن نطرح جانبا الأمل فى أننا من خلال المعرفة النظرية المحضة بذواتنا يمكن أن ندرك الاستمرار الضرورى لوجودنا » ، (٣) فإنه يؤكد إيمانه بالله والآخرة فيقول: « إننى أؤمن حتما

1- kant, Critique of pure Reason, Tran. by Lewiss white Beck, P., 247 - 8 .

2- kant, Critique of pure Reason , P. 246 .

3- Idem .

بوجود إله وحياة مستقبلية وإننى لعلّى يقين من أنه ليس هناك ما يمكن أن يهز هذا الإيمان ^(١) . لكنه يعود فيؤكد أن الإيمان بوجود حياة مستقبلية : « ليس يقينا منطقيا ، وإنما هو يقين أخلاقي » ^(٢) .

وقد نظر كُنت إلى الخلود فى كتابه «نقد العقل المحض» بوصفه شرطا ضروريا للعقل العملى «فالسعادة والفضيلة لا تتطابقان فى هذه الحياة الدنيا وذلك على الرغم من أن العقل يتطلب ضرورة تطابقهما ، فمع أنه يمكن تحقيق السعادة فى هذا العالم إلا أن الفضيلة لا يمكن تحقيقها بصورة حقيقية إلا إذ ما كان هناك تقدم لامتناه فحسب ، ومن ثم يلزم أن تكون هناك حياة مستقبلية .

لكن هذه الحجة تختلف - كما يشير جاك شورون ^(٣) - فى «نقد العقل العملى» إلى حد ما ، حيث ينصب قدر أكبر من التأكيد على الأخلاق ، فالقانون الأخلاقى يطالبنا بالكمال ، ويقول كُنت إن الالتزام لا يكون صحيحا إلا إذا كان من الممكن الوفاء به :

« إن تحقيق الخير الأسمى فى العالم هو هدف ضرورى لإرادة يمكن أن يحددها القانون الأخلاقى غير أنه فى مثل هذه الإرادة يعد الملاءمة الكاملة بين النوايا والقانون الأخلاقى الوضع الأرفع للخير الأسمى . ومن ثم فإن هذه الملاءمة ينبغى أن تكون ممكنة شأن هدفها لأنها متضمنة فى الأمر الذى يقتضينا بالسعى وراء هذا الهدف » ^(٤) .

ولا يمكن أن يلبي الموجود الحسى المتناهى مطلب القانون الأخلاقى إلا إذا كان التقدم اللانهائى من المستويات الدنيا إلى المستويات العليا من الكمال الأخلاقى أمرا ممكنا ، والتقدم اللامتناهى ممكن فقط إذا كان وجودنا لا متناهيا ، أى إذا كانت أنفسنا خالدة ، يقول كُنت :

1- kant, critique of pure Reason, Tran by white Beck, P. 650 .

2- Idem .

٣- جاك شورون ، الموت فى الفكر الغربى ، ص ١٥٦ .

4- kant, critipue of practical Reason, p. 225 .

قارن : جاك شورون ، الموضع السابق .

« وهكذا فإن الخير الأسمى هو أمر ممكن عمليا فحسب إذا افترضنا خلود النفس ، وهذا الأخير بحكم كونه مرتبطا على نحو لا فكاك منه بالقانون الأخلاقي هو شرط ضروري للعقل العملي المحض ... وأعني بشرط ضروري للعقل العملي المحض قضية نظرية لا يمكن بما هي كذلك البرهنة عليها وإن كانت نتيجة لازمة لقانون عملي سليم قبلي على نحو مطلق » .^(١)

* مشكلة النقائض بين كمنط وهيوم :

ربما تكون فكرة النقائض أشهر أفكار كمنط على الإطلاق . ونظرا لأنها معروفة تماما على الأقل للمختصين ، فإن الأمر يقتضى منا عدم الدخول في تفاصيلها الدقيقة والاكتفاء فقط بالإشارة الى أهم معالمها عند كمنط ، وذلك كتمهيد ننطلق منه إلى إثبات أن هذه الفكرة إنما هي من الأفكار الهيومية الأصيلة التي استند إليها هيوم في تحديد موقفه من عالم الشيء في ذاته . وكل ما فعله كمنط هو أنه قد تمكن من عرضها ببراعة عرضا فلسفيا جذابا ومتميزا جعل الكثيرين ينسون جذورها في فلسفة هيوم ، بل عند بعض الفلاسفة القدماء . ومع ذلك فقد كان ولا يزال عرض كمنط لهذه النقائض « من أعظم ما أنجزت الفلسفة النقدية » .^(٢)

ولعل أهمية هيوم^(٣) بالنسبة للنقائض الكمنطية تظهر منذ اللحظة الأولى التي يتحدث فيها كمنط عن فكرة النقائض في كتابه « المقدمات لكل ميتافيزيقا مقبلة » حيث يقول :

1- Ibid ., P. 226 .

٢- هيغل ، موسوعة العلوم الفلسفية ، ص ١٦٦ .

٣- تجدر الإشارة إلى أن ما يهمنا في هذه المرحلة من البحث هو إثبات وجود فكرة التناقض الكمنطية عند هيوم . أما متى وكيف تأثر كمنط بفكرة التناقض كما قدمها هيوم ، فهذا ماسأناقشه - علي التوالي - في الفصلين الرابع والخامس . ومن هنا فإن حديثنا في هذا الفصل عن النقائض ليس هو كل ما في جعبتنا وإنما بعضه فقط .

« إن تناقض العقل المحض يفيد كعامل قوى جدا في إيقاف الفلسفة من سباتها الدوجماتيقي ، وينبئها إلى العمل الشاق المنوط بها في القيام بالامتحان النقدي للعقل نفسه » . (١)

ويشير كنت - في خطاب متأخر جدا إلى جارفي - إلى أنه استغل تناقض العقل مع نفسه استغلالا جيدا في تكوين الفلسفة النقدية ، يقول :

« إن تناقض العقل المحض .. هو أول شيء أيقظني من سباتي الدوجماتيقي وقادني إلى نقد العقل ذاته لكي أحل فضيحة التناقض الصوري للعقل مع ذاته » . (٢)

إن أهمية هيوم بالنسبة للنقائض تظهر بوضوح في ضوء هذين النصين إذا ما تذكرنا اعتراف كنت في مطلع «المقدمات» بأن : « تنبيه ديفيد هيوم هو الذي أيقظه من سباته الدوجماتيقي منذ عدة سنوات مضت ووجه بحوثه في حقل الفلسفة التأميلية وجهة جديدة تماما » . (٣)

ولا ريب أنه إذا كان هيوم الذي أيقظ كنت من سباته الدوجماتيقي فلا بد أن يكون له علاقة بفكرة النقائض التي يقول عنها كنت نفسه إنها « أول شيء أيقظه من سباته الدوجماتيقي » « وأنها تفيد كعامل قوى جدا في إيقاف الفلسفة من سباتها الدوجماتيقي » .

تلكم كانت الدعوى وفيما يلي الإثبات . ولنبدأ بعرض وجهة نظر كنت في الموضوع .

يرى كنت أن فكرة النقائض تنشأ عندما يتوسع العقل في علاقة المشروط بالشرط (سواء كانت رياضية أو دينامية) إلى حد لا تصل إليه التجربة أبدا ، وبالتالي فهي فكرة لا يمكن أن يكون موضوعها معطى لنا بصورة مطابقة

1- kant, prolegomena , ed. Beck, P. 86 .

قارن الترجمة العربية ص ١٦٢ ، حيث يوجد اختلاف بينها وبين الترجمة الانجليزية المذكورة .

2- kant, correspondence, p. 252 .

3- kant, prolegomena To any Future Metaphysics, ed., Beck, P.8.

فى أية تجربة . وليست النقائض من نسج الخيال ، وإنما هى قائمة أساسا فى طبيعة العقل الإنسانى . ومن هنا فلا مفر منها ولا يمكن وضع حد لها .

وعدد هذه النقائض أربع بعدد أصناف المقولات ^(١) ، أى من حيث الكم والكيف ، والجهة ، والإضافة . وقد أشار بايلسن Paulsen فى كتابه « كنط : حياته ومذهبه » إلى أن تاريخ الفلسفة يتوزع بين اتجاهين ، أحدهما : دوجماتيقى لاهوتى يبنى إثبات القضايا الأربع ، ولانيهما : الاتجاه التجريبي يبنى نقائض القضايا ^(٢) . ويصبح هذا الاتجاه التجريبي نفسه دوجماتيقيا عندما ينفى هذه القضايا حيث أنه يمد منطق التجربة إلى خارج حدود التجربة . ومن ثم فإن الاتجاهين يفشلان فى إنقاذ العقل من تناقضاته .

ويزعم كنط أن نقده قادر على بيان تلك النقائض والكشف عن أصلها فى العقل ، كالآتى :

النقيضة الأولى : تتألف من :

القضية : العالم له بداية (نهاية) من حيث الزمان والمكان . نقيض القضية : العالم لا متناه من حيث الزمان والمكان .

ويثبت العقل القضية بواسطة برهان الخلف ، فإذا سلمنا بأن العالم ليس له بداية فى الزمان ، فسيمتنع علينا فهم الحالة الراهنة ، كيف تم عبور اللامتناهى للوصول إلى الآن . إذن القول بأن ليس للعالم بداية فى الزمان ولا فى المكان قول محال . كما يستخدم العقل برهان الخلف فى إثبات نقيض القضية ، فإذا سلمنا بأن للعالم بداية فى الزمان فمعناه أن وجوده قد سبقه زمن فارغ ، ولن نجد فى أجزاء هذا الفراغ ما يوجب وجود العالم فى لحظة معينة دون سواها ، فيمتنع بالتالى أن يكون للعالم بداية فى الزمان . إذن ليس للعالم بداية فى الزمان ومثله فى المكان ^(٣) .

1- kant, prolegomena, pp. 133 - 4 .

2- Paulsen, kant : his life and doctrine, trans. by crerighton & Albert Lefevre (New York, 1963) , p. 213 .

3- kant, critique of pure Reason, pp. 260 - 1 .

وبلاحظ اوينج Ewing في كتابه «تعليق قصير على نقد العقل المحض» أن برهنة كنت على القضية ونقيضها مبنية على فرض جوهرى هو أن الزمان والمكان لانهائيان ، إذ أن المشكلة تتمثل فى التساؤل عما إذا كان العالم محدودا فيهما أم لا .^(١) وهذا يدل على أن كنت يستخدم المكان اللانهائى هنا بالمعنى النيوتونى الواقعى لا بالمعنى الكنتى الذى يعتبر أن المكان اللانهائى مجرد تجريد ، ومثله الزمان .^(٢)

فنيوتن - كما يقول جوتفريد مارتين G. Martin - يعتقد بوجود عالم نهائى داخل مكان لا نهائى فى ذاته^(٣) ، كما أنه يتصور الزمان ذاته لا نهائيا .^(٤)

أما النقيضة الثانية : فتكون من :

القضية : يتركب كل جوهر من أجزاء بسيطة ، ولا يوجد فى العالم إلا البسيط والمركب من البسيط .

نقيض القضية : لا يوجد شئ بسيط فى العالم ، إنما الكل مركب .

والبرهنة على القضية كالآتى : لو سلمنا بأن الجوهر المركب لا يتركب من أجزاء بسيطة ، لاستطعنا إعدام المركب بنزع التركيب عنه فكريا أى بتحليله ، لذا لا بد من أن يقف التحليل عند حد ، وهذا الحد هو البسيط . أما إثبات نقيض القضية فهو : كل جوهر يوجد بالضرورة فى المكان ، وكذلك كل جزء من أجزائه ، وهذه الأجزاء قابلة للقسمة بالضرورة مثل المكان الذى تشغله ، فهى إذن ليست بسيطة . إذن لا يوجد شئ بسيط .^(٥)

1- Ewing, A Short Commentary on Kant's Critique of pure Reason, (London, Methuen, 1962), P. 211 .

٢- محمود زيدان ، كنت وفلسفته النظرية ، ص ٢٩٩ .

3- Martin, Kant's Metaphysics and the Theory of Science, An English trans. by Lucas, p. G. (Manchester Univ., Press., 1961), P. 44 .

4- Ibid., p 47 .

5- Kant, Critique of pure Reason, PP. 264 - 6 .

والنقيضة الثالثة : تتألف من :

قضية : ليست العلية المطابقة لقوانين الطبيعة هي الوحيدة التي يمكن أن تشتق منها كل ظواهر العالم ، بل لابد من التسليم بوجود علية حرة من أجل تفسيرها .

ونقيض القضية : لا توجد حرية ، وكل ما يحدث في العالم إنما يحدث وفقاً لقوانين الطبيعة .

والبرهنة على القضية هي : لو سلمنا بأن لا سببية إلا تلك التي تحتم حدوث حال من حال سابقة بموجب قاعدة لا اضطررنا إلى التسليم بأن كل حالة سابقة تحتم أخرى سابقة تحتم بدورها أسبق منها ، وهكذا إلى ما لا نهاية . وبالتالي لا نصل إلى تعيين تام يقتضيه القانون الطبيعي . ولابد إذن من أجل انطباق هذا القانون ، ان تكون سلسلة العلل تامة منتهية ، وإن يبدأ بعلة ليست في حاجة إلى أى تعيين سابق ، أى علة حرة . أما البرهنة على نقيضها : لو سلمنا بوجود حرية قادرة على أن تبدأ من تلقاء ذاتها سلسلة من الأفعال أو الظواهر المتعينة سببياً ، فسنكون أمام احتمالين : إما أن تكون الحرية متعينة لبدء هذه السلسلة ، وهذا ما يدخل الحرية في التناقض ، وإما ألا يكون ثمة تعيين ضرورى ، فلا يكون تعيين سببى ، وبالتالي لا ضرورة في قوانين الطبيعة . يبقى إذن أن لا حرية تكون علة لما يحدث في الطبيعة ، وكل ما يحدث فيها إنما يكون وفقاً للسببية الطبيعية .^(١)

والنقيضة الرابعة : عبارة عن :

قضية : يتطلب العالم وجود كائن كلى الضرورة ، بوصفه جزءاً منه أو علة له .

نقيضها : لا يوجد أى كائن كلى الضرورة لا في العالم ولا خارج العالم بوصفه علة للعالم .

1- Copleston, History of Philosophy, Vol., VI, PP. 289 - 292 .

ولإثبات القضية : لو لم يكن فى العالم شىء كلى الضرورة ، لاستحال تفسير التغير نفسه ، مادام كل تغير إنما هو النتيجة الضرورية المترتبة على بعض الشروط ، وبالتالى فإنه يفترض سلسلة كاملة من الشروط حتى نصل إلى اللامشروط المطلق الذى هو وحده الضرورى أو واجب الوجود . ولا بد أن يكون هذا الوجود الضرورى من العالم المحسوس لأنه لو افترضنا أن الضرورى يقوم خارج العالم لاضطررنا إلى الإقرار بأن سلسلة تغيرات العالم تبدأ منه دون أن يكون هو منتميا إلى العالم . وهذا ممتنع لأن بدء السلسلة لا يمكن أن يتعين إلا بما يسبقه فى الزمان ، إذ أن الشرط الأسمى لبدء سلسلة من التغيرات يجب أن يوجد فى الزمان حيث لم تكن تلك السلسلة قد وجدت بعد لأن البدء هو وجود يسبقه زمان لم يكن فيه الشىء ، الذى بدأ ، قد وجد بعد . فسببية السبب الضرورى للتغيرات ، وبالتالى السبب نفسه ، ينتمى إذن إلى الزمان وبالتالى إلى الظاهرة . إذن ثمة فى العالم نفسه شىء ضرورى ضرورة مطلقة هو جزء من السلسلة أو هو السلسلة بأسرها .

أما البرهنة على نقيض هذه القضية فهو : لو سلمنا بأن العالم نفسه هو الكائن الضرورى ، أو أن فيه كائنا ضروريا ، لا اضطررنا إما إلى الإقرار بأن ثمة بدءا فى سلسلة التغيرات كلى الضرورة ولا سبب له بالتالى وهذا قانون تعين جميع الظاهرات فى الزمان . وإما إلى الإقرار بأن السلسلة ككل هى كلية الضرورة رغم أنها عرضية ومشروطة فى كل أجزائها وهذا ما يتناقض بنفسه . ولو سلمنا من ناحية أخرى بأن ثمة علة للعالم كلية الضرورة خارج العالم ، لاضطررنا إلى التسليم بأن على هذه العلة أن تبدأ فعلها ، مما يعنى أن على سببيتها أن تكون جزءا من الزمان ، وبالتالى من العالم ، وهذا ما يناقض وجود العلة خارج العالم . يبقى إذن أن ليس قمة فى العالم من كائن كلى الضرورة ، ولا خارج العالم من حيث هو مرتبط به ارتباطا عليا . (١)

1- kant, critique of pure Reason, pp. 275 - 7 .

- Copleston, History of philosophy, Vol., VI., pp. 292 - 3 .

وكما يقول كورنر S. Korner متابعا كنت فيان « كل واحدة من

هذه القضايا المتعارضة **Conflicting Propositions** يمكن أن توجد بين الادعاءات الرئيسية عند واحد أو أكثر من المذاهب الميتافيزيقية فالنقيضة الأولى تتصل اتصالا وثيقا بأية نظرية ميتافيزيقية تؤكد أو تنكر - بشكل صريح أو ضمنى - أن العالم قد خلق فى لحظة من الزمن ، وتتصل النقيضة الثانية بأية نظرية ميتافيزيقية تؤكد أو تنكر وجود الذرات أو المونادات **atoms or monads** من أى نوع . أما الثالثة فهى تقابل بين الحتمية واللاحتمية ، وهكذا تقابل بشكل غير مباشر - كما يعتقد كنت - بين العلم الطبيعى وأساس الأخلاق . وتعتبر النقيضة الرابعة عن التعارض بين النظريات الميتافيزيقية التى تحاول أن تثبت أو التى تحاول أن تفند وجود الله من مقدمات من العالم .^(١)

إن هذا التناقض الأصيل الذى يكمن فى طبيعة العقل ، يمكن حله عن طريق النقد ، فكل نقائص العقل تقوم أصلا على دليل جدلى ، هو :

عندما يكون المشروط معطى فإن السلسلة الكاملة لجميع الشروط تكون معطاة

والحال أن موضوعات الحس معطاة بوصفها مشروطة

∴ سلسلة شروط موضوعات الحس معطاة كلها .^(٢)

وهذا الدليل ليس سوى قياس فاسد ، لأنه يتضمن أربعة حدود : ففى المقدمة الكبرى الموضوع (= المشروط) مأخوذ باعتباره موضوعا معقولا مستقلا عن شروط الحساسية أو الحدس . وهذا هو الحال فى كل القضايا . لكن فى المقدمة الصغرى يعنى «المشروط» العالم الظاهرى المحسوس ، وهذا هو الحال نقائص القضايا . فبأى حق نستدل بحد أوسط ذى معنيين وننتقل من الظاهرة إلى الشئ فى ذاته ؟

1- korner, kant (England, Penguin Books, 1984), p. 115 .

2- kant, critique of pure Reason, p. 299 .

ولقد أدى غياب هذا النقد إلى وقوع العقل المحض فى النقائض وحتى يمكن حل هذه النقائض لابد من التمييز بين نوعين منها :

النقائض الرياضية:

وتشمل الأولى والثانية ، وكل منهما تقدم قضيتين متناقضتين كلاهما خاطئة ، لأنها تقوم أصلا على مفهوم متناقض فى ذاته وهو : العالم فى ذاته فى الزمان والمكان . وهو تأليف متناقض فى ذاته لأن التأليف الرياضى يقوم على جمع المجانس إلى المجانس . فعندما يتحدث المرء عن الموضوعات التى فى زمان ومكان فإنه لا يتحدث أصلا عن أشياء فى ذاتها لانه يجهل كل شىء عنها ، ولا يمكن أن يقول عن الشىء الذى يتصوره فى مكان أو زمان أنه موجود فى ذاته خارج عن فكرة فى المكان والزمان ، لأنه عندئذ إنما يناقض نفسه لأن المكان والزمان والظواهر التى يحتويانها ليست أشياء فى ذاتها وخارجة عن التمثيلات ، إنما هى فقط جهات للتمثيل . وأنه لمن التناقض الواضح القول بأن جهة التمثيل لها وجود أيضا خارج عن التمثيل إذن فموضوعات الحس لا توجد إلا فى التجربة ، إما أن تنسب اليها وجودا مستقلا أو سابقا على التجربة ، وجودا يقوم بذاته ، فكأننا نتوهم أن التجربة حاصلة بغير تجربة أو قبل التجربة ، وإذا ما حاول المرء أن يعرف بنفسه عظم العالم فى المكان والزمان ، فلا يمكن أن يجد فى تصورات ما يدل على أنه متناه أو غير متناه ، لأن التجربة لا تشمل الحكم الأول أو بديله ، إذ ليست عندنا تجربة عن المكان اللامتناهى أو عن زمان تستمر مدته إلى ما لا نهاية ، ولا عن تحديد نهاية العالم بمكان خال أو زمان خال . ومن ثم فإن هذا العظم الذى يتعين بطريقة أو بأخرى ينبغى أن يوجد فى ذاته مستقلا عن كل تجربة ، مما يتناقض مع تصور العالم المحسوس بوصفه مجموع الظواهر التى يكون وجودها وارتباطها حاصلين فى التمثيل أى فى التجربة لأنه ليس شيئا فى ذاته ، بل مجرد جهة للتمثيل .

ونتيجة لذلك أن تصور عالم محسوس موجود فى ذاته هو تصور متناقض

فى ذاته ، وسيفل حل المسألة المتعلقة بعظم العالم دائما أهدا حلا بعيدا عن الصواب سواء كان مارجبا أو سالبا . وكذلك الحال فيما يتعلق بالنقيضة الثانية . (١)

هذا عن النوع الأول من النقائض ، أما النوع الثانى فهو :

النقائض الدينامية :

وهى الثالثة والرابعة ، وهما تقدمان قضيتين متناقضتين يمكن أن تكونا صادقتين معا ، لأنهما تقومان على قصور فى التمييز بين الممكنات : إن ربط السبب بالنتيجة ليس بالضرورة ربطا للمتجانس ، بل قد يكون ربطا للمتغاير . فلو ميزنا بين السببية الطبيعية فى الظاهرات (حيث يوجد التعاقب الحتمى حسب التسلسل الزمنى ، وحيث لا يوجد بالتالى أى حرية حرة) ، وبين الحرية الحرة فى النومينا (حيث يمكن أن تكون حرية تعيين وبالتالى علة تحدث معلولا بمعزل عن التعاقب الزمنى) - فلو ميزنا مثل هذا التمييز لأمكن إثبات القضيتين معا ، حيث يمكن أن نصف شيئا واحدا بالحرية والطبيعة شرط أن ننظر إليه مرة بوصفه الشيء فى ذاته ، ومرة بوصفه الظاهرة ولن يكون فى ذلك أى تناقض ، إنما أن نكون قد أثبتنا أى معرفة فعلية بهذا الشيء فى ذاته ، بل نكون اكتفينا بالإشارة إليه كإمكان فحسب . ومثل هذا التمييز سيحفظ لنا الحتمية السببية فى الطبيعة دون أن يقفل أمامنا باب الحرية فى عالم النومينا ، لكنه سيمنعنا حتما من إقامة معرفة نظرية (٢) بهذا العالم المحتمل ، يقول كنت :

1- kant, prolegomena, pp. 138 - 9 .

الترجمة العربية ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

١- موسى وهبة «المشكلة الكنتية» ، الفكر العربى ، العدد الثامن والأربعون ، بيروت ١٩٨٧ م ، ص ٢٧ .

أستطيع أن أقول الآن بلا تناقض أن كل أفعال الكائنات العاقلة تخضع
لضرورة الطبيعة بوصفها ظواهر (مجردة في تجربة ما) ، إنما نفس هذه
الأفعال هي بالنسبة إلى الكائن العاقل وبالنسبة إلى الملكة التي تفعل
بمقتضى العقل المجرد أفعالا حرة .^(١)

ويشير بعض الباحثين - مثل سميث A.H. Smith^(٢) وزكريا
إبراهيم^(٣) - إلى أن هناك من اعتراض على فكرة كنط عن الحرية ،
بدعوى أنها تمثل قوة صوفية لا معقولة ما دام أنه قد جعلها خارجة عن
الزمان ، وكائنة في عالم أبدى هو عالم المعقولات . وحتى لو تم التسليم مع
كنط بضرورة استبقاء عالم المعقولات ، على الرغم من كل تلك الحملات
العنيفة التي شنّها كنط على «جوهر» الفلاسفة القدماء ، فإننا لسنا ندرى
كيف ألحق كنط الحرية بعالم الحقائق الثابتة غير المندرجة تحت الزمان ،
وهو الذى سبق له أن اعتبر كل ما لدينا من شعور بالذات مشروطا بحدس
الزمان ؟ ألسنا هنا بإزاء مفهوم دخيل على العقل ؟ هذا ما يرد عليه كنط
بقوله أن لدى الإنسان عليّة أخرى مختلفة كل الاختلاف عن العلية
الطبيعية ، وتلك هي العلية الأخلاقية التي تكشف عنها طبيعة الإنسان
العقلية .

*** ** *

نخلص مما سبق الى أن كنط يرى أن النقائض قائمة أساسا في طبيعة
العقل الإنسانى المقيد بعالم الظواهر ، وهي تنشأ عندما يتوسع في علاقة
المشروط بالشرط إلى حد لا تصل إليه التجربة . ومن هنا فإن العقل لا
يمكن أن يكون يقينا فيما يتعلق بعالم الشيء في ذاته ، لأنه لا يملك أية
تجربة عنه وإذا حاول ذلك فإنه يقع في الوهم والخرافة .

1- kant, prolegomena, p. 145 .

الترجمة العربية ، ص ١٧٤ .

2- A.H.Smith , kantian Studies (Oxford, 1947), pp. 136 et seq.

٣- زكريا إبراهيم ، كانت أو الفلسفة النقدية (القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٧٢م) ص ١٢٠ .

وإذا كان الغالب الأعم من الباحثين قد درج على اعتبار فكرة النقائض العقلية اكتشافاً كنطياً فإن القليل منهم قد أشار إلى جذورها في الفكر الفلسفي القديم . لكن لم يشر أحد - فيما أعلم - إلى أن فكرة النقائض فكرة أصيلة في فلسفة هيوم . ومن ثم لم يتنبه الباحثون إلى أهمية هيوم بالنسبة إلى إيقاظ كنط من سباته الدوجماتيقي بواسطة تأكيد على تناقضات العقل الإنساني ، بل أشاروا فقط إلى أن هذا الإيقاظ قد تم عن طريق تأثير كنط بتحليل هيوم للسببية .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الصفحات القليلة القادمة كفيلة بإثبات وجود فكرة النقائض عند هيوم كمرتكز أساسي ترتكز عليه فلسفته فيما يتعلق بما بعد الطبيعة . حيث تؤكد نصوصه لاسيما في المحاورات ، أنه لا يمكن للإنسان أن يتجاوز عالم الخبرة عقلياً ، وهو إذا ما فعل هذا فإنه ينتج من البراهين والأدلة المتعارضة ما يناقض بها نفسه .

وقبل أن نقدم حيثيات هذا التأويل لفلسفة هيوم ، يلزم أن نحدد أولاً الشخصية المعبرة عن آراء هيوم في كتابه «محاورات في الدين الطبيعي» لأن هذا التحديد سيعتبر عليه كثير من الأمور التي تدعم وجهة نظرنا في الموضوع .

يختلف المؤرخون في هذا الصدد ، فمن قائل أنه «كلينثيز» ومن قائل أنه «فيلون» ، لكن الجميع متفقون على أنه ليس واحداً من الشخصيات الأخرى المذكورة في المحاورات .

وإذا أخذ المرء الأشياء بظواهرها - وهذا خطأ - لقال أن كلينثيز هو الشخصية الناطقة باسم هيوم لثلاثة أسباب :

أولها : وصف هيوم في المقدمة لاتجاه كلينثيز بأنه فلسفي دقيق في الوقت الذي يصف فيه شك فيلون بأنه شك لا مبال .^(١)

١- انظر الترجمة العربية للدكتور محمد فتحي (القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٥٦) صـ

ثانيها : المدح شبه المستمر فى كليثيز ، والنقد الساخر لفيلون ودميان .

ثالثها : تصريح هيوم فى نهاية المحاورات بأن مبادئ فيلون أكثر رجحانا من مبادئ دميان ، بينما لا تزال مبادئ كليثيز هى الطريقة الأقرب إلى الحقيقة (١) .

ولعل هذه الأسباب الظاهرية هى التى جعلت كاتباً مرموقاً - وإن كان لم يذكرها - مثل الدكتور زكى نجيب محمود يقول دون أن يقدم أى دليل :

« نرجح بل نكاد نوقن بأنه يجرى آراه على لسان كليثيز الذى يجعل للعقل حق البحث فى خصائص الله ، أما وجود الله فحقيقة لا مندوحة للإنسان عن الاعتراف بها بحكم طبيعته » . (٢)

لكن الفهم الباطنى لطبيعة آراء المتحاورين ، و « تكنيك » النقاش بينهم ، يدل على أن كليثيز ليس هو المتحدث باسم هيوم ، لأن الموازنة بين آراء كليثيز المذكورة فى المحاورات وآراء هيوم التى جاءت فى كتبه الأخرى ، لاسيما « رسالة فى الطبيعة الإنسانية » و « بحث فى الفهم الإنسانى » ، تدل على عدم اتساق بين أفكارهما واتجاهاتهما وروحهما العامة ، كما تدل على أن النتائج التى توصل إليها كليثيز فيما يتعلق باللاهوت الطبيعى تتباين مع النتائج المنطقية لمبادئ هيوم الفلسفية التى ذكرها من قبل فى الرسالة والبحث .

وإذا كان هيوم قد صرح بأن اتجاه كليثيز فلسفى دقيق ، وأن مبادئه هى الطريق الأقرب إلى الحقيقة فإن هذا التصريح كان من تدابير الحيطة التى كانت مألوفة جداً فى القرن الثامن عشر ، حتى يمكنه اتقاء غضب الاتجاهات التعصبية السائدة آنذاك .

١- الترجمة العربية ، ص ١٦١ .

٢- زكى نجيب محمود ، ديفيد هيوم ، ص ١٦٤ .

ومما يؤكد أن كليتيز ليس هو المعبر عن آراء هيوم ، هو أن هيوم نفسه قد جعل النصيب الأعظم من الحوار ، لاسيما في النصف الأخير من المحاورات يأتي على لسان فيلون فضلا عن الكلمة الأخيرة التي اختتم هيوم بها الحوار كانت كلمة مطولة لفيلون ، لها من القوة والحسم ما جعل آراء كليتيز تتراجع أمامها .

ولكن هل هذا يعنى أن فيلون قد قدم آراء اعتقادية بديلة لآراء كليتيز ؟
تظهرنا المحاورات على أنه لم يفعل ذلك ، بل كان يلح فقط على الإشكالات التي تواجه معتقدات كليتيز ، ويكشف النقاب عن نقائصها التي كان لها من القوة البرهانية ما يعادل قوة الأولى . ومن ثم يتجلى صعوبة - إن لم يكن استحالة - الوصول إلى يقين دقيق يتعلق بمثل تلك الموضوعات . وبالتالي يتكشف ضعف الموقف الذي يبنى قصورا ضخمة من المعتقدات على أقدام فخارية .

لكن لا يعنى هذا أن فيلون هو المتحدث باسم هيوم ، رغم أنه أقرب الشخصيات - من حيث تحليل مضمون أفكاره - إلى هيوم ، أقول مع ذلك لا يمكن اعتبار فيلون المعبر عن هيوم لأن هيوم هو محرك الشخصيتين ، بل محرك كل شخصيات المحاورة ويقف وراء كل فكرة من أفكارها .

ويدعم هذا التفسير ذلك النص الحاسم الذي أورده هيوم قرب نهاية المحاورة في أحد الهوامش عندما أشار إلى أن الحوار بين الدوجمائيين والشكاك لا يعدو أن يكون جدلا لا يتم فيه التوصل إلى حكم نهائي ، لأن كل طرف من أطرافه يركز على الجانب الذي يعنيه ، فالشاك فيلون يلح على المشكلات التي تشير الشكوك ، والدوجمائي كليتيز يلح على جوانب الضرورة المطلقة التي تؤدي إلى الاعتقاد :

« يبدو واضحا أن الجدل بين الشكاك والدوجمائيين جدال لفظي تماما أو هو على الأقل معنى فقط بدرجات الشك واليقين التي ينبغي لنا أن نعتصم بها في كل برهنة ومثل هذه المجادلات هي بشكل عام لفظية في

حقيقتها ولا تقدم أى تحديد دقيق . فلا يوجد أى فيلسوف دوجماتيقي ينكر وجود إشكالات تتصل بالحواس والعلم معا وأن هذه الإشكالات لا تخل على الإطلاق بمنهج منطقي متسق . ولا يوجد أى شاك ينكر أننا نقع تحت ضرورة مطلقة - بصرف النظر عن هذه الإشكالات - فى التفكير والاعتقاد والبرهنة فيما يتصل بجميع أنواع الموضوعات ، بل وفى الموافقة أحيانا فى ثقة وضمان . ومن ثم فالخلاف الوحيد بين هاتين الشيعتين - إذا استحقت كل منهما هذا الاسم - هو أن الشاك يلح - عن عادة وهوى ، أو ميل - أعظم إلحاح على الإشكالات ، ويلح الدوجماتيقي لأسباب مماثلة على الضرورة ^(١) .

ومن هنا نعرف لماذا وكيف يقدم الدوجماتيقي الأدلة على آرائه فيما يتعلق بعالم الشيء فى ذاته ، ثم يأتى الشاك ليفند تلك الآراء ويبرهن على نقائصها .

ولا أظن أن احدا يختلف معى فى أن هذا النص يوحى على نحو واضح ومباشر بفكرة النقائض .

*** ** *

ولعلنا بوصولنا إلى هذه المرحلة من التدليل على أن هيوم هو الذى يقف وراء كل الشخصيات المتعارضة فى المحاورات ، نكون قد وصلنا منطقيا إلى فكرة النقائض الكنطية . فهيوم يستخدم فكرة النقائض استخداما واسع النطاق فى «محاورات فى الدين الطبيعي» لكى يصدع إمكانية معرفة العقل نظريا لطبيعة الله ونواميسه ، فالعقل الإنسانى إذا ما استخدم استخداما نظريا محضا فإنه يستطيع أن يقدم أزواجا متناقضة من البراهين يدلل بها على القضية

1- Ibid., p . 113 .

ونقيضها ، ومن ثم فإنه لا يستطيع الوصول إلى يقين نهائى فيما يتعلق بما بعد الطبيعة ، يقول هيوم :

« لما وجدت نقائص العقل الإنسانى بل ونقائضه فى موضوعات أخرى متنوعة جدا وأكثر ألفة فإنى لا أتوقع أبدا أى نجاح لتخميناته الضعيفة فى موضوع بالغ السمو والبعد عن مجال ملاحظتنا » .^(١)

فالعقل الإنسانى إذا « ما نظر إليه نظرة مجردة ، فإنه ينتج من البراهين القوية ما يناقض بها نفسه . وإننا لا نستطيع البتة أن نحتفظ باقتناع أو استيثاق ما فى موضوع ما لم تكن الاستدلالات الشكية بالغة فى دقتها ورقتها حتى لتعجز أن تعدل الحجج المستمدة من الحواس والتجربة وهى حجج أصلب عودا وأقرب إلى الطبيعة . ولكن من الجلى أنه حيثما تفقد حججنا هذه الميزة وتبعد عن الحياة العامة فإنه يتعادل معها أصفى شك ويكون فى وسعه أن يواجهها ويعد لها ولن يكون لواحد منها وزن أكبر من الآخر » .^(٢)

نلاحظ هنا أن فكرة النقائص مطروحة عند هيوم بشكل واضح ، لدرجة تجعل المرء يقرر فى اطمئنان أنه يعتبرها أحد المرتكزات الأساسية التى ينطلق منها نحو تأكيد موقفه من الموضوعات الميتافيزيقية . ومع ذلك لم يلتفت أحد من المحللين إلى وجودها عنده على هذا النحو .

ولم تأت هذه الفكرة عند هيوم على نحو عابر ، بل إنه كان يعنى تماما ما يقول ، إذ أوردها فى غير موضع من المحاورات ، وكان يؤكد عليها تأكيدا يصل أحيانا إلى حد الإلحاح لكى يدعم وجهة نظره ويبرهن على حدسه الفلسفى الرئيسى ، الذى يتمثل فى عدم إمكانية حسم المسائل المتعلقة بطبيعة الله وصفاته عن طريق العقل المحض .

1- Hume, Dialogues Concerning Natural Religion, pp., 29 - 30 .

قارن الترجمة العربية ، ص ٤٤ .

2- Ibid ., p. 13 .

قارن الترجمة العربية ، ص ٢٣ .

يؤكد هذه الوجهة من النظر أن هيوم منذ السطور الأولى من المحاورات ،
وعلى وجه التحديد فى مقدمتها يقول عن صفات الله وقوانينه وأسلوبه فى
العناية :

« إن أدق أبحاثنا حولها ليس لها نتيجة إلا الشك وعدم اليقين
والتناقض » . (١)

وفى موضع آخر فى بداية الفصل الأول يتحدث عن : « النقااض التى
تلتصق بأفكار المادة ، بالعلة والمعلول ، بالامتداد ، بالمكان والزمان ، بالحركة
... » . (٢)

وربما يكون فى استخدام هيوم لأسلوب الحوار ، ما يوحى مباشرة بفكرة
النقااض ، فها هو ذا يقدم الرأى ثم ينقضه ، ليبين استحالة وصول العقل
إلى يقين فيما يتعلق بعالم الشئ فى ذاته .

ولقد كان هيوم على وعى بأن أسلوب الحوار فى التأليف هو الأسلوب
الأمثل عندما يتعلق الأمر بدراسة موضوعات لا يمكن التوصل فيها إلى قرار
مؤكد ، لأن بحثها دائما يودى إلى آراء متعادلة من حيث القوة ، فيقول :

« إذا قدر لمسألة من مسائل الفلسفة التى تبلغ درجة من الغموض وعدم
اليقين لا يمكن معها العقل الإنسانى أن يتوصل إلى حكم نهائى - إذا قدر
لها أن تدرس على الإطلاق ، فيبدو أنها ستقودنا بشكل طبيعى إلى أسلوب
الحوار والمحادثة » . (٣)

*** ** *

1- Ibid., p. 5.

2- Ibid., p. 8 .

3- Ibid., p. 4 .

قارن الترجمة العربية ، ص ١٢

قارن الترجمة العربية ، ص ١٦ .

الترجمة العربية ، ص ١١ .

وإذا كان كمنط قد أكد أن التناقض صفة أصيلة في طبيعة العقل الإنساني وأنه لا يوجد في الموضوع في ذاته ولذاته أى ماهيته الخاصة - حسب تعبير هيغل - وإنما يلحق بالعقل الذى يحاول فهم هذا الموضوع فحسب ، وإذا كان هيغل قد اعتبر أن دخول التناقض عالم العقل عن طريق المقولات « أمر ضرورى وجوهري ، وهو يمثل خطوة من أعظم الخطوات أهمية في تقدم الفلسفة الحديثة » .^(١) ، أقول إنه إذا كان الأمر على هذا النحو من نسب فضل اكتشاف التناقض كصفة أصيلة في العقل إلى كمنط ، فإن هذا الوضع ينبغي إعادة النظر فيه لأن هيوم هو صاحب الفضل الحقيقي في ذلك الاكتشاف ، حيث بين في نصوص باللغة الواضحة التناقض الذاتى الذى يقع داخل العقل عندما يسعى لمعرفة المبدأ النهائى ، يقول هيوم :

« إننا إذا ما رغبتنا في معرفة المبدأ النهائى والمؤثر ، كشيء ما ، يستقر في الموضوع الخارجى ، فأننا إما أن تناقض أنفسنا ، أو نتحدث حديثا خاليا من المعنى » .^(٢)

وليس المسئول عند هيوم عن الوقوع في التناقض أو الحديث بلا معنى ، هو الفهم وحده ، وإنما أيضا مبدأ الخيال الأساسى ، إذ أنه يقودنا كذلك إلى الخطأ عندما نتبعه ضمنا (كما ينبغي أن يكون ، فهذا المبدأ يجعلنا نستدل على الأسباب من المسببات ويقنعنا باستمرار الوجود الخارجى للأشياء عندما تغيب عن حواسنا . ومع أن هاتين العمليتين ، على حد سواء طبيعيتان وضروريتان في العقل الإنسانى إلا أنهما تبدوان في بعض الحالات متناقضتين بشكل مباشر ، فليس من الممكن لنا أن نستدل ، بشكل دقيق ومنتظم ، على الأسباب من المسببات ، وفي نفس الوقت نعتقد استمرار وجود المادة عندما تغيب عن حواسنا ، فكيف إذن سنسلم بهذين المبدئين معا .^(٣)

١- هيغل ، موسوعة العلوم الفلسفية ، ص ١٦٢ .

2- Hume, A Treatis, pp., 266 F.

3- Ibid ., pp . 265 F.

وإذا كان التناقض يعرف على أنه تناقض بين مبدئين أساسيين فى العقل الإنسانى إذن فإن هذه الفقرة تحتوى بوضوح على فكرة التناقض بوصفها سمة داخل العقل الإنسانى ، فمبادئ هذا العقل التى نشق فيها تقودنا « للوقوع فى تناقض واضح » ، وكل من الخيال والفهم يفتقد « لأية درجة من درجات الثبات والاقتناع » .

إذن فوجود بعد جدلى لفلسفة هيوم أمر قد غدا من الوضوح بمكان . ومن هنا فإن تناقض العقل المحض عند كنط إنما يترد إلى تناقض الفهم والخيال عند هيوم ، وبالتالي فإن هيوم وليس كنط - خلافا لهيجل - هو صاحب خطوة من أعظم الخطوات أهمية فى الفلسفة الحديثة .

*** ** *

* مشكلة وجود الله وطبيعته بين كنط وهيوم :

أزعم أن كنط لم يتجاوز هيوم فى نقده لكل الفلسفات الإلهية القائمة على العقل المحض . فإذا كان كنط قد أبان امتناع الدليل الانطولوجى والكسمولوجى واللاهوتى الطبيعى على وجود الله ، فإن هيوم قد فند من قبل جميع براهين العقل المحض القبلى والبعدي على وجود الله . وإذا كان كنط قد رأى أنه لا يمكن أن تقوم الإلهيات إلا على أساس أخلاقى غائى ، فإن هيوم قد قال بأن وجود الله هو أساس جميع آمالنا ، وأقوى أساس للأخلاق ، وأوطد سند للمجتمع . وإذا كان كنط قد اعتبر الله المثل الأعلى للعقل ، فإن هيوم سبق له التأكيد على أن مبدأ الألوهية هو المبدأ الوحيد الذى لا يغيب فى أى وقت عن أفكارنا وتأملاتنا . وإذا كان كنط قد انتهى إلى استحالة قيام معرفة نظرية عن طبيعة الله ، لأنه لا يوجد لدينا أية تجربة عنها ، ولأن العقل إذا ما تجاوز نطاق التجربة سقط فى التناقض ، فإن هيوم قد انتهى من قبل إلى ذات النتيجة .

هذا زعمنا وهاكم الدليل عليه من واقع نصوص كنت وهيوم .

يوجد نص فى نقد العقل المحض يلخص تقريبا كل وجهة نظر كنت فى الموضوع يقول :

« والحال ، أنى أزعـم أن كل محاولات استخدام العقل استخداما تأمليا محضا فى مجال الإلهيات ، إنما هى محاولات عقيمة تماما ، وباطلة بموجب قوامها الداخلى ولا طائل من ورائها . ومن جهة أخرى ، أن مبادئ استعماله الطبيعى لا تؤدى إلى أى إلهيات ، وأنه بالتالى إذا لم تتخذ القوانين الخلقية كأساس ، أو إذا لم نستخدمها كمرشد ، فانه لا يمكن أن يكون هناك أى إلهيات للعقل . ذلك أن كل مبادئ الفهم التأليفية هى ذات استعمال محايت ، فى حين أن معرفة كائن اسمى تستلزم استعمالا مفارقا ليس فهمنا معدا له . وحتى يمكن لقانون السببية الذى يصدق تجريبيا أن يؤدى إلى الكائن الأول ، يجب أن ينتمى هذا الكائن إلى سلسلة موضوعات التجربة ، لكنه سيكون عندئذ مشروطا بدوره ، شأنه شأن كل الظاهرات . لكن حتى لو سمح لنا بالقفز خارج حدود التجربة بواسطة القانون الدينامى للصلة بين المسببات وأسبابها ، فأى مفهوم يمكن أن تقدمه لنا هذه الطريقة ؟ إنه ليس مفهوما ، وهيئات أن يكون مفهوما عن كائن اسمى ، لأن التجربة لا تقدم لنا قط أكبر المعلولات الممكنة بأسرها (بوصفه شاهدا على علته) . » (١)

ان هذا النص الجامع الهادى ، اذا نظرنا فى ضوئه إلى « محاورات فى الدين الطبيعى » ، فإن من الممكن نصل إلى فهم جديد لهذا الجانب من فلسفة هيوم .

1- kant, critique of pure Reason , p. 370 .

إن الحدس الأساسى الذى يسرى فى كتاب هيوم «محاورات فى الدين الطبيعى» من البداية إلى النهاية ، يتمثل فى أن وجود الله بديهية إنسانية ، وحقيقة واضحة يقينية ، عرفت بها كل العصور بدون استثناء ، وهى أهم موضوع درسه الإنسان على الإطلاق ، ولا أدل على هذا من اجتذاب ذلك الموضوع لكبار العباقرة نحو بحثه ، ومحاولتهم المستمرة لتقديم مزيد من البراهين والتحليلات الفلسفية الجديدة حوله . فوجود الله هو المرتكز المحورى الذى تركز عليه كل الآمال والطموحات الإنسانية ، وهو المستند الراسخ الذى تقوم عليه الأخلاق ، وأساس قيام المجتمعات وتماسكها ، بل إنه المبدأ الأوحد الذى يسيطر على أذهاننا ، وتتمحور حوله كل أفكارنا وخواطرنا .. يقول هيوم :

« ما هى تلك الحقيقة التى تعتبر أكثر وضوحا ويقينا من حقيقة وجود الله ، تلك التى تعرفها أكثر العصور جهالة واجتهدت أدق العبقریات ساعية إلى تقديم أدلة وبراهين جديدة عليها ؟ ما هى تلك الحقيقة التى تعد أكثر أهمية من هذه الحقيقة ، التى هى منطلق جميع آمالنا ، وأقوى أساس للأخلاق ، وأوطد سند للمجتمع ؟ والمبدأ الوحيد الذى لا يغيب فى أى وقت عن أفكارنا وتأملاتنا ؟ » . (١)

وكما هو واضح فى هذا النص فإن هيوم يؤمن بوجود الله على أساس أنه مبدأ راسخ فى عقولنا ، ومثل أعلى لها على حسب تعبير كمنط ، يؤمن به من منطلق كونه لازما لقيام الأخلاق والمجتمع ، وبدونه ستذهب آمال الإنسانية هباء منثورا .

ومن هنا فإن المتحاورين على مختلف مشاربهم لا يشكون فى وجود الله يقول هيوم على لسان دميان مخاطبا كليشيز :

1- Hume, Dialogues concerning Natural Religion , pp . 4 - 5 .

الترجمة العربية ص ١١ - ١٢ .

« لا بد لى من الاعتراف يا كلينثيز بأن شيئاً لا يثير دهشتى بقدر ما يثيرها هذا الضوء الذى عرضت فيه هذا النقاش منذ بدأناه ، فالمستمع إلى حديثك قد يتصور من كل ما ورد فى سياقه أنك إنما تعتقد فى وجود إله وتدافع عن ذلك ضد مغالطات الملحدين والكفار ، وأنتك بهذا قد التزمت أن تكون بطل الدفاع عن هذا المبدأ الذى هو مبدأ للعقيدة بأسرها ، ولكن هذا - فيما أرجو - ليس موضع اختلاف بيننا بأى وجه من الوجوه ، إذ أنى على اعتقاد بأنك لن تجد إنساناً - أعنى إنساناً يتمتع على الأقل بإدراكه الفطرى - قد ساوره الشك جادا فى حقيقة لها كل هذا اليقين والوضوح الذاتى ، فليست المشكلة خاصة بـ وجود الله ... » (١).

ويؤكد هيوم هذا الرأى على لسان فيلون عندما يقول :

« لا جدال فى أنه حين يعالج ذور العقل المتزن هذه الموضوعات ، فيستحيل أن يكون موضع الإشكال هو «وجود» الله ، بل «طبيعته» فحسب ذلك لأن الحقيقة الأولى - كما قد لاحظت فأصبت الملاحظة - واضحة بذاتها وليست مما يجوز فيه اختلاف الرأى ، إذ لا موجود بغير علة ، والعلة الأولى لهذا الكون (مهما تكن) هى ما نسميه بـ (الله) ، ثم تحملنا التقوى على أن نعزو إليه كل ضروب الكمال ، ومن يساوره الشك فى هذه الحقيقة الأساسية يستحق كل عقاب يمكن أن ينزل بالفلاسفة ، وأعنى به أقصى درجات السخرية والازدراء والاستهجان ... » (٢).

إذن فقد أثبت هيوم وجود الله عن طريق العقل العملى (الأخلاق ، الأمل ، المجتمع) ، ولكنه عندما يعرض هذا الموضوع على العقل النظرى يجد أنه « لا يمكنه أن يتوصل بشأنه إلى حكم نهائى » (٣).

1- Ibid ., p. 19 .

2- Ibid., p. 21 .

3- Ibid., p . 4.

الترجمة العربية ، ص ٢١ .

الترجمة العربية ، ص ٢٢ .

قارن الترجمة العربية ص ١١ .

وأنا هنا أتساءل : هل انتهى كنط إلى شيء مخالف لهيوم في هذا الصدد ؟ ألم يكن كنط متابعاً لهيوم عندما قال : « إن العقل لا يستطيع أبداً أن يتوصل إلى معرفة هذا الشيء في ذاته » ^(١) ، وعندما قال : « إن العقل في استخدامه التأمل المحض بعيداً جداً عن بلوغ مقصد بمثل الكبير ، أى وجود كائن أسمى » ^(٢) ، و « إنه إذا لم تتخذ القوانين الخلقية كأساس أو إذا لم نستخدمها كمرشد ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك أى إلهيات للعقل » ^(٣) ، فـ « من الضروري أخلاقياً أن نقر بوجود الله » ^(٤) ؛ « لأن المبادئ العملية لا يمكن أن تتصف بالكلية - التى لا يستطيع العقل أن يتخلى على الإطلاق عنها من أجل غايته الأخلاقية إلا إذا وجدت أمامها مثل هذا المجال الذى يحقق لها الأمل والرجاء الضروريين لها » . ^(٥) ، هذا الذى قاله كنط ألا يتشابه مع ما قاله هيوم من قبل عن حقيقة وجود الله من أنها « هى منطلق جميع آمالنا ، وأقوى أساس للأخلاق ، وأوطد سند للمجتمع » ؟ ^(٦)

إن هيوم - مثله مثل كنط - يفرق بين مسألة وجود الله كحقيقة أو بديهية حسمها العقل العملى ، ومسألة وجوده وطبيعته التى تعد غامضة غموضاً تاماً ومستغلقة استغلاقاً على الفهم البشرى ، بحيث أن هذا المفهوم لا يمكنه أن يبرهن نظرياً على طبيعة الله أو وجوده ، لأن ذلك أمر يجاوز كل ما يملك من قدرات . يقول كنط فى مطلع «نقد العقل المحض» :

1- kant, prolegomena, p. 171.

2- kant, critique of pure Reason, p. 371.

3- Ibid., P. 370 .

٤- كنط : نقد العقل العملي ، ط ١ ، ص ٢٢٦ = ١٣٥ من الترجمة الفرنسية عن : عبدالرحمن بدوى ، الأخلاق عند كنت (الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٩م) ص ١٥٠ .

5- kant, prolegomena, p. 173 .

6- Hume, Dialogues Concerning Natural Religion, pp. 4-5.

« كتب على العقل البشرى أن يتحمل هذا القدر الخاص فى نوع من معارفه فهو مثقل بأسئلة ترهقه ولا يستطيع أن يصرف النظر عنها ، لأنها مفروضة عليه بحكم طبيعته نفسها ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع الإجابة عنها لأنها تتجاوز كل ما يملك من قدرات » . (١)

ويعبر هيوم عن عجز العقل الإنسانى عن إدراك مسائل ما بعد الطبيعة بقوله :

« عندما ننظر فيما وراء الأمور البشرية وخصائص الأجسام المحيطة ، عندما نتنقل بتأملاتنا إلى اللانهائيين : قبل وبعد الحالة الراهنة للأشياء ، إلى خلق وتكون العالم ، إلى وجود وصفات الأرواح ، إلى قوى وأعمال روح كلية وحيدة لا بدء لوجودها ولا نهاية ، مطلقة القدرة ، كلية العلم ثابتة ، لا نهائية ، وغير مدركة - عند ذلك فإنه يجب أن نبعد أدنى شك فى أمور غير مدركة لأنها تتجاوز كل ما نملك من قدرات » . (٢)

ويتشابه أيضا كمنط مع هيوم عندما يرى أنه إذا كان من الممكن إصدار أحكام فيما يتعلق بالعلوم التى تدور فى نطاق الواقع ، فإن هذا غير ممكن حينما نتجاوز الواقع إلى عالم الشئ فى ذاته أو عالم اللاهوت لأن قوانين ذلك العالم تختلف عن قوانين عالم الواقع الذى نعيش فيه . يعبر كمنط عن هذه الفكرة بقوله :

« يقع العقل فى الحيرة بغير ذنب منه ، فهو ينطلق من مبادئ يكون استعمالها فى سياق التجربة ضروريا لاغنى عنه ، كما أن التجربة نفسها تؤكد صحتها على نحو كاف ، وبهذه المبادئ يرتفع العقل (كما تقضى بذلك طبيعته) ، ويمعن فى ارتفاعه إلى آفاق أعلى ، ويواصل صعوده إلى شروط وأحوال أبعد وأبعد ، بيد أنه لا يلبث أن يدرك أن عمله بهذه الطريقة

قارن الترجمة العربية ، ص ١٢ . 1- kant, Critique of pure Reason, p.I.

2- Hume, Dialogues Concerning Natural Religion, p. 12.

سيظل عملا محكوما عليه النقص ، لأن الأسئلة المطروحة لا تتوقف أبدا ، ولهذا يجد نفسه مضطرا للجوء إلى مبادئ تتخطى كل استخدام ممكن للتجربة كما يبدو في ظاهرها من البعد عن الشبهات بحيث يقبلها العقل السليم . لكن العقل يتردى بذلك في مهاوى الظلام والمتناقضات التي قد يحس معها بوجود أخطاء خافية تسبب فيها ، ومع ذلك يظل عاجزا عن اكتشاف تلك الأخطاء ، لأن المبادئ التي يستخدمها تتجاوز حدود التجربة » . (١)

أما هيوم فيعبر عن هذا التباين بين قوانين ومبادئ العالمين بقوله :
« وطالما نحن نقصر نظرننا على التجارة ، أو الأخلاق ، أو السياسة ، أو النقد ، فإننا نحتكم كل لحظة إلى الإدراك العادى والتجربة ، اللذين يقويان نتائجنا الفلسفية ، ويزيلان الشك (أو على الأقل جزءا منه) ، الذى يساورنا فى كل استدلال مهما كان حاذقا ودقيقا ، ولكن نحن لا نملك هذه الميزة فى الاستدلالات اللاهوتية التى تشغل فيها بموضوعات أكبر من أن يحيط بها إدراكنا ، بينما يتحتم علينا أن نكون مدركين لها ، ويتطلب الأمر أن تكون مألوفة لفهمنا أكثر من غيرها . ومثلنا مع هذه الموضوعات مثل أناس أجانب فى بلد غريب . يبدو لهم كل شىء مريبا ، وهم فى خطر كل لحظة خوفا من أن ينتهكوا قوانين وعادات الناس الذين يعيشون ويتحدثون معهم . ونحن لا نعرف إلى أى مدى يتعين منطقيا أن نشق فى مناهجنا الاستدلالية الشائعة فى مثل هذا الموضوع ، لأننا لا نستطيع تفسيرها حتى فى الحياة العامة وفى ذلك الميدان الملائم لها بشكل خاص ، ذلك أن الغريزة أو الضرورة توجهنا تماما فى استخدامها » . (٢)

قارن الترجمة العربية ، ص ٢٢ . 1- kant, critique of pure Reason, p. 1 .

2- Hume, Dialogues concerning Natural Religion, p. 12.

قارن الترجمة العربية ، ص ٢٢ .

ولذلك فإن هيوم يرى صحة موقف سيموندس الحكيم الذى سأله هيرو -
طبقا للقصة الشهيرة :

ماذا كان الله ؟

فطلب يوما ليفكر فى المسألة ، وبعد انتهاء اليوم طلب يومين آخرين ،
وأخذ يطيل المدة بهذا الأسلوب دون أن يورد له تعريفا أو وصفا .
واستنادا لهذا الموقف يقول هيوم :

« إن هذا الموضوع يقع بعيدا جدا عن متناول قدراتى » .^(١)

وطالما أن هذا الموضوع يخرج عن نطاق قدرات العقل الإنسانى ، فلا
يمكن أن يثبت أو ينفى شيئا يتعلق بوجود الله أو عدم وجوده ، لأن العقل
يمكنه أن يقدم أزواجا متناقضة من البراهين « ليس لواحد منها وزن أكبر من
الآخر »^(٢) ؛ ولذا فإن هيوم يفند جميع أدلة العقل المحض القبلى والبعدي
على وجود الله ويتابعه كنط فى ذلك ، ولنبدأ هذه المرة بعرض موجز لنقد
هيوم لتلك الحجج ، ثم تتبعها بنقد كنط لها مبينين أوجه التقائه مع هيوم .
بدأ هيوم بنقد الدليل القبلى على وجود الله على لسان كلينشيز ، الذى
اعتبر أن الدليل الوحيد على وجود الله ينبغى أن يكون دليلا بعديا . وقد
وافق فيلون على رفض الدليل القبلى ، لكنه رفض الدليل البعدي الذى قدمه
كلينشيز .^(٣)

1- Ibid ., p . 29 .

قارن الترجمة العربية ، ص ٤٤ .

2- Ibid ., p . 13 .

قارن الترجمة العربية ، ص ٢٢ .

3- Mossner, The Enigma of Hume, Mind Vol. XIV., 1963., pp.,
334 - 49 .

Wollheim , Hume on Religion, (Britain : The Fontana Library ,
1971) , p. 21 F.

فلقد انتقد هيوم الدليل القبلى عن واجب الوجود ، لأنه « لو أن إنسانا تجرد من كل شيء يعرفه أو يراه لعجز تماما عن أن يعين - استنادا إلى أفكاره الخاصة فحسب - الصورة التى عليها العالم ، أو أن يؤثر بالتفضيل وضعاً للأشياء أو حالة لها على وضع أو حالة أخرى ، وإذا لم يكن شيء مما يتصوره بوضوح مستحيلا أو مشتملا على تناقض فإن كل صورة واهمة فى مخيلته تكون على منزلة مماثلة لمنزلة الأخرى ، ولن يكون فى مقدوره أن يبين أى سبب صحيح لكونه يتبع فكرة أو مذهبا ويقصى فكرة أو مذهبا آخر وكلاهما يستوى فى الإمكان . ثم بعد أن يفتح عينيه ويتأمل العالم كما هو فى الواقع يغدو من المستحيل عليه فى البدء أن يبين علة أى حادثة وبالتالى يستحيل عليه أن يبين علة الأشياء جميعا أو العالم . وفى سعة أن يدير مخيلته ، وفى وسعها أن تمده بتنوع لا متناه من التقارير والتصورات ، وكلها ممكنة ، ولكن كونها تستوى فى الإمكان ، فإنه لن يتمكن مطلقا أن يقدم من عند نفسه تفسيراً لتفضيله واحدا منها على سائرهما فى وسع التجربة وحدها أن تظهره على العلة الحقيقة لأى ظاهرة » .^(١) والتجربة لا تقدم لنا أى انطباع ضرورى عن موجود واجب الوجود . والمسئول عن فكرة الموجود الضرورى هو الخيال الذى يمد معرفتنا التجريبية عن بعض الصفات مثل القدرة والحكمة والعلم الى غير نهاية ، ويتخيل أنها موجودة فى كائن كامل هو الله^(٢) . لكن الخيال قادر أيضا على سلب الوجود عن الموجود أيا كان ، ثم إننا إذا فرضنا هذا الموجود فلماذا لا يكون بدلا من الله ، هو المادة بصفاتها المعروفة أكثر والجديرة بتفسير الوجود ؟ فإن أصحاب الدليل القبلى إذا كانوا يزعمون إمكان معرفة واجب الوجود قبلها بوصفه علة لهذا الكون ، « فإننا نستطيع أن نعرف قبلها أن المادة يمكن أن تشتمل فى الأصل فى ذاتها على نبع النظام أو مصدره .. » .^(٣) إذن فالإمكان المتعادل وارد فى

1- Hume, Dialogues., p. 25.

قارن الترجمة العربية ، ص ٢٧ - ٢٨ .

2- Hume, An Enquiry ., P. 19 .

3- Hume, Dialogues Concerning Natural Religion, p., 25 .

كلا الفرضين ومن هنا فلا يلزم أحدهما دور الآخر وفكرة الواجب لا تنتقل من الإمكان إلى الوجود إلا إذا كان ثمة تجربة .

وبعد تفنيد هيوم للدليل القبلى ، يقوم بتفنيد الأدلة البعدية ، وأشهر تلك الأدلة هو دليل العلل الغائية أو التصميم الذى يقوم على المماثلة بين الكون وبين آلة اصطناعية ، وملخص هذا الدليل كما جاء على لسان كلينشيز^(١) :

« انظر حول العالم ، تأمله برمته ، وتأمل كل جزء فيه ، تجده ليس آلة عظيمة مقسمة إلى عدد لا متناه من آلات أصغر تتيح بدورها تقسيمات أخرى إلى درجة تتخطى ما يستطيع الحواس والملكات البشرية أن تتبعه وتفسره . وهذه الآلات المتنوعة جميعا - بل وأدق أجزائها أيضا - منظمة فيما بينها بدقة تفتن من الإعجاب كل من قبض له تأملها . إن التوافق العجيب بين الوسائل والغايات فى جوانب الطبيعة جميعها يشبه فى دقته ثمرات الابتداع والتدبير والفكر والحكمة والذكاء الإنسانية وإن كان يفوقها . وعلى ذلك فمادامت المعلولات تتشابه فيما بينها ، فنحن نتأدى - طبقا لقواعد التمثيل جميعا - إلى الاستدلال على أن العلل أيضا تتشابه ، وأن صانع الطبيعة يشبه إلى حد ما ذهن البشر ، وأن كان مزودا بملكات أوسع تتناسب مع جلال العمل الذى أنجزه بهذه الحجة البعدية - وبهذه الحجة وحدها - نبرهن فى عين الوقت على وجود الله وعلى مشابهته لعقل وذكاء وذكاء الإنسان » .^(٢)

ويرفض هيوم على لسان فيلون المماثلة التى يقيمها هذا الدليل بين الكون وبين آلة من صنع الإنسان^(٣) ، لأن من غير المنطقى أن يكون ثمة تشابه

1- Ayer, Hume (Oxford vnib press, 1980), p . 94 .

2- Hume, Dialogues Concerning Natural Religion, p., 22 .

الترجمة العربية ، ص ٢٤ - ٢٥ .

٢- لخص آير Ayer بدقة فى كتابه عن هيوم حجج فيلون المعبرة عن رأى هيوم فى نقاط ست ، وقد استرشدنا بهذا التلخيص - أحيانا - فى عرضنا لتفنيدات هيوم ، انظر :

Ayer, Hume , p . 94 - 5 .

بين جزء محدود للغاية وناجم عن علة محدودة وبين ذلك الكل العظيم الذى لا نعرف أصلا هل تبقى طبيعته واحدة فى جميع أجزائه يقول هيوم :

« لقد انكشف جزء صغير من هذا النظام لنا فى فترة قصيرة جدا من الزمن انكشافا ناقصا ، فهل من المشروع لنا بناء على ذلك أن نقول قولاً قاطعاً فيما يتعلق بأصل الكل ؟ نتيجة رائعة ، يبس الحجارة والخشب والآجر والحديد والنحاس فى هذا الزمن فى هذه الكرة الدقيقة من الأرض نظام أو ترتيب بغير الفن والإبداع الإنسانى وبناء عليه لم يكن فى وسع العالم أصلاً أن يصل إلى نظامه وترتيبه إلا بما يشبه الفن الإنسانى ، لكن أياكون جزء من الطبيعة قاعدة لجزء آخر منها شامع جداً ؟ أياكون قاعدة لكل ؟ أياكون جزء صغير جداً قاعدة للعالم ؟ هل الطبيعة فى إحدى الحالات قاعدة معينة للطبيعة فى حالة أخرى فى اختلافها عن الأولى . (١) »

وفضلاً عن ذلك فإن هيوم لا يقبل هذا الاستدلال لأنه غير مستند إلى خبرة أو تجربة (٢) ، يقول :

« يتطلب هذا الاستدلال أن تكون لنا تجربة عن أصل العوالم ، ولا يكفى أننا قد رأينا سفناً ومدناً تنشأ من الفن والابتكار الإنسانى . (٣) »

لكن لنفرض أن ذلك التشابه قائم ، أفلا يمكننا التلاعب به واستغلاله ما شاء لنا الهوى ؟

هذا بالضبط ما يفعله هيوم بمهارة ممتعة ، فنحن نستطيع أن نستدل بما فى الكون من نقص على أن الإله متناه (سبحانه) مثل الصانع البشرى ، أو يمكن أن نخلص منه إلى وجود إله يحل لنا أن نسأل عن علته ، أى إله ناقص مثله مثل الصانع الذى يلاقى مقاومات ، بل ربما جاز لنا أن نفترض

1- Hume, Dialogues Concerning Natural Religion, p., 29 .

2- Flew, Hume's philosophy of belief (New york, 1961) , p. 214.

3- Hume, Dialogues concerning Natural Religion , p. 30 .

جماعة من الآلهة ، لأن صنع ذلك العالم يمكن أن يكون مرده إلى تعاون بينهما ، أو أنه إله جسمي يعمل يديه . ويسعنا أخيراً أن نمد منهج كليشيز في المشابهة فإذا شبهنا الكون بالجسم الحسى ، أمكن تصور الله نفساً كلية أو قوة نامية كالقوة التى تحدث النظام فى النبات بلا وعى أو قصد .^(١)

أما دليل المحرك الأول ، فلا موجب إطلاقاً لانتباز المذهب المادى ، إذ مهما زعم اللاهوتيون ، فإن الحركة يمكن أن تبدأ بدون عامل إرادى بالثقل أو الكهرباء مثلاً^(٢) ، حيث يصح أن تكون نوعاً من فعل التوليد داخل الطبيعة ذاتها .^(٣)

تلك كانت انتقادات هيوم لبراهين وجود الله وإذا ما انتقلنا إلى كمنط ، فإن أول وجه شبه ينبغى أن يسترعى انتباهنا هو أن كمنط كان فى المراحل الأولى من تطوره الفكرى يؤمن ببعض هذه الأدلة ، ثم تطور به الحال إلى الإبقاء على دليل واحد ، ولكن انتهى به المطاف - تحت تأثير هيوم إلى تفنيد كل الأدلة النظرية على وجود الله أقول إذن : إن أول وجه تشابه بينهما هو «تفنيد البراهين النظرية على وجود الله» ولم يتوقف التشابه عند هذا الحد بل تعداه إلى اتفاق تام فى معظم المرتكزات التى استند إليها الاثنان فى تفنيدهما .

ومن هذه المرتكزات - كما سنرى - عدم وجود تجربة عن خلق الكون ، عدم جواز الانتقال من الفكر إلى الوجود إلا إذا كان ثمة حدس حسى ، عدم مشروعية تطبيق قانون العلية على وراء الواقع التجريبي ، رفض المشابهة بين الابتكار الإنسانى وعملية الخلق ، لغياب المماثلة التامة بين الجانبين ، ولما يترتب على عملية المشابهة من نتائج غير مرضية عن طبيعة الله .

١- برهيه ، تاريخ الفلسفة ، القرن الثامن عشر ، ص ١٢٧ .

١- يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٧م) ص ١٧٢ .
وبرهيه المصدر السابق ، نفس الموضع .

٢- فرانكلين - ل - باومر ، الفكر الأوربي الحديث : الاتصال والتغير فى الأفكار - الجزء الثانى (القرن الثامن عشر) ، ترجمة د/ أحمد حمدي محمود (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٨م) ص ٦٠ .

ويبدأ كمنظ بنقد الدليل الانطولوجي القبلي ، لأنه يشكل الأساس للأدلة
البعدية الدليل الكسمولوجي والدليل اللاهوتي الطبيعي^(١)

ويستنتج هذا الدليل وجود علة أعلى من مجرد التحليل القبلي للتصورات
ويقوم على القياس التالي :

ما يحوز كل المحمولات الممكنة (أى الكائن الكامل) يحوز أيضا محمول
الوجود .

ومثال العقل يحوز كل المحمولات الممكنة (هو الكائن الكامل) إذن
الكائن الكامل موجود .

أو بعبارة أخرى : إن تصور كائن كامل غير موجود - يقع فى التناقض .
ويقوم هذا القياس فى الحقيقة على مقدمتين غير صالحتين للاستدلال ،
فالمقدمة الكبرى إما أن تكون تحصيل حاصل إذ تعنى : كل موجود يحوز
كل المحمولات الممكنة فهو موجود وبالتالي فهى لا تؤدى لاستنتاج أى
شئ .

وإما أن تكون تحليلية وتعنى : أن الوجود صفة من صفات الكامل وهنا
يتعين عليها أن تثبت أن الوجود صفة محمول لكن تدل كل أحكام التجربة
على أن الوجود «حامل» للصفات وليس «المحمول» أى أنه لا يزيد فى
المحمولات ، لأنه هو أصلا بموضوعه . فحكم من نوع : «هذه الطاولة
صفراء» لا يقول أن الطاولة لها صفة الوجود وصفة الاصفرار ، بل على
العكس إن الوجود يلزم أن يكون متضمنا فى مفهوم الطاولة حتى يمكن أن
أحمل عليها الاصفرار بالإضافة إلى ذلك أن إلغاء وجود الطاولة لا يقع فى
تناقض ، لأنه إلغاء للموضوع والمحمول معا ، أى إنه إلغاء للحكم نفسه
وهكذا ، عندما يقول : إن فكرة الكائن الكامل تتضمن وجوده «نضع
أنفسنا أمام واحد من أمرين . إما أننا نقصد وجود الكائن الكامل فى

3- Cassirer, Kant's Life and Thought, Trans. by James Haden. Introduction by Stephan Korner, (New Haven and London : Yale Univ. Press ., 1981) , p . 209 .

عقلنا وحسب هنا يظل الكائن الكامل مجرد فكرة ، وإما أننا نعنى بذلك وجوده وجودا مستقلا عنا ، وفي هذا الحالة نصادر على المطلوب .

هذا فيما يتعلق بالمقدمة الكبرى ، أما المقدمة الصغرى ، فهي ليست صحيحة إلا إذا كانت تعنى مجرد مبدأ صوري ومجرد إمكان منطقي ، وهي لا تتضمن ما يثبت واقعية فكرة الكائن الكامل ، لأنه لا يوجد لها ما صدقات في الواقع ، والانتقال من الفكر إلى الوجود ، من فكرة الكمال إلى وجود الكائن الكامل وجودا واقعيا ، يستلزم حدسا أو تجربة ، وليس الله موضوع تجربة .^(١) هنا يلتقى كنت تماما مع هيوم ، إذ أن هذا الأخير سبق له تفنيد الدليل القبلي على وجود الله اعتمادا على عدم وجود حدس حسي عن الله يجيز لنا الانتقال من الفكر إلى الوجود ، أو بعبارة أخرى : عدم وجود تجربة عن أصل العالم تجيز الانتقال من الممكن إلى الواجب .

ثم ينتقل كنت إلى بيان امتناع الدليل الكوسمولوجي على وجود ، فيبين إنه يقوم على القياس الآتي :

إذا وجد شيء حادث ، فيجب أن يوجد شيء واجب وجوبا مطلقا .
والحال إنني أنا نفسي أوجد على الأقل كموجود حادث إذن يوجد كائن واجب وجوبا مطلقا .^(٢)

ويبدو فساد هذا القياس من أن اشتراط الحادث لسبب إنما هو مبدأ مسلم به في حدود التجربة فحسب ، والمقدمة الكبرى - بإطلاقها من حدود التجربة - تصبح غير يقينية . ثم إن القياس يثبت في كل مرة الوجوب المطلق فقط ، ومن هنا يستلزم قياسا آخر ينقله من فكرة الوجوب المطلق إلى إثبات الوجود الواجب ، أي أنه يعود إلى قياس الدليل الانطولوجي الذي قد

1- kant, Critique of pure Reason, pp . 346 - 52 .

قارن أيضا تلخيص كورنر المحكم لنقد كنت لهذا الدليل في :

koiner, kant, pp . 120 - 1 .

٢- اعتمد كنت في صياغته لهذه الحجة - كما يقول كوبلستون - على لينتزر . أنظر :

copleston, History of Philosophy, Vol VI, Wolff kant, p. 297 .

ثبت فسادہ. ^(۱) وهنا أيضا نلاحظ تشابه كمنط مع هيوم في النقطة الأخيرة ، أما النقطة الأولى وهي أن مبدأ العلية يصدق فقط في نطاق عالم الظواهر فإن هيوم أيضا قد أشار إلى شيء من هذا القبيل عندما قال بأننا «لا نعرف إلى أي مدى يتعين منطقيا أن نثق في مناهجنا الاستدلالية الشائعة في مثل هذا الموضوع» ^(۲) حيث أن مبادئ وقوانين عالم الواقع لا تنطبق على عالم ما وراء الواقع . ^(۳)

إن كل ما نراه في العالم منظم بموجب غايات معينة ، إذن العالم من صنع كائن الحكمة أو أكثر ويستلزم هذا القياس قياسا آخر حتى يكتمل ، هو : عندما تتوافق أهداف مختلفة في غاية واحدة فلا بد من أن يكون الكائن الحكيم الذي نظمها ورتبها واحدا ، والواقع أنه - قياسا على ما نعرف - لا بد من أن يؤدي التنظيم والترتيب الذي نشهده في العالم إلى غاية واحدة ، إذن الكائن الكلي الحكمة صانع هذا النظام لا بد أن يكون واحدا . ^(۴)

من الواضح أن هذا الدليل يعتمد على قياس المماثلة ^(۵) الذي عرضه هيوم في المحاورات على لسان كلينثيز ، ثم انتقده انتقادا عنيفا على لسان فيلون المتحدث باسم هيوم نفسه ، ويوجه كمنط إلى هذا الدليل نفس الانتقادات الهيومية ، حيث يرى عدم وجود أساس لهذا الدليل من حيث أنه يعتمد على المماثلة ، لأنه عندئذ يفترض معرفتنا بطبيعة أكثر الكائنات كمالات ، وهو الأمر الذي ينكره كمنط وهيوم لأن معرفة طبيعة الله أمر يند عن قدرات العقل

١- انظر شرح هذه الحجة ونقد كمنط لها بالتفصيل عند :

Bennett, kant's Dialectic (Cambridge Univ. Press, 1973) . p. 237 F .

2- Hume, Dialogues Concerning Natural Religion, p. 12 .

3- Idem ، الترجمة العربية ، ص ٢٢ .

4- kant, critique of pure Reason, pp. 364 .

5- copleston, History of philosophy, vol., Vi ., Wolff to kant, p. 299 .

الإنسانى . ثم يتشابه كمنط مع هيوم ، عندما يقول : إنه لكى نثبت أن للعالم المحسوس علة أولى ، يلزم أن نثبت أولاً أن هذا العالم غير قادر بذاته على إيجاد النظام والاتساق من داخله دون قوة خارجية ، لكن ليس هناك دليل حاسم على هذا ، فمن الجائز إن يكون العالم مشتملاً فى الأصل فى ذاته على نبع النظام . ثم أن ضرورة التماثل بين العلة والمعلول على فرض وجودها فى القياس الوارد ، تؤدى إلى حتمية الاستدلال من جوانب النقص الموجودة فى هذا العالم على أن خالقه متناه . لكن القائلين بهذا الدليل يزعمون مع ذلك أنهم يستنتجون منه الكائن الكامل ، مع أنه لا يدل - على فرض صحته - إلا على وجود صانع للعالم فحسب لا على وجود كائن كامل الأوصاف ، ومن ثم فإن هذا الدليل يستلزم الدليل الكوسمولوجى الذى يستلزم بدوره الدليل الانطولوجى ، وبالتالى فإنه يتعرض لكل التفنيدات التى تعرض لها من قبل هذان الدليلان .^(١)

*** ** *

1- kant, critique of pure Reason, pp. 366 - 7 .

الفصل الرابع

أثر هيوم في تطور كنت

قراءة هيومية للفلسفة النقدية في تكونها

- * الرؤية التقليدية لعلاقة كنت بهيوم.
- * هيوم الألماني وكنت الانجليزي !
- * هدف هذا الفصل .
- * البراهين التاريخية على قراءة كنت لهيوم .
- * اعتراف كنت بأثر هيوم على فلسفته .
- * متى دخل هيوم ألمانيا ؟
- * لماذا اهتم الألمان بفلسفة هيوم ؟
- * متى عرف كنت هيوم ؟
- * المرحلة الأولى من مراحل تطور التفكير الكنتي : مرحلة ليبنتس - فولف .
- * البذرة الأولى للموقف النقدي .
- * لماذا لم يستيقظ كنت في المرحلة الأولى من تفكيره ؟
- * المرحلة الثانية من تطور كنت : دعوى جديدة يليها البرهان .

*** مؤلفات كنف تبرهن على أن المرحلة الثانية من تطوره كانت
تجريبية محض .**

*** المرحلة الثالثة : العقلانية التجريبية : إثبات أن إيقاف هيوم
النهائي لکنف كان إيقافا من التجريبية المحض لا من
العقلانية الميتافيزيقية .**

*** أهمية مشكلة النقائص في إيقاف كنف .**

*** إثبات أن هيوم هو الذي أوقف كنف من التجريبية .**

قراءة هيومية للفلسفة النقدية فى تكونها

★ الرؤية التقليدية لعلاقة كـنـط بهيوم :

تؤكد الرؤية التقليدية لعلاقة كـنـط بهيوم على الاختلافات الموجودة بينهما حيث تضعهما فى جانبين متضادين تفصل بينهما هوة عميقة ، فالتجريبية الانجليزية ، والحسية والشكية .. فى مقابل العقلانية الألمانية ، والنقدية ، واللاشكية .

وطبقا لهذه الرؤية فإن هيوم إذا كان قد أيقظ كـنـط من سباته الدوجماتيقي فإنه أيقظه من العقلانية المتزمتة والميتافيزيقية الحاملة . ومشكلة هيوم متطابقة تماما مع مشكلة السببية ، فهجومه عليها وتساؤله عن صحتها الموضوعية ، جعل كـنـط يتخذ موقفا شكيا فى البدء ، ولكنه سرعان ما رأى العاقبة المهلكة التى من الممكن أن تترتب على هذا الهجوم بالنسبة لكل علم ، ولاسيما علم الميتافيزيقا .

ومن هنا فقد تصدى لمشكلة هيوم ودحض الشكية وأنقذ مبدأ السببية ، ذلك المبدأ الذى يعد بحق المحور الرئيسى الذى يقوم عليه العقل ، ويتأسس عليه العلم .

هكذا أجاب كـنـط عن هيوم !

وهنا تكمن جدارته الفلسفية !

ومع أن الأبحاث الأجنبية التى تبحث فى علاقة كـنـط بهيوم ليست قليلة إلا أن معظمها تلح على هذه الرؤية العقيمة المفرطة فى التبسيط .. هذه الرؤية التى تغفل تقريبا كل الأمور التى تجعل علاقة كـنـط بهيوم مثيرة فلسفيا .

* هيوم الألماني وكنط الإنجليزى !

أظهرتنا القراءة المتأنية والتحليلات المقارنة لنصوص هيوم وكنط على أعماق تجعل المرء يجزم بلا تردد بإمكانية النظر إلى هيوم وكنط باعتبارهما وجهين لشيء واحد وحيد ، فكنط هو « هيوم الألماني » ، وهيوم هو « كنط الإنجليزى » !

وقد تنبه هامان Hamann منذ وقت مبكر إلى أحد جانبي هذه النتيجة ، لكن تنبهه هذا جاء دون برهنة ، حيث قال عن كنط فى خطاب إلى هردر سنة ١٧٨١ م :

«إنه بالتأكيد يستحق لقب هيوم البروسى» .^(١)

وفى حدود معرفتى لا يوجد أى كاتب قد ذكر بوضوح باستثناء بيك Beck أن هيوم يستحق لقب « كنط الإنجليزى » .^(٢) ولكن بيك هذا لم يتمكن من النظر إلى العلاقة بينهما إلا فى إطار ضيق هو إطار مشكلة السببية .

ورغم هذا يمكن القول بوجود اتجاه معاصر فى تفسير فلسفة هيوم عرض إلى ذلك دون تصريح بشكل ربما يقود المرء فى النهاية إلى القول عن هيوم أنه « كنط الإنجليزى » .

فيشير بريس Price إلى : «صورة إنجليزية لشورة كنط الكوبرنيقية» .^(٣) ويؤكد هذا رأى داور فى مقاله : «نحو قراءة كوبرنيقية لهيوم» .^(٤)

1- Hamann Briefwechsel, ed Henkel, IV, 293 . See this quotation from Hamann in Beck's

: Essays on kant and Hume (New Haven : Yale Univer . Press , 1978), P. III .

2- Beck, Idem .

3- Price , Hume's Theory of the External world (Oxford, University press, 1963), p. 9 .

4- Dauer "Towards a copernican reading of Hume" , Nous 9 (1975), pp . 269 - 95 .

كما أشار إلى شىء من هذا القبيل روبرت بول فولف
Robert Paul wolff^(١) ، ووالش walsh^(٢) .

* هدف هذا الفصل :

مهما يكن من أمر فإن إعادة قراءة كنط فى ضوء فلسفة هيوم قراءة جديدة ، وتفسير العلاقة بينهما تفسيراً متماسكاً وشاملاً ، يستلزم منا القيام بتتبع تطور التفكير النقدي لـكنط من خلال علاقته بهيوم ، ومحاولة معرفة ماذا كانت تمثل رؤية هيوم الفلسفية بالنسبة لـكنط فى المراحل المبكرة من تطور فلسفته النقدية .

وربما تمدنا هذه المحاولة وهذا التتبع بمفاتيح جديدة لحل اللغز الذى يسيطر على علاقة كـنط بـديفيد هيوم .

وإذا كان الفصلان السابقان يعدان بمثابة قراءة كـنطية لهيوم ، فإن الدور المنوط بهذا الفصل هو أن يكون قراءة هيومية شاملة لـكنط ، لا من خلال مشكلة السببية فقط ، كما تفعل الأبحاث الأخرى ، وإنما عبر المشكلة النقدية كلها ، لمعرفة إلى أى حد كان كـنط هيومياً ؟

* البراهين التاريخية على قراءة كـنط لهيوم :

وحتى يكون حديثنا عن أثر هيوم فى كـنط ، وتأثير كـنط بهيوم ، منطقياً ومستنداً إلى أسس منهجية دقيقة ، ينبغى أن نبين أولاً الأدلة التاريخية التى تثبت أن تشابههما ليس من قبيل توارد الخواطر ، وإنما نتيجة الأثر والتأثير المباشرين . نقول هذا ونقوم به حتى لا نقع فى نفس الخطأ الذى يقع فيه

1- wolff " Hume's Theory of Mental Activity" , in : Hume, ed . V.C. Chappell (New York : Doubleday, 1966), P. 127 .

2- walsh "Hume's concept of Truth" , in : Reason and Reality (Royal institute of philosophy Lectures, 1970 - 71) , pp. 99 - 116 .

أولئك الذين يظنون أن كل تشابه بين أى فيلسوفين أو عالمين أو أدبيين ..
إنما هو نتيجة الأثر والتأثر .

ولهذا السبب سنعمل على تحديد :

متى دخل هيوم ألمانيا ؟

ما هى مراحل نفوذه فيها ؟

ما هى المصادر الرئيسية لمعرفة كنط لهيوم ؟

متى قرأ كنط هيوم ؟

ما هو التاريخ الذى أصبحت فيه مشكلة هيوم هامة ومقلقة لکنط ؟

وإذا ما أجبنا عن كل هذه الأسئلة أعتقد أننا سنكون مهئين للإجابة عن
سؤال الأسئلة فى هذا الفصل : كيف تغلغلت أفكار هيوم إلى فلسفة كنط
من بداية تطوره الفلسفى حتى اكتمال فلسفته النقدية ؟

أ - اعتراف كنط بأثر هيوم على فلسفته :

ربما تكون البداية بالذروة مفيدة فى كثير من الأحيان ، لكنها فى حالتنا
هذه - حالة كنط وهيوم - التى طال فيها الجدل ، ليست مفيدة فقط ،
بل حاسمة أيضا .

فى سنة ١٧٨٣م بعد أربعة وأربعين عاما من ظهور كتاب هيوم « رسالة
فى الطبيعة الإنسانية » . وبعد خمسة وثلاثين عاما من ظهور كتابه الثانى
« بحث فى الفهم الإنسانى » ، وجد كنط أن الضرورى الاعتراف علنا بأن
« تنبيه ديفيد هيوم هو الذى أيقظه من سباته الدوجماتيقى منذ عدة

سنوات مضت ووجه بحوثه فى حقل الفلسفة التأملية وجهة جديدة تماما . (١)

من الواضح أن طريقة كنط هذه فى التعبير عن فضل هيوم تتشابه مع الأسلوب الذى عبر به هيوم نفسه فى خاتمة الكتاب الأول من الرسالة عن «أمله الوحيد» فى أن «يساهم قليلا فى تقدم المعرفة عن طريق تقديمه - بشكل خاص - لاتجاه مختلف (عن الاتجاهات السابقة) لتأملات الفلاسفة ولفت نظرهم بوضوح أكثر إلى تلك الموضوعات التى يمكنهم فيها فقط أن يتوقعوا الثقة والافتناع . (٢)

وبذلك الاعتراف من كنط كان نفوذ هيوم فى ألمانيا قد بلغ ذورته .. ذلك الاعتراف جاء غالبا بدافع من الضمير الكنطى الشهير المؤسس على الشعور بالواجب الذى لا يريد أن يخس الناس أشياءهم . وإن كان من المحتمل جدا أن يكون قد جاء بعد أن وجد كنط بعض النقاد يشيرون إليه على أنه «هيوم البروسى» (٣) ، فلم يجد مفرًا من الإقرار بأثر هيوم . وهذا الإقرار نفسه ليس بهدف تقدير موقف هيوم بقدر ما هو محاولة لتحجيم دوره فى الفلسفة النقدية على أساس أنه توقف عند جانب واحد فقط من جوانبها ، أما كنط فقد تناولها تناولا شاملا وكليا .

ويؤازر هذا التأويل الثانى أن كنط ما أن اعترف بفضل هيوم عليه حتى قال : «ولقد كنت أبعد ما أكون عن التسليم بنتائجه التى نجمت من أنه بكل بساطة لم يتمثل المسألة بكل جوانبها وسعتها واكتفى بتناولها من جانب واحد فقط ، وهى بالطبع لن تفسر لنا شيئا إلا إذا تناولناها فى جملتها . وعندما نبدأ بحثنا بفكرة مبنية على أساس سليم قد نقلناها عن شخص آخر لم يتوسع فى بحثها ، فإننا نستطيع أن نأمل بأننا سنسير بفضل

1- kant, prolegomena to any Future. Metaphysics, ed .. Beck, p. 8 .

2- Hume, A Treatise of Human Nature, p . 273 .

٣- مثلما فعل هامان . انظر أول هامش فى هذا الفصل .

التأمل المستمر شوطاً أبعد من هذا الرجل النابه الذى ندين له بأول شعاع من
النور» . (١)

ب - متى دخل هيوم ألمانيا ؟

كانت البداية فى نفس العام الذى ظهر فيه كتاب هيوم «رسالة فى
الطبيعة الإنسانية» سنة ١٧٣٩م ، حيث كتبت عنها مجلة ليبزج الألمانية
الدورية " The Newer zeitungen von gelehrten sachen "

ومما جاء فيها :

«نشر مفكر حر جديد رسالة شاملة عن الطبيعة الإنسانية فى مجلدين ،
من القطع الثمن . يحاول فيها أن يدخل المنهج الصحيح للفلسفة فى
الموضوعات الأخلاقية ، مختبراً ومفسراً أولاً كل سمات الفهم الإنسانى ، ثم
عندئذ يتناول آثاره . وأهداف الكاتب واضحة بشكل كاف فى العنوان
الفرعى للعمل...» . (٢)

وفى العام التالى مباشرة ١٧٤٠م روجعت رسالة هيوم فى الجرنال العلمى
الذى استمر يصدر من ١٧٣٩م حتى الوقت الحاضر :

" The Gottingische zeitungen von gelehrten sachen "

وتمت المراجعة بتاريخ :

لندن ٧ يناير . وقد افتتح الكاتب مقالا من ثلاث صفحات بقوله :

1- kant, prolegomena to any Future Metaphysics, P.8.

قارن الترجمة العربية ، ص ٤٨ .

2- Ernest C. Mossner, " The continental Reception of Hume's Treatise, 1739 - 1741" , Mind 56 (1947). p. 40 .

See also, Mossner , The Life of David Hume (Austin, Texas : Univ. of Texas press, 1954) , pp. 124 F.

« يحاول كاتب مجهول في هذا الكتاب عن الطبيعة الإنسانية أن يدخل المنهج التجريبي في الفلسفة الأخلاقية . ويوضع الكتاب على قمة الأدب غير العادي لدرجة أننا لا نستطيع أن نمتنع عن توضيح بعض الأفكار الغريبة للكتاب لكي نعطي فكرة عن الموضوع الرئيسي الذي بحث فيه ... » .^(١)

إذن فهيوم دخل ألمانيا منذ اللحظة الأولى التي صدر فيها كتابه « رسالة في الطبيعة الإنسانية » ، لكن نجاحه الفعلي هناك بدأ أثناء الخمسينات من القرن الثامن عشر .

ج - مراحل نفوذ هيوم في ألمانيا :

يمكن تقسيم مراحل نفوذ هيوم في ألمانيا إلى خمس مراحل مختلفة ، امتدت المرحلة الأولى من ظهور الرسالة حتى مطلع الخمسينات ، والمرحلة الثانية من أوائل الخمسينات حتى أوائل السبعينات ، والمرحلة الثالثة من أوائل السبعينات حتى حوالي ١٧٨٣ م عام ظهور مقدمات كنط ، والمرحلة الرابعة من ١٧٨٤ م حتى ١٧٩٢ تقريبا عام ظهور Aenesidemus لجوتلب ارنست شولتس ، أما المرحلة الخامسة فمن ١٧٩٣ حتى نجاح هيغل في أوائل القرن التاسع عشر .

والأمر الذي جعل نفوذ هيوم بالغ الأهمية في ألمانيا هو توافق ظهور هذا النفوذ مع مراحل تطور كنط الفلسفي ، ونجاح الفلسفة النقدية ، ثم تراجع هذا النجاح فلقد أصبح كنط مدرسا بالفعل في جامعة كونيغسبرج عندما ظهر بحث هيوم الأول في ألمانيا سنة ١٧٥٥ م ، كما أخذت شهرة هيوم في الأفل مع خبر شهرة كنط . ففي الواقع كان قدر هذين الرجلين الفلسفي واحدا غير منفصم من البداية حتى النهاية .

1- Mossner, (The continental Reception of Hume's Treatise). 1739 - 141 " p . 41 .

ومن المؤكد أنه بحلول سنة ١٧٦٠م كانت كل منشورات هيوم الفلسفية الرئيسية ماعدا الرسالة ، قد تم ترجمتها إلى الألمانية .

ويدعى جيورجيو تونللي **Giorgio Tonelli** أن أفكار هيوم كانت شائعة جدا في ألمانيا إبان هذه الفترة ، ولذا فلا يمكن أن تعزى هذه الأفكار إلى تأثير هيوم .^(١) وهذا الرأي خطأ تماما ، لاسيما إذا ما عرفنا أن الفلاسفة الذين يشير إليهم باعتبارهم أصحاب أفكار تشبه أفكار هيوم ، كانوا هم أنفسهم متأثرين بهيوم على نحو واضح ، مثل موبرتوس **Maupertuis** وباسدو **Basedow** .^(٢)

ويبدو أن أقوى تأثير لهيوم في تلك الفترة المبكرة كان في برلين عاصمة بروسيا ومركز التنوير الألماني .

وكان جون جورج شولتز **Johann Georg Sulzer** - العضو الألماني المتحدث في أكاديمية برلين والفيلسوف المعروف جيدا - هو الذى نشر الترجمة الألمانية للبحث الأول .

وكان رزويتس **F. G. Resewitz** - الصديق المقرب لموسى مندلسون - المترجم الألماني للأطروحة الرابعة التى ظهرت فى ١٧٥٩م .
ونشر موسى مندلسون نفسه مبكرا مقالة فى الاحتمال ، دحض فيها بعض نتائج فلسفة هيوم ويخبرنا فى هذه المقالة أن بحث هيوم الأول فى أيدي كل إنسان " in every one's hands " .

1- Giorgio Tonelli, " Die Anfänge von kant's kritik der kausaibeziehungen und ihre voraussetzungen in 18 .

Jahrhundert," kant-Studien 57 (1966) , 417 - 460 . See, Manfred kuehn, "kant's conception of " Hume's problem" History of philosophy p . 178 .

2- Grossmann, "Berkeley , Hume and Maupertuis, " , French Studies 14 (1960), 304 - 324 .

ومما له دلالة أن مترجم أعمال هيوم التي بدأت في الظهور سنة ١٧٥٨م بظهور البحث الأول في مجلد ، كان هو السكرتير الدائم لأكاديمية برلين J.B. Merian الأول في مجلد ، كان كاتب المقدمة عضوا بارزا آخر في هذه المؤسسة هو فورمي J.H.S. Formey وقد كان هذا المشروع الكامل عودة إلى اقتراح موبرتوس رئيس الأكاديمية .

والأمر الأكثر دلالة أن الترجمات كانت تتم في ذلك الوقت عادة من الإنجليزية إلى الفرنسية ثم إلى الألمانية ، أما في حالة بحث هيوم الأول ، فقد ظهرت الترجمة الألمانية قبل الترجمة الفرنسية .

لكن لا يعنى هذا أن الاهتمام بفلسفة هيوم كان محصورا فقط في برلين ، بل كان ممتدا إلى دوائر أخرى وإن لم يكن بنفس الدرجة .

فقد رأى جون جورج هامان J.G. Hamann في كونيغسبرج البعيدة - على سبيل المثال - أن فلسفة هيوم هامة جدا ومفيدة للغاية .^(١)

لهذه الاعتبارات وغيرها أعتقد أن هيوم كان من الأهمية بمكان وذا نفوذ قوى في ألمانيا أثناء الخمسينات والستينات من القرن الثامن عشر ، وذلك على العكس مما يقول تونللي وتابعه : بيك .

هذا عن المرحلة الثانية لتأثير هيوم في ألمانيا ، أما المرحلة الثالثة : فقد امتازت بتأثير متزايد لفلسفة الحس المشترك الإنجليزية في ألمانيا كعدو لفلسفة هيوم ومثالية بيركلي .^(٢)

1- philip Merlan, "From Hume to Hamann" , The personalist 32 (1951), 11 - 18 .

charles w. Swain, " Hamann and the philosophy of David Hume, journal of the History of philosophy 5 (1967), 343 - 351 .

٢- بحث كوهن kuehn تأثير فلسفة الحس المشترك في ألمانيا إبان تلك الفترة في دراسته القيمة .

Scottish common Sense in Germany , 1768 - 1800 , A contribution to the History of critical philosophy, Dissertation, MC Gill University, 1980 .

وتغطي المرحلة الثالثة تقريرا نفس المرحلة التي تمثل « سنوات الصمت » عند كنط ، تلك السنوات التي كانت تتخلق فيها الفلسفة النقدية في عقل كنط .

أما المرحلة الرابعة لتأثير هيوم ، فتبدأ بعد ظهور مقدمات كنط . وشهدت هذه الفترة في نهايتها سنة (١٧٩٠ - ١٧٩٢) الترجمة الأولى لكتاب هيوم « رسالة في الطبيعة الإنسانية » ، على يد لودفيج هينريش جاكوبى L.H. jakobi الذى يعد واحد من أبكر الفلاسفة الكنطيين وفى عام ١٧٩٢م رأى شولتس فى انسيدموس أن كنط لم يجب وليس من الممكن أن يجيب على شكية هيوم .

وفى المرحلة الأخيرة التي بدأت من ١٧٩٣م أخذ نفوذ هيوم يتراجع مع تراجع نفوذ كنط ونشوء الفلسفة المثالية ونجاحها على يد هيجل فى أوائل القرن التاسع عشر .

وهكذا نجد أن فلسفة هيوم كانت ناجحة جدا فى ألمانيا بعد منتصف القرن الثامن عشر . وفى حين ظلت شهرته فى فرنسا قائمة أساسا على كتاباته التاريخية والسياسية والأدبية ، فإن الألمان قدروا قيمة بحوثه الميتافيزيقية .

د . لماذا اهتم الألمان بفلسفة هيوم ؟

وربما يتساءل البعض لماذا كان الألمان مهتمين إلى هذا الحد الكبير بفلسفة هيوم منذ وقت مبكر جدا ؟

يكمن سبب ذلك فى الموقف الفلسفى الذى كان سائدا فى ألمانيا أثناء الخمسينات من القرن الثامن عشر . وعندما مات كرسطيان فولف Christian wolff سنة ١٧٥٤م . كان نفوذ فلسفته - - التى سادت فى المدارس الألمانية لمدة ثلاثة عقود تقريبا - قد بدأ فى الأفول ، وبدأت الفولفنية شيئا قديما وراكدا . وفى المقابل لم تنشأ فلسفة ألمانية جديدة تسد هذا النقص على الساحة الفلسفية . مما دفع الألمان إلى التحول لنماذج فلسفية أجنبية ، ولاسيما للنماذج الانجليزية ، ومنها بالطبع فلسفة هيوم .

وعندما أصدر سولتزتر ترجمته لبحث هيوم الأول سنة ١٧٥٥م ، أثنى على هيوم ثناء كبيرا ككاتب فلسفى يستطيع أن يكتب بوضوح وأناقة عن معظم المشكلات الميتافيزيقية العميقة والصعبة . ويأمل سولتزتر أن يقتدى الألمان بهيوم فى هذه الناحية .

ويتمثل أحد أهم الأسباب التى دفعت سولتزتر لنشر الترجمة . فى أنه يعتقد أن الفلاسفة الذين لا ينتقدهم أحد يصبحون مسترخين وسطحيين . ويعتبر سولتزتر الفلاسفة الألمان فى هذه الحالة ، إذ أنهم قد سمحوا لأسحتهم أن تصدأ وتفقد حداثتها أثناء فترة السلام الطويلة التى عاشوا فيها . ومن هنا يرى سولتزتر أن هيوم يمكن أن يكون مفيدا جدا بوصفه ناقدا للفلاسفة الألمان كما يأمل فى «أن يوقظ نشر هذا العمل (أولئك الفلاسفة) من نومهم المريح ويقدم لهم عملا جديدا»^(١).

ومن الواضح أن كنت قد استبطن هذه الفقرة فى «المقدمات لكل ميتافيزيقا مقبلة» بعد ثلاثين عاما تقريبا .

1- Hume, Philosophische versuch uber die Menschliche Erkenntnis, Hamburg and Leipzig, 1755. Vourede, quoted in kuekn , "kant's conception of " Hume's problem", p. 179 .

هـ - متى عرف كُنت هيوم ؟

من المؤكد أن كُنت قد عرف هيوم وقدر قيمته ابتداء من عام ١٧٥٥ م وما بعدها . ذلك أن لودفيج ارنت بوروفسكى L.E. Borowski الذى حضر المحاضرات الأولى لكُنت فيما بين ١٧٥٥ و ١٧٥٦ ، قرر أن هيوم وهتشيون كانا مهمين بالفعل لكُنت أثناء تلك الفترة .

وكتب جون جورج هامان خطابا لكُنت فى ١٧٥٩ م يتضمن ما يفيد أنهم كانوا يتحدثون من قبل عن مذهب الاعتقاد لهيوم .^(١)

كما تحتوى رسالة كُنت «ملاحظات على الشعور بالجميل والجليل» التى ظهرت ١٧٦٤ - على اقتباسات من كتاب هيوم «مقالات أخلاقية وسياسية» .

ويذكر جون جوتفريد هرر J. G. Herder الذى حضر محاضرات كُنت فيما بين ١٧٦٢ و ١٧٦٤ - أن كُنت قد درس هيوم كواحد من أهم الفلاسفة فى تاريخ الفلسفة (٢) .

ويلفت «إعلان» كُنت عن محاضراته لشتاء ١٧٦٥ - ١٧٦٦ ، الانتباه لأهمية فلسفة هيوم الأخلاقية .

وتوضح رسالة كُنت «أحلام رائى أرواح مفسرة بأحلام الميتافيزيقا» الصادرة سنة ١٧٦٦ - كيف أصبح هيوم بالغ الأهمية بالنسبة إلى كُنت .

1- kant, philosophical correspondence, 1759 - 99 , ed and tran. Arnulf zweig (chicago : University of chicago press, 1967), pp. 41 F.

٢- انظر اقتباسا مطولا من هرر عند بيك فى "Sketch of kant's Life and works " in kant. prolegomena to any Future Metaphysics, ed Book, pp. XXII.

وقد تم اقتباس ملاحظات هرر من محاضرات كُنت ١٧٦٢ - ١٧٦٤ م .

وبناء على كل ما سلف يتأكد لنا أن كنط قد عرف هيوم جيدا بدءا من سنة ١٧٥٥ . ومن ثم فإن كل تشابه بين كنط وهيوم إنما هو فى الحقيقة نتيجة للتأثير والتأثر المباشرين .

*** ** *

★ المرحلة الأولى من مراحل تطور التفكير الكنطى : مرحلة ليبنتس .

فولف :

مع أن كنط قد عرف فلسفة هيوم منذ سنة ١٧٥٥ م ، إلا أنه لم يستيقظ مبكرا ، إذ كان سائرا - كما تدل مؤلفاته الصادرة إبان تلك الفترة - على درب العقلانية الميتافيزيقية .. درب ليبنتس وفولف ، ويتجلى هذا فى كتاب «ايضاح جديد للمبادئ الأولى للمعرفة الميتافيزيقية» الصادر سنة ١٧٥٥ ، والذي حاول فيه أن يقدم برهانا عقليا على مبدأ العلية الكافية وهذا البرهان عرضة للسقوط أمام تفنيد هيوم لمثل هذه الحجج الذى يوجد فى الرسالة ، الكتاب الأول ، جزء ٣ فصل ٣^(١) . وقد شيد كنط فى هذا الكتاب مذهباً عقلياً محضاً ، حيث يرتب كل الحقائق العقلية ترتيباً هرمياً ، على قمته الحقيقة الآلهية التى يعتبرها مصدراً لكل الحقائق والتصورات الممكنة . ولا بد أن يترتب على وجهة نظر كهذه وجهة نظر أخرى طرحها كنط ، وهى أن كل الأحكام تحليلية ، غير تركيبية ، حيث يتضمن الموضوع المحمول . ولذا فإن دور العقل دور تحليلى ، إذ يقوم بتحليل التصورات حتى يبين ما إذا كانت توجد هوية بين المحمول والموضوع أم لا ، فإن كانت الأولى يصبح الحكم حقاً ، وإن كانت الثانية يكون الحكم باطلاً .^(٢)

1- Beck, "Aprussian Hume and a Scottish kant" p. 113 .

لكن بيك يزعم أن كنط كان يجهل - حتى ذلك التاريخ - تفنيد هيوم . وهذا ما أثبتنا خطأه أعلاه .

٢- بتصريف واسع عن : عبدالرحمن بدوى ، اما نويل كنت ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

البذرة الأولى للموقف النقدي :

ورغم مشايعة كنط الواضحة للمذهب العقلي التقليدي عند ليبنتس وفولف ، إلا أن من الممكن تلمس بذرة أولى من بذور موقف النقدي كما سيكون في المستقبل تحت التأثير المتزايد لديفيد هيوم ، حيث تتناثر في هذا الكتاب بعض التعليقات التهكمية على المواقف المتضادة للمذاهب الفلسفية المتصارعة . ومن بين هذه التعليقات تلميحه إلى أن الميتافيزيقا أصبحت ميدانا للمناظرات والتبارى بين الفلاسفة . فهذا التعليق السلبي يحمل بذرة الموقف الإيجابي الذي سيتخذه كنط من الميتافيزيقا مستقبلا .

وفضلا عن هذا فإن كنط صرح في هذا الكتاب برفضه للحجة الوجودية على وجود الله ، على أساس أنها تخلط بين الوجود الفكري والوجود الواقعي ، فتستنبط الوجود كمحمول من فكرة الله كموضوع . ويرى كنط أن الوجود العيني ليس محمولا متضمنا في فكرة .

ولا يعتبر رأى كنط هذا خروجاً فقط على المذهب العقلي ، بل يعتبر ضرباً له في النقطة الحساسة . وهذا يعني أن عقلانية كنط في ذلك الوقت كانت تحمل في باطنها بذور الخروج عليها ، تلك البذور التي بثها هيوم في تفكير كنط منذ وقت مبكر .

لماذا لم يستيقظ كنط في المرحلة الأولى من تفكيره ؟

ربما ينشأ هنا تساؤل هام : لماذا لم يستيقظ كنط في تلك الفترة ؟

الإجابة على هذا التساؤل ذات شقين :

أحدهما : أن كنط رغم تأثره بهيوم في بعض الأفكار ، لم يكن قد تمثل بعد كل أفكاره الثورية تمثلاً تاماً يتيح له الردة التامة عن عقلانية ليبنتس وفولف .

ثانيهما : ربما يكمن هذا الشق في الحالة الفلسفية العامة في ألمانيا آنئذ ،

فالفلاسفة الألمان - رغم انفتاحهم على الفلسفة الانجليزية بعامة وفلسفة هيوم بخاصة - إلا أنهم ما يزالوا يمثلون جزءا فعليا من التيار العقلاني التقليدى ، لدرجة أن معظمهم اعتقد لاسيما سولتزر ومندلسون ، أن من الممكن تفنيد أفكار هيوم رغم أهميتها وعمقها الملحوظين ، ولذلك فهم ليسوا قلقين إزاءه كثيرا .

لكن بمجىء الستينات حدث تحول أكثر جذرية فى موقف كנט تحت التأثير المتنامى لهيوم ، وإن لم يكن قد استيقظ بعد اليقظة التامة .

ففى هذا العقد من القرن الثامن عشر أصبحت النزعة الشكية المعتدلة فى الأمور الميتافيزيقية والدوجماتيقية هى السمة العامة المميزة لعدد كبير من الفلاسفة الألمان . وقد كان كנט واحدا من هؤلاء ، اعتبر فيما بعد هذا الاتجاه اتجاها جادا عندما قال عنه :

« من الواضح أنه لم يأت نتيجة للطيش ، وإنما هو نتيجة لملكة الحكم الناضجة لهذا العصر الذى لم يعد يقنع بظاهر المعرفة بل أصبح يطالب العقل بأن ينهض من جديد بأشق مهامه ، وأقصد بها معرفة النفس ، وأن يقيم محكمة تؤمن مطامحه العادلة ، وتقضى على كل الإدعاءات الفاسدة ، لا عن طريق اللجوء إلى التعسف ، بل بالتزام قوانينه الأبدية الثابتة » . (١)

تلك الروح الشكية الناقدة لكل شىء ، التى سادت فى الستينات تحت تأثير هيوم نظر إليها كנט إذن بوصفها روحا ناضجة دالة على التفكير الجاد بل إنه اعتبرها فيما بعد مرحلة هامة بالنسبة للعلم :

« ففى كل مرة ينتقل فيها العقل من ميل إلى ميل آخر مضاد للأول ، لا بد وأن يمر بحالة حياد ، وهذه المرحلة التى تعد من أخطر المراحل التى يمر بها المؤلف هى مع ذلك من أصلح المراحل بالنسبة إلى العلم . وعندما تموت روح الحزبية نتيجة للتحلل الكلى للجماعات السابقة ، فإن العقول

1- kant, Critique of pure Reason, P. 9 .

ستكون فى حالة أحسن تهيئها للأصفاء إلى المشروعات المتعددة من أجل إعادة اتحادها طبقا لخطة جديدة^(١).

إن هذا الوصف الكنطى المذكور فى المقدمات ينطبق انطباقا كبيرا على مرحلة الستينات ، التى لم تشهد تحولا ملموسا فى موقفه هو فقط ، بل أيضا فى مواقف عدد من الفلاسفة الألمان الذين أخذوا فى الابتعاد عن لينتس وفولف .

* المرحلة الثانية من تطور كنط : دعوى جديدة يليها البرهان :

سأبدأ أولا بتقديم الدعوى ، ثم أبرهن بعد ذلك عليها من واقع نصوص كنط ، وسأكتفى حاليا بالبرهنة على أن المرحلة الثانية من مراحل تطور التفكير الكنطى كانت تجريبية محضة ، وهذه هى المرحلة التى سبقت يقظة كنط الحقيقية ، فهى ليست عقلانية دوجماطيقية كما هو شائع ، وإنما تجريبية محضة ، أما المرحلة الثالثة التى شهدت يقظة كنط الكاملة ، وهى مرحلة العقلانية التجريبية أو النقدية ، فسأبرهن عليها من واقع النص الكنطى فى القسم الأخير من هذا الفصل .

لقد كان خروج كنط من المرحلة الأولى - مرحلة لينتس وفولف - انسجاما مع روح عقد الستينات . وكان هذا الخروج نحو النزعة المضادة : التجريبية الجذرية .

وإذا كان هذا التحول قد تم تحت تأثير هيوم ، فإنه لم يكن تحولا نحو فلسفة هيوم ، لأن فلسفة هيوم - كما أثبتنا فى الفصل الثانى - ليست تجريبية صارمة . هنا تأثير هيوم على كنط تأثير سلبى ، بمعنى أنه حرر كنط من العقلانية الدوجماطيقية ، وانتزعه من بين أيديها ، لكن كنط لهذا

1- kant, prolegomen to any Future Metaphysics, ed . Beck, p. 116 .

قارن الترجمة العربية ، ص ٢١٢ ، حيث يوجد اختلاف بينها وبين الترجمة الانجليزية التى اقتبسنا منها هذا الاقتباس .

انجذب انجذابا كبيرا ، لا نحو التجريبية المعقلنة عند هيوم ، وإنما نحو التجريبية المحضة . وهكذا حسب قوانين الجدل يسير الفكر الكنطى من النقيض إلى النقيض ، أما مرحلة الجمع بين النقيضين ، والتي حدث فيها التحول الحقيقى نحو فلسفة هيوم ، فستكون فى مرحلة لاحقة .

*** مؤلفات كنط تبرهن على أن المرحلة الثانية من تطوره كانت**

تجريبية محضة :

ظهر لكنط فى تلك المرحلة عدة مؤلفات ينتظمها عقد واحد هو مراجعة النظريات الميتافيزيقية السابقة مراجعة نقدية تستند إلى الواقع التجريبى بهدف فحص الأساسات التى تستند إليها ، وتخليصها من جميع التأملات سواء كانت تقوم على براهين غير محكمة أو كانت قابلة لإقامة البرهان عليها أصلا .

فصدر له سنة ١٧٦٢ كتاب «بيان ما فى أشكال القياس الأربعة من تخدلق زائف» يفند فيه ذلك النوع من المنطق الذى يعتمد فى تكوين المعرفة على التصورات والمفاهيم وحدها ، ويرى كنط أن المنطق لا يقدم معرفة جديدة لأنه يستخرج من التصورات ما هو متضمن فيها عن طريق التحليل ، وليس من شك أن اكتساب معرفة جديدة لا يتأتى بالتحليل وإنما بالتركيب . ولذا فإن كنط ينتقد المعرفة التأملية المحضة التى ظنت أن العقل وحده بقوانينه وعملياته المختلفة ينطوى على معرفة ، وأن هذه المعرفة مطابقة للواقع ، وبرهن كنط على أن الفكر فى مثل هذا النوع من المعرفة قد ابتعد عن الواقع محمولا على أجنحة المنطق المجرد ، وارتفع إلى سماء التأمل بواسطة الاستنباطات الاعتبارية ، دون أن يقدم البرهان على أنه مازال ملازما لأرض الواقع .

ومن هنا يعلن كنط تهافت كل الميتافيزيقيات المدرسية التى شيدت صروحا فكرية ضخمة ناطحت فى ارتفاعها السموات ، مستندة فى ذلك إلى

المنطق الأرسطى وحده . ولقد بدت مثل هذه المنظومات الفكرية جديدة بالاحترام فى نظر من لم يتمكن - أو من لم يرد - مشاهدة الدعامات الواهية التى قامت عليها ، لكنها تراءت على حقيقتها المزيفة لكل من تمتع بحس نقدى مكنه من التعمق حتى أساساتها .

لقد انصب غضب كنت فى هذا الكتاب فى الدرجة الأولى على «رياضة العلماء» وعلى ولعهم المفرط بالنقاش الخلافى ، ولاسيما فى ميدان الميتافيزيقا ، يقول :

«تتراكم فى عصرنا الأشياء الجديدة بالمعرفة وسوف تصبح قريبا مقدرتنا ضعيفة ، ويغدو زمن حياتنا قصيرا جدا ، حتى نستوعب منها الجزء الأكثر منفعة فحسب . ثمة ثروات تعرض نفسها علينا بصورة فائضة وينبغى لنا إطراح الكثير من سقط المتاع مجددا فيما لو شئنا تقبل تلك الثروات وتلقيها . وأنه كان من الأفضل لنا ألا نثقل كاهلنا بتلك الأمور أبدا» .^(١)

والشئ الذى يطلق عليه كنت هنا تسمية «سقط المتاع» أو الأسلاب اللامجدية والذى ينبغى التحرر من عبئه ليس الإيمتافيزيقا عصره .

إن هذا الموقف النقدى من الميتافيزيقا لا يمكن أن يفسر بمعزل عن تأثير هيوم الذى سبق أن اتخذ موقفا مماثلا منها فى كتبه المختلفة ، لا سيما وأن الأسس التى يرتكز إليها الموقفان تكاد تكون واحدة ، وقد أفضنا من قبل فى إثبات ذلك فى فصل الميتافيزيقا ويكفى هنا أن نشير هنا إلى أن كنت فى هذا الكتاب - مثله مثل هيوم - قد انتقد المعرفة المنطقية القائمة على التصورات المجردة وحدها والتى لا تستند إلى الواقع التجريبي . كما انتقد فى هذا الكتاب علانية الميتافيزيقا التأملية . هذه هى أول قرينة نقدمها على أن المرحلة الثانية من تطور كنت الفكرى لم تكن عقلانية ميتافيزيقية ، وإنما كانت تجريبية - ضدا على العقلانية الميتافيزيقية .

١- أوفى شولتز ، كانط ، ترجمة د/ أسعد رزوق (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٥) ص ٩٦ - ٩٧ .

ويزداد هذا التأثير الهيمومي في توجيه كنط نحو التجريبية الجذرية مع ظهور كتابه : «محاولة لإدخال المقادير السالبة في الحكمة العالية» سنة ١٧٦٣ م .

ففي هذا الكتاب تخلى كنط تماما عن حججه العقلية التي تبرهن على الضرورة المنطقية للأحكام السببية . كما اتخذ في هذا الكتاب نفس الموقف الذي سبق أن اتخذ هيوم من الميتافيزيقا الدوجماتيقية . ولا أدل على هذه النقطة الأخيرة من أن كنط في موقفه من الميتافيزيقا قد استند إلى نفس مستند هيوم عندما قال بعدم إمكانية معرفة طبيعة الله ، حيث يستشهد كنط في هذا الكتاب بنفس الاستشهاد الذي سبق لهيوم أن استشهد به ، وقد ذكرناه في فصل الميتافيزيقا - أقول إن كنط قد استشهد - مثل هيوم - بقول سيموندس (شاعر يوناني ٥٥٦ - ٤٦٧ ق.م) الذي قال فيه :

«كلما فكرت في الله ضاع مني ، لأن علاقة الله بالأشياء تخالف علاقتنا بها» . (١)

فنتظرا لأنه عن المبدأ تصدر النتيجة (مشكلة منطقية) ، وعن الشيء يصدر شيء آخر (مشكلة واقعية) ، وهناك ضربان من التقابل : تقابل منطقي وتقابل واقعي ، فإن من غير المشروع وجوديا القول بصدور العالم (واقع) عن الله (فكر) ، لأن المحمول الواقعي لا يصدر عن المحمول المنطقي ، أي أن الواقع لا يصدر عن الفكر خلافا لما يقول العقلانيون الميتافيزيقيون .

هذا فيما يتعلق بموقف كنط من الميتافيزيقا المتأثر بهيوم في هذا الكتاب أما بالنسبة للمسئلة الأولى ، وهي تخلى كنط عن حججه العقلية التي تبرهن على الضرورة المنطقية للأحكام السببية . فقد رأى كنط أن الضرورة المنطقية تعتمد على الهوية وعدم التناقض ، ولكن من الممكن أن يتم إنكار أى حكم

١- عن د/ حسن حنفي ، في الفكر الغربي المعاصر ، الجزء ٢ من : قضايا معاصرة (بيروت : دار التنوير ، ١٩٨٢م) ص ١٢١ .

سببى دون الوقوع فى تناقض ، ولا يستلزم التعبير عن الهوية وجود رابطة سببية بين الأشياء غير المتماثلة: «إن المطر لا يتبع أبدا الرياح بسبب من قانون الهوية» . (١)

ويبلغ كنط بقوله هذا قمة التجريبية والخروج على العقلانية الفولفنية ، إذ ينقد هنا محاولة فولف لإرجاع مبدأ السبب الكافى إلى مبدأ التناقض ، وبالتالي ينقد إرجاع الحقائق الفعلية إلى الحقائق القبلية . فهذا الإرجاع يقوم فى نظر كنط نتيجة لخلط بين ضربين من التقابل :

التقابل المنطقى والتقابل الواقعى . ويبين كنط كيف أن هذين النوعين من التقابل مختلفين تماما عن بعضهما البعض ، ففى الحكم الشرطى المنفصل الذى يفترض عن شىء ما : أن هذا الشىء هو إما (أ) أو (ب) ، يعنى الأمر تناقضا منطقيا عندما يتم وضع (أ) و (ب) معا فى آن واحد ، فإما أن يكون الجسم متحركا أو ساكنا ، ولا يعرف المنطق المجرد حالة ثالثة غير أن الواقع يعرف هذه الحالة الثالثة ، وذلك عندما يكون الجسم فى سكون بالنسبة إلى جسم آخر ، ويكون متحركا بالنسبة إلى جسم ثالث . فالمقدار السالب الذى لا مكان له فى عالم المنطق وينبغى استبعاده منه باعتباره تناقضا محضا ، يتحول فى عالم الواقع إلى شىء موجب . (٢)

وهكذا فإن العقلانيين يخلطون بين هذين النوعين من التقابل ، إذ يعتقدون أن تقرير واقعة يتضمن أو يستبعد تقرير واقعة أخرى ، فمن الممكن منطقيا إذا وضعنا الإثبات أن نستنتج منه نفى النفى ، لكن فى حالة القضايا الواقعية لا يوجد مثل هذا الاستنتاج فكيف «يمكن أن أفهم : لأن شيئا ما موجود ، أن شيئا آخر يأتى إلى الوجود أو يمتنع عن الوجود ؟» . (٣)

1- kant, werke Akademie Ausgabe, vol. p. 203 quoted in : Beck, "A prussian Hume and a Scottish kant" p. 114 .

٢- بتصرف عن : أو فى شولتز ، كانط ، ص ٩٨ .

٣- مقتبس عن : برهيه ، تاريخ الفلسفة : القرن الثامن عشر ، ص ٢٤٨ .

إن كنت بالتأكيد يتحدث كما لو كان هيوم ، الأمر الذي يجعلنا نقرر أن العلاقة بينهما في تلك الفترة لم تصل فقط إلى حد التشابه ، وإنما تجاوزت ذلك إلى حد التماثل الذي يكاد يكون تاما في هذه المسألة .

ومن هنا يتضح لنا ضعف وجهة النظر الذي يذهب إليها بيك عندما قال :

« لا يستطيع المرء أن يكون متأكدا من أن هذه الأفكار الجديدة راجعة لقراءة كنت لهيوم ، لأنه يوجد فيلسوف آخر من مواطني كنت أثر فيه على نحو واضح ، وكانت أفكاره متحركة في نفس الاتجاه إنه كريستيان أوجست كروسيوس خصم الفولفية الذي قال بأن (لو جاز لي أن أستخدم مصطلحات كنت الأخيرة) مبدأ السببية ، مثل أي مبدأ سببي محدد ، تركيبي وليس تحليليا ... »^(١)

ولاشك أن بيك قد جانب الصواب عندما ذهب هذا المذهب ، لاسيما وأنه شخصيا يؤكد أن كنت قد قرأ في هذا الوقت ترجمة سولتزر للبحث .

ربما ظن مستر بيك أن تلمذة كنت على يد كروسيوس هي المسؤلة عن إحداث ذلك التغير في تفكير كنت ، خاصة وأن كروسيوس كان خصما لفولف وهذا ظن خاطيء ، لأن أفكار كروسيوس لم تكن بالعمق والمنطقية اللذين يكفلان أحداث ثورة عندما تصطدم بأفكار فولف المستقرة في عقل كنت ، « إن في وسع الإنسان أن يضرب حجرين طريين الواحد بالآخر بشدة ، لكن لن ينتج عن ذلك شرارة . ولم يكن من شأن كروسيوس أن يحدث تغييرا كبيرا ، لأن هذا نفسه لم يكن موجودا فيه »^(٢)

وينسحب هذا الرد بالضرورة على ما قاله هرمان فليشاور في كتابه «تطور التفكير الكنتي» :

1- Beck, "A purssian Hume and a Scottish kant's p. 114 .

2- E. Adickes, kantstudien, s 67 .

«ويعتبر وصف السببية صورة طبق الأصل لذلك الوصف الذى قدمه هيوم ، لكن لا يوجد مطلقاً أدنى ما يلفت النظر لاكتشاف تأثير هيوم فى «محاولة لإدخال المقادير السالبة فى الحكمة العالية» ... ودعنا نقول على سبيل الاستنتاج أن كنت فى سنة ١٧٦٣ قرأ عمل هيوم دون أن يصبح مذهبه النقطة البؤرية للضرورة المدهشة فى أفكار كنت ، فنيوتن وكريستوس إسهما أكثر فعالية فى انهيار الفولفية فى عقله»^(١)

ويتقدم كنت خطوة أخرى نحو التجريبية عندما يقرر فى كتابه بحث فى وضوح مبادئ اللاهوت الطبيعى والأخلاق «الصادرة سنة ١٧٦٣ م - أن الرياضيات لا تصلح للاستخدام فى مجال الفلسفة ، لأن هذه الأخيرة ينبغى أن تعتمد على معطيات التجربة . أما الرياضيات فإنها تقوم على تعريفات معطاة قبلاً بشكل تام .

ولقد عاود كنت فى هذا الكتاب استخدام حجة التعارض القائم بين الفكر والواقع كى ينفى عن الرياضيات ومنطقها الإدعاء المطلق بأنها تمت بصلة وثيقة وملزمة للواقع الفلسفى وأكد على أن الشئ الذى يقال بصورة منطقية صحيحة ، لا يمكن إنكاره أو دحضه ، بل هو يتبع بالضرورة قوانينه الخاصة . وهى قوانين عدم التناقض ، ليست قوانين الواقع ، ومن هنا يرى كنت أن العقل المنطقى لا يعثر فى داخله على وقائع محددة ، بل يجد مبادئ عامة خالية من أى مضمون ، مثل مبدأ الذاتية الذى لا يقدم بذاته موضوعاً للعلم ، ومثل فكرتى الكمال والواجب اللتين تعدان فى المذهب العقلانى فكرتين جوهريتين تقوم عليهما الأخلاق ، ففكرة الكمال لا نعرفها بالكامل الذى ينبغى أن نجد فى السعى إليه وما فكرة الواجب إلا فكرة الضرورة القانونية الخالية من أى لون من ألوان التحديد .

وبناء عليه ، فإن الرغبة إذا كانت تتجه صوب معرفة شئ عن الواقع ، فالأمر يحتاج إلى الخبرة ، وهى المعيار النهائى الذى ينبغى أن تقاس عليه كل دعوى فلسفية .

1- Herman Vleeschauwer , The Development of kantian Thought , .

إن تأثر كنط بالآراء التي قدمها هيوم على لسان فيلون في «محاورات في الدين الطبيعي» «يبلغ هنا الأوج» ، إذ يذهب إلى ذات الرأي الذي تم الإلحاح عليه في تلك المحاورات ، وهو أن من الممكن التفكير في كثير من الأمور ، ومن ضمنها مفهوم الله ، بشرط أن يحدد هذا المفهوم بوضوح ، لكن هذا لا يعنى تقديم البرهان على حقيقة الله وطبيعته ، لأن طبيعة الله تند عن المعرفة البشرية .

والتأثير الذى لا يمكن لأحد - يتمتع بالقدرة على الحكم السليم - أن ينكره ، هو تأثير هيوم الساطع على كنط فى بحثه «البرهان الممكن الوحيد على وجود الله» الصادر سنة ١٧٦٣ ، الذى ينقد فيه كل الأدلة القبلية والبعدية على وجود الله عدا دليل واحد فقط ، ويوجه فيه ضربات عنيفة الى الميتافيزيقا التقليدية ، فهى :

«بدون أساس ، أنها محيط مظلم لا ساحل له ولا منارات ، وصاحبها شبيه بملاح يبحر فى بحر لا محدود ، وإذا ما نزل برا فحص عن رحلته فربما تكون بعض التيارات البحرية قد ضللت سيره ، بالرغم من كل الاحتياطات التى هيأها له فن الملاحة» .^(١)

وعرب كنط عن مدى التردد والحيرة التى تنتاب المشتغل بعلم الميتافيزيقا حيث يجد تفكيره تارة يجنح إلى اليقين ، وتارة أخرى إلى الشك بقوله :

«يوجد وقت يثق فيه الإنسان وهو يدرس علما كالميتافيزيقا أنه يستطيع أن يوضح كل شئ وأن يبرهن على كل شئ ، ثم يأتى وقت آخر لا يتجاسر المرء على الخوض فى مثل هذه المباحث إلا وهو يشعر بالفرع وعدم الثقة» .^(٢)

١- نص مقتبس عن عبدالرحمن بدوي ، امانويل كنت ، ص ١٤٧ .

٢- المرجع السابق ، نفس الموضع .

لكن هذه الحيرة لا تسيطر على كنط طويلا ، فها هو ذا يجنح إلى الشك فى كل الأدلة التى قدمها الميتافيزيقيون على وجود الله ، عدا دليل واحد ، سيتخلى عنه مستقبلا فى «نقد العقل المحض» .

ويقسم كنط الأدلة على وجود الله إلى أدلة قبلية وأدلة بعدية ، وهو نفس التقسيم الذى ألمح إليه هيوم من قبل فى المحاورات .
وتتمثل الأدلة القبلية فى دليلين ، هما :

١ - الدليل الوجودى :

يعتبر كنط هذا الدليل بمثابة الشرط للأدلة الأخرى ، وفيه يتم الانتقال من الممكن إلى الوجود ، ولا يكون الانتقال من ممكن أيا كان ، ولكن من الله باعتبار أنه ممكن إلى وجود الله ، أى الانتقال العقلى من تصور الكائن الكامل إلى وجود هذا الكائن .

وفى هذا الدليل يعتبر الممكن ، أو التصور ، أو فكرة الله ، أصلا أو أساسا ويعتبر الوجود نتيجة .

وقد انتقده كنط على أساس أن الوجود فيه مستنبط باعتباره محمولا لفكرة الله المعتبرة موضوعا . ولكن الوجود ليس محمولا ، بل هو وضع مطلق والمنطق عاجز عن استنباط الواقع من حيث هو نتيجة ، من الممكن أو المجرد من حيث هو مبدأ .

٢ - الدليل الكنطى الجديد :

وفيه لا يتم النزول من الممكن كنتيجة إلى وجود الله كمبدأ ، لأن الممكن لا يمكن تعقله بما هو كذلك إلا بالإضافة إلى كائن موجود ضرورى لولاه ، لكان الممكن مستحيلا .

ويلاحظ أن هذا الدليل يبدأ مثل الدليل الوجودى من ممكن ما ، ولكن ليس الممكن الذى هو الله ، بل يبدأ من الممكن على العموم لكى ينتهى إلى موجود ضرورى إلى موجود كامل .

فإذا كان الدليل الوجودى يهبط من المبدأ إلى النتيجة ، فإن الدليل الكنطى على العكس يرتفع من النتيجة إلى المبدأ ، أى من الممكن باعتباره نتيجة إلى الوجود الضرورى فالكامل باعتباره شرطا .

ويمكن أن يتم النظر إلى الممكن من ناحية صورته ومن ناحية مادته : أما صورة الممكن فلا تخرج عن كونها علاقة ، غير أن العلاقة تفترض حدودا ، أى تفترض مادة . ومن الممتنع إلا يوجد شيء البتة لأن المعطيات أو مادة الممكن ستكون حينئذ معدومة ، وسوف يعدو الممكن مستحيلا . وهذا تناقض . إن الممكن حتى لو كان منطقيا ، يفترض وجود كائن ضرورى .

ويزيد كنط على ذلك أن الوجود الضرورى على هذا الوضع لا يمكن أن يكون شيئا غير الموجود الكامل ، لأن الكمال وحده هو الذى يمكن أن يفى بتصور الضرورة والموجود الكامل وحده هو الذى يملك فى ذاته علة وجوده .

وقد استنبط كنط هذا الدليل من تأمله فى فلسفة فولف ، ويزعم أنه دليل جديد تماما ، وهو وحده الدليل الممكن لإثبات وجود الله . ولو أمكن جعل هذا الدليل أساسا لجميع الأدلة الأخرى لأصبحت تلك الأدلة صحيحة .

هذا وفى ظنى أن انتقاد كنط للدليل الوجودى والدليل الكونى ينسحب أيضا على هذا الدليل الممكن الوحيد من وجهة نظره ، لأنه هو أيضا يقفز باستهتار بين حد التقابل القائم بين الفكر والواقع ، كما أنه مثلها يفترض وجود رابطة بين الوجود الضرورى والكمال .

بهذا يتبقى أمامنا الأدلة البعدية ، التى يقسمها كنط أيضا الى دليلين رئيسيين ، هما :

١ - الدليل الكونى :

فهو يستنتج وجود علة أولى من وجود العالم ، فيقفز باستهتار فوق حد التقابل القائم بين الفكر والواقع ، ذلك أن العالم حقيقى بالفعل ، لكن العلة هى من عمل الفكر فقط ، ولا يؤكد الواقع الفعلى صحتها .

وهذا الدليل هو دليل فولف : إذا وجد شيء ما ، لزم ضرورة ، بفعل مبدأ التناقض ، أن يوجد موجود ضرورى وكامل .

لكن الانتقال من وجود إلى وجود آخر ليس عملية منطقية بحتة . ومبدأ السببية هو مبدأ الموجودات لا يمكن إرجاعه إلى مبدأ عدم التناقض .

وبالإضافة إلى هذا فإنه لو تم التسليم بصحة الاستدلال الذى يذهب من موجود معطى إلى الموجود الضرورى ، فسوف يبقى دليل فولف على ما هو عليه دليلا غير مشروع ، لأنه يحاول أن يرتفع من الوجود الضرورى إلى الموجود الكامل . وهاهنا يصبح دليل فولف بالضرورة دليلا وجوديا يلتقى مع دليل ديكارت ، ومرجع ذلك إلى أن تصور كائن ضرورى بإطلاق ليس تصورا تجريبيا ، بل هو تصور خالص ، كما أن الرابطة بين الوجود الضرورى وبين الكمال هى على وجه التحديد موضوع الدليل الوجودى . وهكذا يفترض دليل فولف دليل ديكارت وهو الذى كان يهدف إلى الاستعاضة عنه .

٢ - دليل الحلة الخائية :

الذى ينتقل من القول بوجود التدبير والنظام فى الطبيعة إلى القول بوجود مدبر منظم فوق الطبيعة .

ويضرب كنط المثل على هذا الدليل بـ « ريماروس » وينتقده على أساس أن كمال العالم نسبى ، فلا يدل فى ذاته على موجود كلى الكمال . ويرجع هذا الدليل كذلك إلى الدليل الوجودى .^(١)

إن كانط إذ يوجه تلك الانتقادات العنيفة إلى الأدلة على وجود الله ، إنما يؤكد تأثيره الشديد بانتقادات هيوم التى وجهها إلى جميع الأدلة القبلية والبعدية على وجود الله وطبيعته فى كتابه « محاورات فى الدين الطبيعى »

١- بتصرف شديد عن : اميل بوترو ، فلسفة كانط ، ترجمة عثمان أمين (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢م) ص ٢٤٣ - ٢٤٥ .

لكن كنط مازال يحتفظ بدليل واحد فقط ، يمثل بقايا الفولفنية فى عقله .
يبد أن معاول النقد الهيومى ستعمل عملها فى القضاء على تلك البقايا
ومحوها إلى الأبد من عقل كنط .

ويتضح مدى تأثير كنط بهيوم فى هذا الصدد لو رجعنا رجوعا سريعا
وخاطفيا ، بقدر ما يسمح السياق هنا ، إلى تفنيدات هيوم فى المحاورات ،
فسنجد أن من بين المحاور الهامة التى تتمحور حولها تلك التفنيدات - أن
التصور الذهنى لشيء لا يستلزم أنه موجود فعليا ، لأن المحك الوحيد فى
الحكم بوجود شيء هو الواقع الفعلى لا المنطقى ، فالحديث عن العلاقات
السببية لا يكون بذى معنى إلا إذا كانت تلك العلاقات قائمة بين حالات
تحدث فى عالم الأعيان ولا يكفى فى هذا الصدد الوجود العقلى أو الإمكان
المنطقى . وكيفما يكون «الله» فهو يقينا ليس من الأمور التى يمكن التحقق
منها عن طريق الخبرة البشرية .

فضلا عن سائر الاعتراضات التى أثارها هيوم أمام الدليل العلة الغائية ،
ودليل المحك الأول ، ودليل الوجود الضرورى ، ولاشك أن هذه الاعتراضات
كان لها أبلغ الأثر فى كنط وقد تأكد لنا هذا من واقع مقارنة نصوص كنط
بنصوص هيوم فى الفصل الخاص بالميتافيزيقا .

وهكذا نجد أن تأثير هيوم فى كنط كان عميقا منذ اللحظات الأولى ، ولم
يأت بشكل مفاجئ فى الفترة الأخيرة من تطوره - كما تحاول أن توحى
بل تؤكد بعض الدراسات - فقد كان هذا التأثير يتزايد ويتغلغل فى عقل
كنط فى كل مرحلة يمر بها .

وحتى هذه المرحلة - مرحلة ١٧٦٣ - كان أثر هيوم فى كنط قد بلغ
نصف مداه تقريبا ، لأن التفنيدات التى يوردها كنط هنا للأدلة على وجود
الله ، هى ذاتها التفنيدات التى سيذكرها كنط لاحقا فى «نقد العقل
المحضر» ، ولا يزيد النقد فيما يتعلق بهذه المسألة إلا تفنيد الدليل الذى اعتبره
كنط هنا الدليل الممكن الوحيد على وجود الله .

أقول إن تأثير هيوم فى كنط قد بلغ نصف مداه تقريبا فى هذه المرحلة ، لأن الأثر الحقيقى الذى ستكتمل معه يقظة كنط ، ويذهب الغشاوة تماما عن عينيه ، سيحدث عندما تتكشف لكنط مشكلة النقائص ، ويتبين له أن رفض العقلانية الحالية لا يعنى أن الحل فى التجريبية الصارمة . فإذا كانت العقلانية المتزمتة توقعنا فى أوهام ، فإن التجريبية الجذرية لا تقدم يقينا ، لأن التجربة لا تكفل الضرورة والكلية ، وهما شرطا أية معرفة يقينية .

وحتى هذه اللحظة لم تكن مشكلة النقائص قد تكشففت لكنط ، ولم يكن مدركا لضعف الموقف التجريبى المحض ، فقد كان ما يزال منشدا انشدادا كبيرا نحوه .

ولعل هذا الانشداد نحو التجريبية المحضة يتجلى لنا فى كتابه الصادر سنة ١٧٦٦ « أحلام رائى أرواح مفسرة بأحلام الميتافيزيقا » . وقد لا يكون المرء مبالغا فى تتبع أصول فلسفة كنط عند هيوم لو أشار إلى أن فكرة هذا الكتاب قد ألمح إليها هيوم ، ولو من طرف خفى ، فى « رسالة فى الطبيعة الإنسانية » عندما تحدث عن الاستدلال الصحيح والاستدلال الخاطىء المبني على وهم . وذهب هيوم إلى أن الشخص الذى يقوم باستدلال سليم مثله مثل الشخص الذى يسمع صوتا إنسانيا فى الظلام ، فيستدل من ذلك على وجود شخص آخر . ومثل صاحب الاستدلال الخاطىء مثل الشخص الذى يعانى من رؤية « هلاوس » ، فيرى أشباحا فى الظلام لا وجود لها فى الحقيقة ، وإنما هى من خلق خياله المريض . وقد اعتبر هيوم أن ما يتحدث عنه الفلاسفة القدماء من أمور ميتافيزيقا إنما تشبه الأشباح التى تتراءى للواهمين فى الظلام ، فقال :

« تشبه آراء الفلاسفة القدماء ، وخیالاتهم المتعلقة بالجواهر والعرض واستدلالاتهم الخاصة بالصور الجوهرية والصفات الغامضة - تشبه (رؤية) الأشباح فى الظلام ... »^(١)

1- Hume, A Treatise of Human Nature , p. 226 .

وإذا ما تجاوزنا فكرة كتاب كنت وعنوانه ، إلى مضمونه ومحتواه ، فسنجد انه يتحدث بأسلوب يماثل هيوم لدرجة جعلت أرست كاسيرر Ernst Cassirer يقول عند حديثه عن محاولة كنت للاحتفاظ بالأصل المعقول للأخلاق في نفس الوقت الذي يرفض فيه الثثرة الصوفية والميتافيزيقا التأملية الدوجماتيقية :

«إن تكريس هذه المسألة ، التي أصبحت من الآن فصاعدا أكثر مركزية والتي غطت كل تطور كنت العقلي من (أحلام رائي أرواح مفسرة بأحلام الميتافيزيقا) إلى (صورة ومبادئ العالمين المحسوس والمعقول) - هو ما يمثل موقف كنت الذي أصبح من الواضح توجهه ، ايجابيا وسلبا ، نحو نظرية هيوم» . (١)

ويؤكد كاسيرر هذا بما يقوله كنت في خطابه لهردر المؤرخ - ١٧٦٨ م من أنه أقرب إلى هيوم في توجهه العقلي الكلي ، فهيوم يحتل المكانة الأرفع بين معلمى وأساتذة «مدينة العقل» الفلسفية الحققة . (٢)

ويفترض كنت في هذا الكتاب - من الناحية النظرية المحضة على الأقل ، صراحة ودون تحفظ - صحة النتيجة الحاسمة لمذهب هيوم .

فمجرد التحليل التصوري الذي يتم وفقا لمبادئ الهوية والتناقض ، لا يمكن أن يقدم معرفة عن أى نوع من أنواع «الواقع الأساسى» هذه الحقيقة التى أعلنها كنت بالفعل فى مقالته «فى المقادير السالبة» أصبحت الآن بالنسبة له أكثر ثباتا وعمقا :

« كيف يمكن لشيء ما أن يكون سببا أو يمتلك قوة ؟ »

1- Cassirer, kant's life and Thought, p. 90 .

2- Ibid ., 91 .

لقد أصبح مقتنعا تماما أنه لا يمكن أبدا أن تتم المعرفة عبر « العقل » بواسطة مقارنة التصورات طبقا لمقاييس الهوية والتناقض ، وإنما « تستمد المعرفة بهذه العلاقة الأساسية من التجربة فحسب » .^(١)

يصر كنت في هذا الكتاب - الذى بلغ فيه أقصى درجة من درجات التجريبية - على أن الروابط السببية لا هى معقولة ولا هى مؤسسة فى العقل ، لكنها تظهر لنا بوصفها كذلك ببساطة مألوفة لنا عبر التجربة المتكررة : « أن كون إرادتى قادرة على تحريك ذراعى ليس أكثر فهما لى مما لو أخبرنى شخص ما بأنه مستطيع أن يوقف القمر فى مداره »^(٢) ؛ « فحشيات العقل ، التى تستخدم كحجة مع أوضد إمكانية أو استحالة الشئ لا علاقة لها بالموضوع إطلاقا ، إن الحق فى الحكم يجب أن يترك للتجربة وحدها »^(٣) .

وانطلاقا من التجربة يقوم كنت فى أسلوب هيومى تهكمى بتفنيد إدعاءات سويد نبرج الذى كان يزعم أنه على صلة بعالم الأرواح ! وفى نفس الوقت يفند إدعاءات الميتافيزيقيين التأمليين ، فهم من وجهة نظره يشبهون ذلك الرأى ، ووجه الشبه بينهما هو الأحلام ، لكن أحلام سويد نبرج تنشأ عن خيال شديد التهيج ، بينما أحلام الميتافيزيقيين تنشأ عن العقل الذى يطلق له الميتافيزيقيون العنان حتى يجاوز حدود التجربة وتصبح أراؤه متنافية تماما مع الواقع .

1- Kant, Dreams of a Spirit _ Seer, Pt. 2, Chapter 3 (II, 387)

(AK. II, 370) q uoted in cassirer, Loc. Cit .

2- AK. II, 370.

وجدير بالملاحظة أن المثل وأسلوب التعبير الذى استخدمه كنت هنا هو المثل نفسه وأسلوب التعبير الذى استخدمه هيوم من قبل فى كتابه :

An Enquiry Concerning Humar. Understanding, P. 65.

3- AK. II, 371.

ويدافع العقليون عن تأملاتهم بأنها تسير وفق قانون عدم التناقض الذى يكفل يقين المعرفة ، وفى الوقت ذاته يميزها عن التخيلات والأوهام .

يفند كנט هذا الدفاع الواهمى ، على أساس أن قانون عدم التناقض يحكم أيضا عالم الأحلام والتخيلات والخرافة ، فهذا العالم له نظامه ومنطقه المحكم الذى يجعل نتائجه متسقة مع مقدماته ، أى أنه خاضع أيضا لقانون عدم التناقض . وبناء على ذلك لا يمكن اعتبار هذا القانون محكا للتمييز بين الحلم والواقع .

إذن ما هو المحك الحقيقى والمعيار الذى لا يخطئ ؟

إنه التجربة .. وهى لا تقدم أى نوع من المعارف عن الموجودات الروحية التى يتحدث عنها الرأى .

ويرى كנט أن الميتافيزيقيين لا تخرج حالتهم عن إحدى حالتين :

فأما أن تكون لديهم تجربة مباشرة عن تلك الموجودات ..

وإما أن يعترفوا بأنهم لا يدرون شيئا عنها .

وفى الحالة الأولى سيدرجون فى زمرة الواهمين والحالمين .

أما فى الحالة الثانية فستكون الميتافيزيقا ما ينبغى أن تكون عليه ، أى علم حدود العقل البشرى .

ولا شك أن هذه الحالة هى التى أراد هيوم أن تكون الميتافيزيقا عليها .

ومن الواضح أن كנט يستخدم هنا قياس الإحراج ، ومن الواضح أن استخدامه هذا يفترض أن كل معرفة إما أن تكون مؤسسة على الواقع الفعلى أولا تكون معرفة على الإطلاق ، أى أن الواقع هو معيار صحة أو بطلان المعرفة (١) .

ورغم أن الآراء التى قدمها كנט فى هذا الكتاب التهكمى تتشابه إلى

1- Cassirer, Kant's Life and Thought, PP. 77-92 .

وأوفى شولتز ، كانط ، ص ١٠٥ - ١١١ .

واميل برهيه ، تاريخ الفلسفة ، القرن الثامن عشر ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

حد بعيد مع الآراء التي قالها هيوم أو كان من المتوقع أن يقولها لو قرأ قصص سويدنبرج الخيالية رغم ذلك يقول بيك متابعا تونللي^(١) للمرة الثانية :

« لا يوجد سبب حاسم لعزو هذه المقالة إلى تأثير هيوم في كنط . فمثل هذه الآراء التي ذكرتها كانت مقبولة على نحو واسع النطاق في ألمانيا آنئذ بين العلماء الطبيعيين مثل موبرتوس ، والفلاسفة المعادين للفولفنية مثل كرسوس ، ومدرسته الواسعة ، والمتنورين في برلين . إن النتائج الشكية التي هي معلم بارز لبحث هيوم لانكاد تكون هنا أكثر من آراء غابرة ... ومعظم الأفكار الهيومية الموجودة في هذه المقالة كانت ذائعة في هواء ألمانيا ، وإنه لمن الصعب أو المستحيل إرجاعها إلى مصدر واحد »^(٢) .

إن هذا الرأي غير المثبت لن نرد عليه هنا حتى لا نقع في التكرار فقد سبق أن رددنا عليه مرتين عندما حاول أصحابه نفى تأثير هيوم المبكر في كنط .

*** المرحلة الثالثة : العقلانية التجريبية : إثبات أن إيقاف هيوم لكنط كان إيقافا من التجريبية المحضة لا من العقلانية الميتافيزيقية :**

تكشف حتى الآن أن كنط مر بمرحلتين في تفكيره :

المرحلة العقلانية المحضة ، والتجريبية الخالصة . أما المرحلة النهائية - والتي لم تأت بعد - فهي المرحلة النقدية . وهنا يجب أن نلاحظ أن المرحلة السابقة للمرحلة النقدية مباشرة ليست بعقلانية على الإطلاق كما يقول خطأ معظم الباحثين ، وإنما هي تجريبية ، بل وتجريبية خالصة .

وقد كان دخول كنط هذه المرحلة الأخيرة تحت تأثير هيوم ، وسيكون خروجه منها أيضا تحت تأثيره . ولا يعنى تأثر كنط بنقد هيوم للعقلانية الفولفنية أن هيوم كان تجريبيا ضد العقلانية بكل أشكالها ، بل كان - كما

1- Giorgio Tonelli, " Die Anfänge Von Kants Kritik der Kausalbeziehungen und ihre Voraussetzungen im 18. Jahrhundert", Kant - Studien 57., (1966), 417 - 60. quoted in Beck " A Prussian Hume and a Scottish Kant ", P. 115.

2- Beck " A Prussian Hume and a Scottish Kant ", P. 115

سبق أن برهنا - عقلانيا ، ولكن كانت عقلانيته تقف فى أرض التجربة تنطلق منها . فهو فيلسوف عقلانى تجريبى ، أو بعبارة أخرى : فيلسوف تجريبى تجريبية معقلنة ، يرفض العقلانية الجذرية من جهة ، كما يرفض التجريبية الصارمة من جهة أخرى .

وفى نهاية المرحلة الأولى من تطور كمنط كان هيوم ينتزعه بشدة من بين أيدي العقلانية الجذرية ، لكن كمنط انشد انشدادا كبيرا ، لا نحو عقلانية هيوم المؤسسة تجريبيا ، وإنما نحو النقيض التجريبية الصارمة وهى التى تمثل المرحلة الثانية من تطور كمنط وفيها يعتبر تأثير هيوم تأثيرا سلبيا ، بمعنى أنه حرر كمنط فقط من العقلانية الميتافيزيقية . أما التأثير الحقيقى الإيجابى (= اليقظة) ، فسيحدث عندما يشكك هيوم كمنط فى التجريبية الجذرية على أساس أنها لا تكفل الضرورة ولا الكلية كشرطين للمعرفة اليقينية ، وهنا سيتحول كمنط نحو المرحلة النقدية التى سيزاوج فيها العقل بالتجربة ، سيتحول نحو فلسفة هيوم ، طبعا ليس تحولا مثل تحول المقلدين ، فما هكذا كان كمنط ، وما ينبغى له ، وإنما هو تحول المبدعين ، لكنه ليس الإبداع بمعنى التجاوز فى النتائج ، وإنما الإبداع بمعنى التعمق البرهانى والتوسع التحليلى :

« عندما نبدأ بحثنا بفكرة مبنية على أساس سليم قد نقلناها عن شخص آخر لم يتوسع فى بحثها ، فإننا نستطيع أن نأمل بأننا سنسير بفضل التأمل المستمر شوطا أبعد من هذا الرجل النابه الذى ندين له بأول شعاع من النور » . (١)

ومن الممكن أن نتوقع الآن كيف ستكون المرحلة الثالثة ، إنها حسب قوانين الجدل تمثل المركب بين الموضوع ونقيضه : بين العقلانية المحضة والتجريبية الجذرية .

1- Kant, Prolegomenena to any future Metaphysics, P.8.ed. Beck.

أهمية مشكلة النقائض فى إيقاظ كنت :

وكانت بداية هذه المرحلة عندما تنبه كنت إلى مشكلة النقائض ومشكلة الضرورة والكلية وكيف أن التجربة لا تضمنهما على العكس مما يتصور البعض من أن علة التحول تكمن فى مشكلة السببية فقط ، فلم تكن هذه المشكلة إلا جزءاً من العلة التى تمخض عنها التحول الكنتى .

إن السبب الحقيقى وراء اكتشاف كنت للمشكلة النقدية ليس أحادياً ، بل ذو شقين ، أهمهما من وجهة نظرى للشق المتعلق باكتشاف نقائض العقل . يؤكد هذا قول كنت فى كتابه مقدمات لكل ميتافيزيقا مقبلة : أن تناقض العقل المحض «يفيد كعامل قوى جداً فى إيقاظ الفلسفة من سباتها الدوجماتيقي وينبئها إلى العمل الشاق المنوط به فى القيام بالامتحان النقدى للعقل نفسه» .^(١)

ويزيد هذا الأمر تأكيداً أن كنت نفسه بين - فى خطاب متأخر جداً إلى جارفى - كيف أنه استغل تناقض العقل مع نفسه استغلالاً جيداً فى تطوره الفكرى ، يقول :

«إن تناقض العقل المحض .. هو أول شئ أيقظنى من سباتى الدوجماتيقي وقادنى إلى نقض العقل ذاته لكى أحل فضيحة التناقض الصورى للعقل مع ذاته» .^(٢)

وعلاوة على ذلك ، فإن كنت يخبرنا فى ملاحظة من ملاحظاته العامة أنه توصل أولاً إلى مذهب الفلسفة النقدية «بشكل غامض فحسب» وبرهن «على القضايا ونقائضها» ؛ لأنه اشتبه فى «وجود وهم فى الفهم» ، وينهى كنت كلامه بقوله إن سنة ١٧٦٩ م أعطته «الضوء الكبير» .^(٣)

1- Ibid. P. 86.

قارن الترجمة العربية ، ص ١٦٣ ، حيث يوجد اختلاف بينها وبين الترجمة الانجليزية المذكورة .

2- Kant, Correspondence, P. 252 .

3- Kant, Gesammelte Schriften, ed. Koniglich Preussische Akademie der Wissenschaften (Berlin., 1902), Vol. 18.

P. 69. quoted in. Kuehl, Kant's conception of " Hume's Problem", P. L83.

إذن فمشكلة النقائض هي الشق الهام في تحول كنط نحو التفكير في الفلسفة النقضية ، ولكن هل يعنى هذا تقلص دور هيوم ، إذ أن من الشائع أن أثر هيوم في كنط كان عن طريق مشكلة السببية ؟

في الواقع أن التأكيد على مشكلة النقائض في تفسير تطور كنط هو تأكيد على دور هيوم أكثر من أى وقت مضى ، لاسيما مع التفسير الجديد لفلسفة هيوم الذى حاولنا تقديمه ، والذى كشف النقاب عن تضمن تلك الفلسفة لفكرة النقائض ، على ما يظهر لنا من مجاورات في الدين الطبيعي التى أكدت على أن :

« العقل إذا نظر إليه نظرة مجردة فإنه ينتج من البراهين القوية ما يناقض بها ذاته ... » (١)

ولذا فإننا لا نخرج من البحث في الموضوعات المفارقة : « بغير الشك وعدم اليقين والتناقض » (٢) .

وعدم اليقين . وقد ألمح هيوم أيضا لهذه الفكرة في الرسالة والبحث عندما تحدث عن تناقض الخيال ، وعن أن مبادئ العقل الإنسانى التى نثق بها تقودنا « للوقوع في تناقض واضح » (٣) .

ولا أريد أن استطرد هنا في التأكيد على وجود فكرة النقائض عند هيوم؛ إذ قد سبق أن تناولتها بالتفصيل ، فضلا عن أنى سأعالجها بشكل مختلف مرة ثالثة في الفصل الأخير .

وعلى هذا فإن مشكلة النقائض ، التى لعبت دورا بالغ الأهمية في توجيه كنط نحو الفلسفة النقدية لها جذورها الراسخة في فلسفة هيوم .

1- Hume, Dialogues concerning Naturel Religion, P. L3.

2- Ibid., P. 5

3- Hume, A Treatise of Human nature, P. 266.

إثبات أن هيوم هو الذى أيقظ كنط من التجريبية :

أما الشق الثانى لسبب التحول الكنطى ، فهو مشكلة الضرورة والكلية اللتين يجب توافرهما فى الأحكام ، ومن بينهما الحكم السببى . فقد كان كنط يؤمن فى المرحلة السابقة بالتجربة كأصل نهائى للمعرفة اليقينية ، بصرف النظر عن أى دور للعقل ، فالتجربة تكفل سمى الضرورة والكلية اللتين تعتبران شرطين لكل معرفة حقيقية .

لكن عندما بلغت تحليلات هيوم الفلسفية ^(١) ذروة التفاعل فى عقل كنط ، استطاعت أن تؤدى به إلى الشك فى أن المعرفة التجريبية البحتة معرفة ضرورية كلية ، وكما يقول د. يحيى هويدى فإن : «الأحكام الضرورية الكلية بالمعنى الصحيح لهاتين الكلمتين لا يمكن أن تعتمد على التجربة ولذلك فإننا يجب أن نبحث عن مصدر آخر لها » .^(٢)

وجدير بالذكر أن كنط لم يستجب لهذا رأى فى البدء بشكل تام ، بل قاومه بعض الشيء ، إذ كان من الصعب عليه أن يتخلى عن إيمانه بأن المعرفة التجريبية معرفة كلية ضرورية . بيد أن تشكيك هيوم كان من القوة بحيث استطاع أن يضرب بشدة فى دوجماتيقية كنط التجريبية ، الأمر الذى جعل هذه الدوجماتيقية غير قادرة على الصمود طويلا أمام محاولة النقد الهيومى ، وإذ كان كنط قد قاومه فى بداية الاصطدام ، وتردد فى قبول رأى هيوم ، فإنه سرعان ما أقنع به عندما أمعن التفكير فيه . وقد تجلّى تردد كنط فى البدء من خلال تأملاته التى أشار فيها إلى : « أن التجربة لا تعطى كلية حقيقية ، لأنها لا تعطى أية ضرورة ولكننا مع ذلك نأخذ تطبيق التصور للعلّة الحقيقية من التجربة وحدها . ولهذا لا يمكن للمبادئ أن تكون عامة إلا تجريبيا فقط ، ولها أهمية تجريبية فقط ، أعنى أن شيئا يرتبط مع شيء آخر على أساس أنه علة » (التأمل رقم ٧٢٦ من «التأملات»

(١) أثبتنا فى الفصل الثانى أن هيوم أنكر كون التجربة تكفل الضرورة والكلية .

(٢) د. يحيى هويدى ، دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، ص ١٠١ .

التي نشرها بنوآردمن (Benno-Erdman) (١) .

بعد هذا الموقف المتردد والمقاومة المحدودة ذهب كנט إلى استحالة استمداد الكلية والضرورة من التجربة ، لأنها - وكما يقول بعد ذلك في نقد العقل المحض : « تعلمنا أن شيئا ما يتصف بهذه الخاصة أو تلك ، ولكنها لا تعلمنا أنه يستحيل أن يكون غير ذلك ... (كما أنها) لا تضيف أبدا على أحكامها تعميما حقيقيا ودقيقا ، وإنما تضيف عليها فقط تعميما مفترضا وتقريبيا (عن طريق الاستقراء) لا يخرج عن هذا المعنى : إن الملاحظات العديدة التي قمنا بها حتى الآن لم تدلنا على أى استثناء من هذا القاعدة أو تلك . يترتب على هذا أن الحكم الذى نتصوره مقرونا بتعميم دقيق ، أى نتصوره على نحو لا يسمح بأى استثناء على الإطلاق ، لا يكون حكما مستمدا من التجربة ، بل يكون حكما صادقا بصورة قبلية مطلقة ، وإذن فالتعميم التجريبي لا يعدو أن يكون تصعيذا (إراديا) متعمدا فى قيمة الصدق إذ نجعل من القاعدة التى تصدق فى معظم الحالات قانونا صادقا فى جميع الحالات ، كما هو الحال مثلا فى هذه القضية : كل الأجسام ثقيلة . أما حين يقوى الحكم بحسب ماهيته على تعميم دقيق ، فإن هذا التعميم يدل على أن الحكم يأتى من مصدر خاص للمعرفة ، أى من ملكة قادرة على المعرفة القبلية ، هكذا تكون الضرورة والتعميم الدقيق علامتين أكيدتين على المعرفة القبلية » (٢) .

إذن فأصل الضرورة والكلية يتمثل فى العناصر العقلانية المحضة التى لا يشوبها التجريب .

(١) د. عبد الرحمن بدوى ، إيمانويل كنت ، ص ١٤٧ .

2- Kant, Critique of pure Reason, ed. Smith, P. 43.

وقد أكد كنت على هذا الرأى فى رسالة سنة ١٧٧٠م (صورة ومبادئ العالمين المحسوس والمعقول) عندما ميز بين العناصر الحسية والعناصر العقلية فى المعرفة ، وفصل بين العالم المحسوس والعالم المعقول ، وذهب إلى أن المكان والزمان ليسا واقعيين ، وإنما هما صورتان عقليتان قبليتان تبدو بواسطتهما الأشياء للكائنات الإنسانية . وقد أفاض كنت فى الحديث عن المكان والزمان فى هذه الرسالة على حساب الحديث عن المقولات التى لم يذكر عنها إلا القليل ، يقول بيك : « رغم أن كنت قد أطل فى تفصيله لصورتى الحساسة إلى حد أن هذه المعالجة نقلت تقريبا بدون تغيير إلى الحساسة الترنسندنتالية فى نقد العقل المحض - فإنه لم يجد إلا القليل ليقوله عن الصورة العقلية المحضة » (١) .

هذا ، ولم يكن تمييز كنت بين المعرفة الحسية والمعرفة العقلية حلا فقط لمشكلة الضرورة والكلية من حيث أنهما نتاجان للعناصر القبلية فى المعرفة ، وإنما كان أيضا كشفا للخطأ المنهجى الذى أدى إلى وقوع الميتافيزيقا التقليدية فى تناقضات لا حصر لها .

إن الخطأ الأساسى للميتافيزيقا يكمن فى عدم التمييز بين العالم المحسوس (أو عالم الظواهر) بين العالم المعقول (أو عالم الشئ فى ذاته) . وعلى الميتافيزيقا إذا ما أرادت أن تتجنب الوقوع فى التناقض الذاتى - أن تفصل تماما بين هذين العالمين ، ولا تسمح مطلقا بالانتقال من أحدهما إلى الآخر ، لأن لكل عالم منهما قوانينه الخاصة التى تحكمه وما ينطبق على هذا لا ينطبق على ذاك .

هنا يمكن لنا القول بأن كنت قد وضع يده على جوهر الكشف النقدى الذى جعله يميز بعد ١١ سنة فى « نقد العقل المحض » بين التحليل الترنسندنتالى والجدل الترنسندنتالى .

1- Beck, A Prussian Hume and a Scottish Kant" P., 116.

ولكن رغم نجاح كمنط في التمييز بين المحسوس والمعقول ، فإنه قد صادف مشكلة أساسية تتمثل في الصعوبات الجديدة الغير متوقعة التي نشأت عن فكرة العناصر القبلية ، ففي خطاب لـ « برنولي » بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٧٨١م كتب كمنط يقول : « كنت قادرا بالفعل عام ١٧٧٠م على التمييز بين الجوانب الحسية والعناصر العقلانية في المعرفة الإنسانية ... ولكن عندئذ خلقت مشكلة مصدر العناصر العقلانية في معرفتنا - صعوبات جديدة غير متوقعة ... » (١) .

وتتمثل هذه الصعوبات - كما يشير كمنط في الرسالة المشهورة إلى ماركوس هيرتس في ٢١ فبراير ١٧٧٢م - في الاعتراض الذي أثاره لامبرت على تطبيق الرسالة - أعني رسالة ١٧٧٠ - للتصورات النظرية على الموضوعات . وقد اعترف كمنط أنه مشغول الآن بكتابة « نقد العقل المحض » لكنه يلاحظ أن شيئا ما جوهريا مفقود « في تفسيره لكيف يمكن أن تشير التصورات العقلية المحضة إلى الموضوعات : « إذا كانت مثل هذه التصورات العقلية تعتمد على فاعليتنا الداخلية ، فمن أين يأتي ذلك الاتفاق الذي من المفترض أنه يوجد بينها وبين الموضوعات ؟ » . (٢)

ويرفض كمنط الإجابات التي قدمها أفلاطون ، وما لبرانش ، وكريسيوس . ويدعى أنه توصل إلى القاعدة أو القواعد التي تمثل أساس اكتشاف مثل هذه التصورات ، أو بعبارة أخرى اكتشف جذر الاستنباط الميتافيزيقي للمقولات ، واستطاع أن « يحول الفلسفة الترنسندنتالية (وهي كل التصورات التي تنتمي كلية للعقل المحض) إلى عدد من المقولات المؤكدة ... » . ولعل هذا النجاح هو ما جعل كمنط يعبر عن ثقته في أنه سينتهي من كتابه « نقد العقل المحض » في خلال ثلاثة أشهر .

1- Kant, Correspondence, P. 97.

2- Kant, Correspondence, P. 72.

لكن ما الذى أدى إلى امتداد المدة من ثلاثة أشهر إلى ما يزيد عن تسع
سنين ١٩

أعتقد أن السبب الرئيسى يكمن فى الانفتاح المفاجئ للعديد من ثروات
كتاب هيوم « رسالة فى الطبيعة الإنسانية » عبر الاقتباسات الثرية الموجودة
فى كتاب بيتى « مقالة فى طبيعة وثبات الحق » الذى صدرت ترجمة ألمانية
له إبان عيد الفصح سنة ١٧٧٢ م .

لقد كان لقراءة كنط لهيوم عبر بيتى أثر كبير فى اكتشاف كنط لكثير
من جوانب فلسفة هيوم ، ولاسيما الجانب المتعلق بفكرة النقائص تلك
الفكرة التى ظنها البعض اكتشافا كنطيا ، وما هى باكتشاف كنطى . ونظرا
لأن أثر هيوم فى « نقد العقل المحض » هو أكبر أثر على الإطلاق فى فلسفة
كنط ، فإننا سنفرد لذلك الفصل القادم الذى سنجيب فيه على سؤال الأسئلة
فى بحثنا هذا ، وهو :

هل أجاب كنط على هيوم ؟

*** **

مقاله

الفصل الخامس

هل أجاب كُنت على هيوم ؟

درجت الأبحاث التقليدية على النظر إلى هيوم باعتباره صاحب إشكال فلسفى يتطلب حلا ، ومن هنا اعتبرت فلسفة كنت محاولة للإجابة على إشكال هيوم . وقد نجحت هذه المحاولة فى نظر البعض ، بينما هى فى نظر آخرين مخففة تماما ، فى حين يرى فريق ثالث أن كنت قد حل بعض جوانب الإشكال دون أن يقدم حلا لباقي الجوانب .

وربما يكون من اللافت أن نقرر أن أصحاب هذه الوجهات الثلاث المختلفة من النظر ، كانوا متأثرين بكنط نفسه فى طريقة النظر إلى علاقته بهيوم ؛ فقد صور كنت لقارئيه أن علاقتهما هى علاقة سائل بمجيب ، وكأن فلسفة هيوم كلها هى فلسفة «سؤال» ، وفلسفة كنت كلها هى فلسفة «إجابة» .

لكن لو تحرر المرء قليلا من تلك الطريقة الكنتية فى تناول العلاقة الترنسندنالية بين هيوم وكنط ، لتبين له أن إشكال هيوم - على عكس كل الأبحاث السابقة - لم يكن بحاجة إلى حل من خارج فلسفة هيوم نفسها ، لأن هذا الإشكال لم يكن إشكالا يجهل هيوم محله ، وإنما كان رؤية فلسفية محددة طرحها هيوم فى شكل تساؤل «استنكارى» فى صورة إشكال «تقيرى» ، يتضمن فى طريقة طرحه إجابته .

ولا ريب أن هذا الأسلوب الهيومى يعتبر قمة الأسلوب الفلسفى الحق على الأصالة ، فالطرح الإشكالى للقضايا هو سمة الفلسفة الحقة على النقيض من كل فلسفة دوجماتيقية زائفة تستخدم لغة الجزم والتوكيد .

إن كنت لم يجب على هيوم ، لا لأنه فشل فى الإجابة ، وإنما لأن هيوم نفسه قدم الإشكال والحل معا فى آن واحد ، فجاء كنت وعمق الحدس الفلسفى الهيومى ، ورسخه ترنسندناليا ، سواء فى جانبه الإشكالى أو جانبه الإيجابى .

هذا ، وقبل أن نبرهن على وجهة نظرنا التي نظن أنها وجهة نظر جديدة تماما ، فإن الموضوعية العلمية تحتم علينا البدء بعرض وجهة النظر التقليدية المطروحة حول هذه المسألة .

بصفة عامة ينقسم الباحثون إلى فرق ثلاث :

إحداها : تؤكد على أن كنط قد أجاب على هيوم . وينتمى إلى هذا الفريق معظم الباحثين في المسألة . نذكر منهم : سميث ، وسكرتون ، وكاسيرر ، وكوبلستون ، وشبر ، ووليمز ، وبيك .

وثانيتهما : ترى أن كنط قد حل بعض جوانب إشكال هيوم ، أما سائر الجوانب فقد تركها دون حل . ويمثل هذا الفريق : برود .

وثالثتها : فتري أن كنط لم يجب على إشكال هيوم ، ولم يقدم حلا لمعضلته الفلسفية . ونذكر من بين المنتمين إلى هذا الفريق : أليسون ، جارنييه ، سترلنج ، وبوترو .

وإذا ما بدأنا بالكاتب الإنجليزي المرموق نورمان كمب سميث - صاحب المؤلفات القيمة عن كنط وديفيد هيوم وناسر بعض كتبه وأيضاً مترجم «نقد العقل المحض» إلى اللغة الإنجليزية - سنجد له بحثاً بعنوان «علاقة كنط بهيوم وليبنيتس kant's relation to Hume and Leibnitz» .

يطرح فيه وجهة نظر غير جديدة بالمرّة في رؤية العلاقة الفلسفية بين هؤلاء الفلاسفة الثلاثة ، يرى أن أسلوب كنط في صياغة مشكلته الأساسية : كيف تكون الأحكام التركيبية القبلية ممكنة ؟ ربما تبدو وبحق للقارئ الحديث أسلوباً مفرطاً بشدة في المدرسية والعقلانية ، ويعتقد أن الأسباب التي دفعت كنط إلى هذا الأسلوب في صياغة المشكلة غامضة إلى حد كبير - لسوء الحظ - . ومن المعتقد - كما يقول سميث - أن السبب المباشر الكامن وراء هذه الصيغة للمشكلة النقدية هو مناقشة هيوم لمشكلة السببية في كتابه «بحث في الفهم الإنساني» .

وكما هو ثابت فإن كنط لم يعرف هيوم مبكرا ولا بحثه الأكثر تفصيلا المسمى «رسالة فى الطبيعة الإنسانية» الذى لم يكن له ترجمة آنثذ ، ولذا فإن رجوع كنط أو إشارته لهيوم يلزم أن تكون متعلقة فقط بالعمل الأخير .

ويبدأ سميث ببيان آراء هيوم التى يظن أنها قد نبهت كنط إلى مشكلة الأحكام التركيبية القبلية ، فىرى أن هناك فرقا جوهريا بين الرسالة والبحث ، وأن هذا الفرق يكمن - من وجهة النظر التى تأخذ بالنتائج النقدية - فى كون العمل الأول ذا مجال أوسع وله سمة أكثر راديكالية ، فالبحث يناقش فقط مشكلة السببية فى الصورة التى تظهر فيها بخاصة فى الأحكام السببية ، بوصفها الأساس الذى يؤكد بالاستناد إليه أن هذه النتيجة أو تلك يجب أن تتبع هذا السبب أو ذاك . أما فى الرسالة ، فإن هيوم - كما يقول سميث - يشير المشكلة بصورة أوسع فيما يتعلق بحق المرء فى أن يسلم بأن الأحداث يجب أن تتحدد وفقا لقانون السببية . وبعبارة أخرى لسميث : إن هيوم يتساءل فى الرسالة عن الصحة الكلية لمبدأ السببية : «إن كل الموجودات التى توجد يلزم أن يكون هناك سبب لوجودها» . فيذهب هيوم - كما يراه سميث - إلى أن البحث عن الرابطة الضرورية بين تصورين ، بين حادثة وبين السبب المتقدم عليها ، لا يسفر عن اكتشاف العقل لرابطة من أى نوع بينهما . فمبدأ السببية ليس واضحا بذاته ، وإنما هو مبدأ تركيبى . فكل من مفهوم الحادثة ومفهوم السبب إنما يعد أفكارا واضحة ومتميزة ، فيمكننا أن نتصور الحوادث دون أن يتطلب منا ذلك التفكير فى الحوادث السابقة لها والتى تعتمد عليها . وهذا المبدأ غير قابل لإقامة البرهان عليه ، ولأن رفض الصحة الموضوعية يؤدى بنا إلى أمر مستحيل هو أن الحوادث تنشأ من لا شئ ، فإن مثل هذه الحجة تكون ملائمة إذا كان المبدأ مسلما له على نحو واضح ، وبالمثل عندما يتم البرهنة على أن أجزاء الزمان والمكان منتظمة ، وأنه يجب أن يكون هناك علة ما تجعل الحادثة تتم فى لحظة واحدة وفى مكان واحد دون أى مكان أو زمان آخر ، فإن المبدأ يكون للمرة الثانية مسلما بصحته . إن المبدأ ، كما يستنتج هيوم ، ليس عقليا «إن الطبيعة هى التى

تجعلنا نصدر أحكاما كما تجعلنا نتنفس ونشعر . وانطلاقا من هذا الموقف - كما يرى سميث - لم يقم هيوم بأدنى هجوم قوى ضد الفلسفات التجريبية التي أقرت بمبادئ عامة مستمدة بواسطة الاستدلال الاستقرائي من وقائع التجربة . وإذا كانت المبادئ الواقعة في أساس تجربتنا ليست عقلية ، فنفس الأمر يجب أن يكون حقيقيا في أحكامنا التجريبية ، وبهذا الرفض للمبادئ القبلية ، والاحتكام فقط للإحساس والتجربة ، يزيل الفيلسوف التجريبي كل أسس التمييز بين الاستدلال الاستقرائي والتوقع الناشئ عن العادة .

وانطلاقا من وجهة النظر القائلة برفض إمكانية وجود تصورات كلية ومجردة ، فإن الاستدلال الاستنباطي يلزم أن يحذف أيضا من بين الوسائل الممكنة لتنظيم العقل .

تلك هي آراء هيوم التي يعتقد سميث أنها نبهت كمنط لمشكلة الأحكام التركيبية القبلية . ويرى سميث أن كمنط ظل لفترة طويلة متفقا تماما مع رأى هيوم في أن مبدأ السببية ليس واضحا بذاته ولا قابلا للبرهنة المنطقية ، وأدرك كمنط في الحال أن صحة هذا المبدأ تتوقف عليها كل مبادئ العلم والفلسفة . وقد وافق كمنط أيضا على أن الاستدلال الاستقرائي المستمد من معطيات التجربة ممكن فقط إذا كان معتمدا على القبول الأولي *A priori* للمبادئ العقلية الثابتة بشكل مستقل ، والتي لا تعتمد على التجربة عند البرهنة على صحتها . هكذا اضطر كمنط - برفض الوضوح الذاتي كصفة لما هو قبلي ، وبالإعتراف الطبيعي بصفته التركيبية - اضطر إلى قبول القياس الأقرن الذي قدمه هيوم ، إما أن يلزم قبول نتائج هيوم الشككية ، أو يلزم أن نكون قادرين على الدلالة على مقياس ما ليس عرضة لعيوب مناهج البرهنة العقلية والتجريبية ، وكاف لتحديد صحة أو عدم صحة المبادئ العامة . هل يوجد - كما يقول سميث - خيار مثل هذا ؟ إنه - كما يجيب أيضا - الخيار المتمثل في مشكلة كمنط التي عبر عنها في الصيغة الآتية : كيف تكون الأحكام القبلية التركيبية ممكنة ؟

وبعد عدة تحليلات تاريخية يقوم بها سميث مفادها التأكيد على أن الذى أيقظ كنط لم يكن هو قراءته لبحث هيوم ، وإنما اطلاعه غير المباشر على الرسالة من خلال قراءته لبحث بيتى - بعد هذا يحول سميث انتباهه نحو الفلسفة العقلية التى تعلمها كنط ويعتبر رأى هيوم القائل بأن التجربة فى حد ذاتها لا تبرر أى استدلال استقرائى الجسر الطبيعى الذى يمكنه الانتقال من خلاله إلى وجهة النظر المغايرة عند ليبنتس .

ويرى سميث أن هناك أرضية مشتركة بين هيوم وليبنتس فى شجب التجريبية ، فكلاهما قد وافق على النظر إليها بوصفها نتاج مهجن من مبادئ متضاربة .. ولكن رغم أن نقد ليبنتس للتجريبية متطابق مع نقد هيوم ، إلا أن كلا منهما يختلف بعمق عن الآخر فى توجيهاته وفى نتائجه التى يقود إليها ، فبينما يؤكد هيوم على أن الاستقراء مجرد عملية توقع غريزية غير عقلانية ، فإن ليبنتس يبرهن على أنه سمة تشريعية ذاتية للتفكير المحض .

وبعد عرض الموقف العقلانى لليبنتس كموقف مضاد لموقف هيوم فيما يرى سميث ، يذهب هذا الأخير إلى أن الاختيارات قبل كنط فى ميدان الفلسفة كانت بين موقفين متعارضين ، يمكن التعبير عنهما بلغة منطقية كالآتى :

أ- أن المبادئ الأساسية للتجربة هى أحكام تركيبية لا يوجد بين موضوعها ومحمولها علاقة يمكن اكتشافها ، ولا يستطيع العقل أن يبررها قبليا ولا بواسطة التجربة .

ب- كل المبادئ تحليلية ، ولذا يمكن تبريرها بواسطة التفكير المحض .

وينتهى سميث إلى أن كنط قد أجاب على الإشكال الفلسفى الذى صاغه تحت تأثير هيوم : كيف تكون الأحكام التركيبية القبليّة ممكنة ؟ عندما وفق بين وجهة نظر هيوم ووجهة نظر ليبنتس ، يقول سميث :

«لقد كان كنط عقلانيا بالتربية والمزاج والاقتناع . ولذلك كانت

مشكلته هي التوفيق بين رأى ليبنتس فى وظيفة التفكير وبين برهان هيوم على السمة التركيبية لمبدأ السببية . فقد كافح كنت من أجل أن يحدد إلى أى درجة يمكن الاحتفاظ باعتقاد ليبنتس فى القوة المشرعة للعقل المحض ، بعد إعطاء التقدير الكامل لانتقادات هيوم المؤذية^(١) .

هذه كانت وجهة نظر نورمان كىب سميث ، عرضناها بشيء من التفصيل ، لأنها أولا صادرة عن رجل يجمع بين ميزة التخصص فى هيوم وميزة التخصص فى كنت ، ولذا فإن وجهة نظره لها اعتبارها مهما كانت مخالفة لوجهة النظر التى نقتنع بها . وثانيا لأن بحثه هذا يملأ معظم الآراء المطروحة حول هذه المسألة عند الباحثين الآخرين ، ومن هنا فإنها ستغنيانا عن تفصيل القول عند عرض وجهات النظر المتشابهة .

ويقدم روجر سكرتون Roger Scruton فى كتابه عن « كنت » وجهة نظر مشابهة إلى حد ما لوجهة نظر كىب سميث ، مع شيء من الاختلاف فى أسلوب العرض وبعض آراء الجزئية التى لا تؤثر فى الرؤية العامة .

فيرى أن ليبنتس وهيوم أهم سلفين من أسلاف كنت المباشرين ، لأنهما قدما إجابات على سؤال موضوعية المعرفة ، لها من الحسم ما جعلها تسيطر على انتباه العالم المثقف آنذاك . وقد إدعى الأول أن بإمكاننا امتلاك معرفة موضوعية عن العالم غير مشوبة بوجهة نظر أى ملاحظ ، وادعى الثانى « أو على الأقل قد بدا لمعاصريه أنه يدعى » أننا لا نستطيع امتلاك معرفة موضوعية عن أى شيء ،^(٢) ومع تأثر كنت المبكر بفلسفة ليبنتس ، فإن شكية هيوم - فيما يرى سكرتون - قد أحدثت انطبعا عميقا فى كنت ، وقدمت مشكلات جديدة شعر أن من الممكن حلها فقط بواسطة الإطاحة بمذهب ليبنتس . هذه المشكلات المتعلقة بالسببية والمعرفة القبلية ، تنضم مع سؤال الموضوعية لتشكل موضوع القضية الخاصة بنقد العقل المحض^(٣) . وقد حاول

1- N.K. smith', kant's Relation to Hume and to Leibnitz The philosophical Review 24 (1915), 288-296 .

2- A. R. Scruton, kant (Oxford University Press, 1982), p. 13 .

3- Ibid., pp. 13 - 4 .

كنط ، وهو معتقد أن كلا الفلسفتين قد أخطأ في نتائجه أن يقدم وصفا للمنهج الفلسفى الذى يجسد الحقائق ، ويتفادى أخطاء الفلسفتين ، فالعقلانية تستقى المعرفة كلها من استخدام العقل ، وتتهم أنها تقدم وصفا مطلقا للعالم غير مشوب بتجربة أى ملاحظ . أما التجريبية ، فتبرهن على أن المعرفة تأتى من التجربة فقط ، ولذا فلا يوجد إمكانية للمعرفة المستقلة عن الحالة الذاتية للعارف . وقد تمنى كنط أن يقدم إجابة على سؤال المعرفة الموضوعية التى ليست هى بالمطلقة كما هو الحال عند ليبنتس ، ولا هى ذاتية كما هو الحال عند هيوم .^(١) إن رؤية هيوم تعارض رؤية ليبنتس ، فهو ينكر إمكانية المعرفة عن طريق العقل ، لأن العقل لا يعمل بلا أفكار والأفكار تستقى فقط من الإحساسات ويجب أن يتم تقديم محتوى كل تفكير - فى التحليل النهائى - فى حدود التجارب التى تسوغه ، ولا يمكن أن يتأسس الاعتقاد كحقيقة ، إلا بالرجوع إلى الانطباعات الحسية التى تضمن مشروعيتها .^(٢)

ويؤكد سكرتون على أن الأمر الذى كان أكثر إقلافا لكنط من أى شىء آخر ، هو تلك الجوانب من فلسفة هيوم التى كانت تتعلق بتصوير السببية . فقد برهن هيوم على عدم وجود أساس للاعتقاد بأن الضرورة توجد فى الطبيعة ، وإنما هى تنتمى للتفكير فقط ، وأنها تعكس فحسب «علاقات الأفكار» . وهذا ما جعل كنط يدرك أن العلم الطبيعى متوقف على الاعتقاد بضرورة واقعية ، فشكية هيوم - البعيدة جدا عن الممارسة الأكاديمية - تنذر بتقويض أسس التفكير العلمى . ويعتقد سكرتون أن كنط كان فى خلاف دائم مع ليبنتس ومذهبه ، وقد أدت مشكلتا الموضوعية والضرورة السببية - المرتبطتان معا بشكل جوهري - أدتا بكنط إلى استشراف نقد العقل المحض .

1- Ibid ., p . 14 .

2- Ibid ., p . 16 .

ويرى سكرتون أن كنط قد أدرك ما هو الخطأ الحقيقي لليبتس ، من خلال محاولته إظهار ما هو الخطأ الحقيقي لهيوم ، فلا التجربة وحدها ولا العقل بمفرده قادر على تكوين المعرفة ، فالتجربة تعطي المحتوى دون الصورة والعقل يقدم الصورة دون المحتوى ، وبالتأليف بين الصورة والمحتوى تصبح المعرفة ممكنة ومن هنا فلا توجد معرفة إلا وتحمل بصمات العقل والتجربة معا .^(١) ففي الواقع يوجد هنا ملكتان يتعذر اختزال إحدهما في الأخرى ، فهما «يقدمان بموضوعية الأحكام الصحيحة عن الأشياء ، فقط عندما يتحدان معا»^(٢) ، فيجب أن يظهر العالم وفقا لـ «صورة المقولات» ، وهنا يكمن جوهر ما أسماه كنط «ثورته الكوبرنيقية» في الفلسفة . فقد كان الفلاسفة السابقون يتخذون الطبيعة كبداية ويسألون كيف تنطبق تصوراتنا المعرفية عليها . أما كنط فقد أخذ هذه التصورات أو المبادئ المعرفية كبداية وعندئذ استنبط الشروط القبلية للطبيعة . هذه هي - كما يرى سكرتون - الخطوة الأولى الهامة في إجابته على هيوم ، فقد كان أمرا جيدا أن يقرر هيوم أن معرفتنا تجدد أسسها في التجربة ، ولكن التجربة ليست تصورا بسيطا كما يفترض هيوم . وإنما تتضمن بنية عقلية^(٣)

وإذا ما انتقلنا إلى وجهة نظر أرنست كاسيرر حول هذه المسألة : هل أجاب كنط على هيوم ؟ فستجده لا يحيد قيد شعرة عن التصور الكنطي المقدم في «نقد العقل المحض» و «مقدمات لكل ميتافيزيقا مقبلة» إذ يصدق كنط في كل ما يقوله بشأن إجابته على هيوم ، وينقل عنه نصوصا مطولة من النقد . ويعتقد أن كنط قد أجاب في المماثلة الثانية من مماثلات التجربة على إشكال هيوم المتعلق بتصوير السببية ، ومنطوق تلك المماثلة «كل التغيرات تنتج وفقا لقانون الارتباط بين السبب والمسبب» ، «فلو افترضنا أن ليس ثمة شيء يسبق حادثة ما ليكون على هذه الحادثة أن تتبعه طبقا لقاعدة ، فإن كل تنال للإدراك لن يكون متعينا إلا في الفهم ، أي سيكون

1- Ibid ., p , 17 .

2- kant, Critique pure Reason A. P. 271 ., B. P. 327 quoted in Scruton, kant p. 25 .

3- Scruton, kant , p. 28 .

ذاتيا فحسب ، ولن نكون قادرين أبدا على تعيين - موضوعيا - أى الأجزاء تتقدم بخاضة فى الإدراك وأيها يتبع . ولن يكون لدينا على هذا النحو سوى لعبة تصورات تتعلق بأى موضوع ، أعنى لن تتميز أى ظاهرة عن أخرى من حيث الزمان من خلال إدراكنا .. ولن أقول إذن أن حالتين تتابعان فى الظاهرة ، بل فقط أن فهم واحدة يتبع أخرى ، هذا أمر ذاتى فحسب لا يعين أى شىء ولا يمكنه من ثم قط أن يعد معرفة بموضوع ما ... وعلينا إذن أن نبين بمثل ، أننا لا ننسب إلى الموضوع قط ، وحتى فى التجربة ، التوالى الذى نشاهده فى حادثة عندما يحصل شىء لم يكن سابقا وأنا لا نميزه عن التالى الذاتى لفهمنا إلا إذا استندنا إلى قاعدة تلزمنا بملاحظة هذا النسق من الإدراكات دون سواء ، وأن هذا الإلزام أصلا هو ما يجعل بدءا تصور التوالى ممكنا فى الموضوع .^(١)

بهذه الطريقة - فيما يقول كاسيرر - تم حل مشكلة هيوم «بشكل يعارض ما توقعه^(٢) تعارضا كبيرا^(٣) وفى ظنى أنه لا يوجد شىء مهم فيما قاله كاسيرر حول هذه المسألة . وإذا كان هناك شىء ملفت للنظر حقا فى موقفه ، فهو عدم تجاوزه لكنط فى تصوره لعلاقته بهيوم .

وينحو كوبلستون المنحى التقليدى إذ يرى من الممكن - على حد تعبيره - أن نفهم النظرية الكنطية عن القبلى بوصفها - بمعنى ما - تطورا لنظرية ليبنتس عن الأفكار الفطرية مع الاختلاف فى أن الأفكار أصبحت دوال مقولاتية قبلية . كما أن هيوم نفسه قد أكد على وجود الإسهام الذاتى Subjective Contribution فى تكوين الأفكار المعقدة

1- kant, Critique of pure Reason, A. 194 - 97 . B. 239 - 42 .

٢- الكلام الموجود بين المعكوفتين مأخوذ من «مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة» الفقرة ٢٠ وقد اقتبسها كاسيرر دون أن يشير إلى مصدره .

3- E. Cassirer, kant's Life and Thought (New Haven and London : Yale Univ. press) , pp. 184 - 86 .

المحددة ، مثل علاقة العلية . وهكذا يمكن أن نفهم - كما يقول كوبلستون - نظرية كنط عن القبلى بوصفها أيضا متأثرة بموقف هيوم فى ضوء الاقتناع السابق بأن الفيزياء النيوتونية تقدم لنا القضايا القبلى التركيبية .^(١)

لقد أجاب كنط على هيوم من خلال محاولته تسويغ المعرفة العلمية فى مواجهة تجريبية هيوم ، عن طريق اقتراح ثورته الكوبرنيقية وهى النظرية التى تقول بأن الموضوعات تنتظم وفقا للعقل . فقد وطد كنط من ناحية اقتناعه بالمشكلات التى أثارها هيوم ، إذ أن الفيزياء النيوتونية تسلم باطراد الطبيعة . لكنه كان يؤمن من ناحية أخرى بأن التجربة غير قادرة على البرهنة على اطراد الطبيعة ، فهى لا تستطيع بيان أن المستقبل سيشبه الماضى بمعنى إظهار أن هناك قوانين كلية وضرورية للطبيعة . وبينما كان هيوم نفسه قانعا بملاحظة أن لدينا اعتقادا طبيعيا فى اطراد الطبيعة وقانعا بمحاولة إعطاء تفسير نفسى لهذا الاعتقاد ، فقد حاول كنط أن يبرهن على هذا الاطراد . وعلى الرغم من اتفاقه مع هيوم فى أن الاطراد لا يمكن البرهنة عليه بواسطة الاستقراء التجريبى ، فقد أثبت أنه ينشأ من واقعة أن الطبيعة بوصفها تركيب لموضوعات التجربة الممكنة يجب أن تنتظم وفقا للشروط القبلى للتجربة الموضوعية .^(٢)

هكذا أجاب كنط على هيوم من وجهة نظره كوبلستون ، وكما نرى فإنه لم يقدم شيئا جديدا إلى الموضوع .

ويوجد بحثان آخران يعزوان لكنط إلى حد كبير إجابة واحدة ، مع أن البحث الثانى ينتقد البحث الأول ، ولو صدق هذان البحثان فيما يقولان عن إجابة كنط لأصبح من اليسير على المرء أن ينتقد كنط بنفس الانتقادات التى انتقد بها كنط خصوم هيوم .

1- F. copleston, A History of philosophy, wolff to kant (Fifth imression : London : Search Press, 1977) , pp. 427 - 28 .

2- Ibid., p. 265 .

فتمتبر مسز شبر في بحثها « إجابة كنت على مشكلة

هيوم . kant's answer to Hume's problem - » الصحة الموضوعية للعلم الطبيعي هو الفرضية الأساسية لكنط وأن هذا العلم يفترض مقدماً قانون السببية: ^(١) ولذلك ، تستنتج : «إننا يمكن أن يكون لدينا معرفة بمثل هذا التالي الضروري لأننا نفترضه مقدماً في قوانيننا أو نسنه للطبيعة». ^(٢)

أما البحث الثاني الذي كتبه السيد وليمز/ وعنوانه :

إجابة كنت على هيوم kant's reply to Hume فإنه ينتقد مسز شبر لأنها لم تقدم «إجابة كنت على مشكلة هيوم ... ولا حله النهائي لها» ^(٣) ولكنه بعد سبع صفحات يخلص إلى أن «كنت قد أظهر أن العقل الإنساني إذا كان يملك معرفة مؤكدة ، فإنه يجب أن يستخدم المقولات كفروض قبلية للتجربة». ^(٤)

وفي ظني أنه لا يوجد شيء في منطق هذين الباحثين أكثر من أن كنت قد «سلم بالأمور التي شك فيها هيوم ، وبرهن بحماسة وغالباً بحماسة على الأمور التي لم يشك فيها هيوم مطلقاً». ^(٥) وهكذا تترد إلى كنت انتقاداته التي وجهها إلى خصوم هيوم ، لو صبح تصور شبر ووليمز لإجابة كنت على هيوم .

1- E. W. Schipper, "kant's Answer to Hume's problem", kant - Studien 53 (1961) , p. 73 .

2- Ibid., p. 74 .

3- M. E. williams, "kant's Reply to Hume" kant - Studien 55 1965) , p. 71 .

4- Ibid ., pp. 77 - 78 .

5- kant, prolegomena to Any Future Metaphysics, p. 7.

ومن الأبحاث التي تعتقد أن كنت قد أجاب على هيوم بحث الأستاذ/ بيك
«إجابة كنت على هيوم مرة أخرى.. kant's answer to Hume, again»

حيث يقدم فيه إجابة كنت على هيوم في شكل نموذج كالتالي :

K «كل شيء يحدث يفترض مقدما أن شيئا ما لابد أن يتبعه وفقا لقاعدة
«المماثلة الثانية لـ كنت» .

P يمكن تمييز الحوادث عن الحالات الموضوعية الثابتة للأمور رغم أن
تصورنا لكل منها متسلسل .

H نكتشف تجريبيا بين الحوادث أزواجا ما متشابهة تميل إلى أن تتكرر ،
وعندئذ فإننا نصدر الحكم الاستنباطي الآتي : أن الحوادث المتشابهة للأعضاء
الأولى من الأزواج تسبب حوادث تشبه الأعضاء الثانية .

p تتضمن k ، كما تدل حجج النظرية الثانية التي تقدم سببا كافيا
على k ، H تتضمن p ، لأنه إذا لم تكن الحوادث متميزة فإن
أزواج الحوادث لا يمكن أن تكتشف، وهكذا فإن p شرط ضروري لـ
H . إذن : H تتضمن p و p تتضمن k ، وعلى ذلك
فإن H تتضمن k .

هذه هي - كما يقول بيك - إجابة كنت على هيوم^(١) . ولعلنا
نلاحظ أن بيك قد سلك نفس مسلك كاسير في تبيان إجابة كنت ، حيث
وقف مثله عند التصور الكنتي المقدم في المماثلة الثانية ، والذي زعم كنت
أنه يمثل الإجابة على إشكال هيوم ، لكن يلاحظ من جهة أخرى أن بيك
لم يكتف بإيراد التصور الكنتي بحرفيته وإنما حاول تحليله وتقديمه في
شكل نموذج منطقي يلور الإجابة الكنتية في أكثف صورة لها .

1-Beck, " kant's Answer to Hume, Again : Six Short pieces on the
Second Analogy of Experience " . in Essays on kant and Hume
(New Haven : Yale University press, 1978) , p. 135 .

هذه كانت أهم الأبحاث التي زعمت أن كنت قد أجاب على هيوم تماما . وتوجد نوعية أخرى تسير في فلك مخالف لها إلى حد ما . إذ تذهب إلى أن كنت قد حل بعض المشكلات التي أثارها هيوم ولم يتمكن من حل البعض الآخر .

فيرى برود على سبيل المثال - أن المعضلة التي طرحها هيوم ذات جوانب ثلاثة :

١- ماذا نعني بالقول بأن أى حادثة من النوع الأول من الضروري أن تتبعها حادثة من نوع آخر محدد ؟

٢- ما الذى يسوغ لنا أن نقرر فيما يتعلق بحادثة معطاة من النوع k (تسخين المعادن مثلا) أن من الضروري أن تتبعها حادثة أخرى معينة من النوع \bar{k} (تمدد نفس قطعة المعدن مثلا) .

٣- ما هو أساس الاعتقاد بأن كل حادثة لا بد أن تكون تابعة بالضرورة لحادثة معينة قبلها ؟ (١)

هذه الأسئلة تطرح ثلاث مشكلات يمكن وصفها على التوالي ، كالآتي :

١- تحليل تصور الضرورة السببية .

٢- الدليل على قوانين السببية الخاصة .

٣- الدليل على قانون السببية الكلية .

ثم يبين برود موقف كنت من هذه المشكلات فيرى - فيما يتعلق بمسألة التحليل - أن كنت يستنبط عددا من التمييزات الضرورية جدا ، يؤمن بعدد من الروابط الهامة التي أنكرها هيوم . فهو يميز بين معطياتنا الحسية

1- C . D. Broad, kant : An Introduction , Edited by C. Lewy (Cambridge University press), p. 164 .

ومدركاتنا الحسية للموضوعات الفيزيائية ، ويميز بين الموضوعات التجريبية والأشياء فى ذاتها ويحاول تحليل تصور الموضوعات التجريبية . وقد أظهر كنط أن تصور السبب لا يمكن أن يعالج معزولا عن تصور الموضوعات التجريبية ، لأن الأخيرة - عند تحليلها - يتبين أنها مشتملة على تصور التلازم والتتابع الضرورىين .

أما فيما يتعلق بالدليل على القوانين السببية الخاصة ، فيقول برود أن كنط لم يحاول أن يجيب على هيوم فى أى من كتاباته ، فهو يتفق مع هيوم فى أن الدليل تجريبى استقرائى ولم يحاول أن يحل مشكلة تسويغ الاستقراء .

ويذهب برود فيما يتعلق بموقف كنط من الدليل على مبدأ السببية الكلية إلى أن هذا الموقف كالآتى :

أ- يتفق كنط مع هيوم فى أن هذا المبدأ غير واضح فى ذاته .

ب- يؤمن كنط بأن هذا المبدأ لا يمكن البرهنة عليه وأنه غير معقول إذا ما تم تطبيقه على الأشياء فى ذاتها . لكنه يعتقد أنه معقول ويمكن البرهنة عليه بالحجج الترנסندنتالية إذا كان محصورا فى نطاق موضوعات الإدراكات الحسية الإنسانية الفعلية والممكنة . وتوجد محاولاته هذه للبرهنة على المبدأ تحت تلك التحفظات - فى جزء من «نقد العقل المحض» معنون بـ «مماثلات التجربة» .

ويظن برود أن كنط يعتقد أن الدليل على مبدأ السببية الكلية بالنسبة لموضوعات الإدراك الحسى الإنسانى - الفعلى والممكن - ينتسب إلى حل مشكلة الدليل على القوانين السببية الخاصة . ويرى برود أن كنط إذا كان يعتقد هذا الاعتقاد فهو بالتأكيد مخطئ لأن إشكالية الدليل على « أن هذه تسبب تلك لا تحل بمعرفة أن كل حادثة تتم بواسطة حادثة ما أخرى» .^(١)

1- Ibid ., p . 147 .

إن برود برأيه هذا الذهاب إلى أن كنط لم يجب على كل مشكلات هيوم وأنه أجاب فقط عن مشكلة واحدة وترك المشكلتين الأخرتين دون حل - أقول أنه برأيه هذا يعتبر الحلقة الوسطى بين أصحاب الاتجاه الأول الذين أكدوا في أبحاثهم على أن كنط قد نجح تماما في تقديم حل لإشكال هيوم وبين أصحاب الاتجاه الثالث الذين رأوا أن كنط لم يجب على هيوم وهؤلاء قد حان الوقت لعرض ومناقشة وجهة نظرهم ونذكر من بين الممثلين لهم : أليسون ، جارنييه ، سترلنج ، وبوترو .

أما أليسون فقد ذهب في بحثه «النسب الترנסندنتالى - إجابة كنط على هيوم» إلى أن البرهان الذى حاول كنط إقامته على وجود النسب الترנסندنتالى للتجربة كان مقصودا منه الإجابة على هيوم من خلال البرهنة على أن اطراد التجربة ، أو بعبارة كنطية ، البرهنة على أن «تداعى الظواهر» أمر صحيح موضوعيا وبالضرورة وهكذا فإن ، الطبيعة - بوصفها موضوعا للتجربة - ليست فقط خاضعة بل يجب أن تخضع لقوانين غير متغيرة .

ويرى أليسون أن كنط قد أخفق في تقديم هذا البرهان على النسب الترנסندنتالى للتجربة ومن ثم فإنه لم يقدم إجابة حاسمة على شكية هيوم . بل إن أليسون يرى أنه لم ينجح فى تدعيم وتوضيح طبيعة ودلالة المثالية الترנסندنتالية (١)

وينتقد جارنييه فى كتابه «بحث فى قوى النفس» الإجابة التى قدمها كنط على هيوم ويقول : إنها تشطر الذهن إلى عنصرين : الحدس الحسى وتصورات الفهم ، وهذه التصورات فارغة وذلك الحدس غير معين وأعمى . وهى تتطلب لكى يكون هناك معرفة أن يجتمع هذان العنصران ولكن لم تنطبق مقولة ما على حدوس ما دون غيرها . إن المعطى الذى شأنه ألايبالى ،

1- H. E. Allison, «Transcendental Affinity-kant's Answer to Hume », proceedings of the third international kant congress, ed. L.W. Beck (Dordrecht - Holland : D.Reidel publishing company, 1972), pp. 203 - 211 .

لا يهدى الفهم فى ذلك العمل . والمعرفة لا تعدو أن تكون رابطة اتفاقية (عارضة) بين ذرات كعالم ابيقور . ويضيف جارنييه أن الثنائية مع ذلك تصطدم بهذا الإشكال : كيف يتقارب هذا الحدان على هذا النحو لا على نحو آخر ؟ فديكارت مثلا قد أراد أن تصدر فكرتنا الامتداد والفكر عن العقل وحده ولكن لماذا إذن تنصب فكرة الفكر على الذهن وفكرة الامتداد على الجسم ؟ وعكس ذلك يكون مشروعاً أيضاً .^(١)

ونجد نفس هذا رأى تقريبا عند سترانج فى بحثه « كمنط لم يرد على هيوم » ، لكنه يعتقد أن كمنط حين رأى هذا الإشكال أجرى تعديلا فى مذهبه . وهو يقرر أن المواد التى تقدم إلى الفهم فى هذا المذهب لا وحدة لها فى بادىء الأمر ، فكل ما هو ربط قد أضفى عليها من الفهم . لكن لم إذن يستتبع الفهم موضوعية رابطة بعينها دون سواها ؟ وهذا ما يحاول كمنط أن يفسره فى فصل المماثلة الثانية للتجربة وقد عرضه صراحة فى « مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة » ويذهب هذا رأى الجديد إلى أن هنالك نوعين من الأحكام : أحكام الإدراك وأحكام التجربة بمعناها الدقيق . ولكن فى حكم الإدراك نفسه توجد بداية الربط ، ويوجد ترتيب ذاتى . وهذا الترتيب هو التماس يحدد تطبيق المقولات وينظمه .

ويشير سترلنج فى هذا الموضوع إلى نصوص مهمة وهى مختارات على الخصوص من الفقرات ١٨ و ١٩ و ٢١ و ٢٩ من كتاب «مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة» يقول كمنط فى الفقرة ١٨ : «عندما نجد أن علة ما تفسح المجال لأن نعد حكما من الأحكام صحيحا على جهة الشمول وعلى نحو ضرورى .. الخ» ويقول : «فإن من الممكن أن يوجد فى الإدراك قاعدة لعلاقة تنص على أن ظاهرة معينة تتبعها ظاهرة أخرى معينة على جهة الدوام . حينئذ يصح لى أن أستعمل حكما شرطيا» (ف ٢٩) ، ويقول : «... بعد

١- عن أميل بوترو ، فلسفة كانط ، ترجمة د/ عثمان أمين (القاهرة الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٢

أن تكون الرابطة قد جعلت شاملة» فإذا كان لهذه النصوص المعنى الذى يعزوه إليها سترلنج فإنها تدفع المذهب الكنطى إلى أحد أمرين : إما أن يستمسك بالمثالية الترنسندنتالية فيكون تطبيق المقولات أمراً لم يفسر . وإما أن هذا التطبيق له ما يبرره ، فينهار أساس المذهب وهو الانفصال بين الفهم والحساسية . وفى كلا الأمرين يتأكد أن كنط لم يتمكن من تقديم نظرية متسقة تصلح كإجابة على إشكال هيوم .^(١)

ورغم أن أميل بوترو قد بذل قصارى جهده لمحاولة رفع اعتراض جارنييه وسترنج ، إلا أنه يضطر فى النهاية إلى قبوله لكنه من ناحية أخرى يعتقد أن كنط قد فهم مشكلة هيوم حق الفهم ، لأن كنط - من وجهة نظره - قد رأى جيداً بخلاف ريد أن المسألة عند هيوم ليست هى إنكار وجود المبدأ وإنكار قيمته وإنما ينصب الشك عنده على إمكان الوصول الى تفسير لضرورة الملازمة لعلاقة العلية . فالأمر لا يعدو هنا صعوبة فلسفية وشروط العلم والحياة العملية ليست خارجة عن الدعوى . ويبدو أن بوترو يؤيد كنط عندما عاب على هيوم أنه لم يحل مشكلة الضرورة السببية إلا ليشير مشكلة جديدة ترجع بنا إلى الأمر نفسه ، كيف تنشأ التكرار وتولد أشياء إن لم تكن متماثلة فهى على الأقل متقاربة بعضها من بعض ؟ ويتساءل بوترو مع كنط : من أين أعرف أن تكراراً كهذا وقع فى الطبيعة ؟ أليس يلزم لوقوعه أن تكون الطبيعة خاضعة لقوانين ؟ ألسنا بهذا نفترض الشيء الذى يطلب تفسيره ؟ ومن هنا يرى بوترو وجود مصادرة على المطلوب عند هيوم ، ولذا يكون نقد كنط فى محله .

ولكن كيف حدد بوترو إجابة كنط على هيوم ؟

يعتقد بوترو أن كنط قد اتخذ نقطة البداية من ملاحظة هيوم التى تذهب إلى - أن علاقة العلية هى رابطة ضرورية - وقد كان هذا بالنسبة إلى

1- J. H. Stirling, "kant has not answered to Hume", Mind, vol. 9 (1984) , pp. 531 - 47 , vol. 10 (1885) , pp. 47 - 72 quoted in Ibid., p. 115 .

هيوم رأيا من الآراء الشائعة عند جمهرة الناس ويتناول كنط هذه الفكرة من جديد ولكنه يراها مضمونة بوجود الفيزيقا الخالصة وتبرهن الطبيعة النيوتونية بالوقائع على إمكان العقل إقامة علاقات من علاقات الضرورة بين الموجودات الواقعية نفسها ولكن كنط يقول: إن ما يكون موجودا يجب أن يكون معقولا ، الموجود بالضرورة ممكن . وإذن فقد اقتنع كنط ابتداء - كما يقول بوترو - بأن التفسير موجود . وبينما نجد هيوم يتساءل عما إذا كان من الممكن تفسير الاقتران العلى ، نجد كنط يعرف مقدما أن هذا ممكن ، فضرورة الربط فى الأشياء ضرورة يقينية وإذن فهى ممكنة أو معقولة . ما مصدرها أو من أين جاءت ؟ من منبع واحد هو الفهم الذى هو وحده ملكة الضرورة . ويعتقد بوترو مع كنط أن هيوم قد رأى فى وضوح أنها لا تستطيع أن تأتى من التجربة ولا من الفهم معتبرا فى وظيفته المنطقية . يتساءل كنط : أليس للفهم وظيفة أخرى ؟ ألا يستطيع فى ظروف معينة أن يطبق مبادئه الخاصة بالربط على الموجود كما تنطبق على الممكن ؟ . يقول كنط : نعم توجد فى الفهم مبادئ لأحكام تأليفية قبلية هى المقولات ولكن من يضمن لى أن هذه المبادئ مستجد فى عالم التجربة مادة تقبل تطبيقها ؟ وبأى حق نفترض أن الأشياء توافق قوانين فهمى ؟ يجب كنط بأنها توافقها إذا أمكننى أن أثبت أنه لا توجد حقيقة بالنسبة لى إلا تطبيق هذه المبادئ نفسها على حدوس حساسيتى . وهذا هو ما يبرهن عليه الاستدلال الترנסندنتالى . وإذن فالموضوعية فى طابع الضرورة بالرابطة العلية قد كفلها نفس إمكان التجربة . (١)

ويحاول بوترو قدر استطاعته أن يرد عن إجابة كنط على هيوم ما صادفها من اعتراضات ، لاسيما ذلك الاعتراض الذى وجهه إليها جارنييه وسترنج ، لكنه فى نهاية الأمر يجد هذا الاعتراض الذى ظنه مرفوعا يعود إلى الظهور من جديد ، فواحدة من اثنين تواجه نظرية كنط التى تشطر الذهن إلى عنصرين هما الحدس الحسى وتصورات الفهم .

١- بوترو ، فلسفة كانط ، الترجمة العربية ، ص ١١٢ ، ١١٤ .

فإما أن المواد التى تعرض فى الأصل للذهن تكون بالفعل عارية عن الصورة وبمثابة مواد خام وإذن فليس من سبب لأن نفترض أنها تدخل بالضبط فى قوالب الفهم والقوانين التى ستطبق عليها يصادفها ألف احتمال يجعلها غير مضبوطة ، والضرورة المنسوبة إلى هذه القوانين لن تكون إلا وهما من أوهام الذهن .

وإما أن يكون معروفا ابتداء أن هذه المواد ستكون مستعدة لأن تتخذ تلك الصورة التى سيفرضها عليها فهمى ، ولكن لا بد حيثئذ أن تكون المواد نفسها لا القوانين فحسب آتية من الذهن .

وبناء على ذلك ينتهى بوترو إلى أن : « هيوم الذى لم يستطع أن يترك الواقع لم يستطع الوصول إلى الضرورة وكانط الذى يبدأ من الضرورة لا يستطيع الوصول إلى الواقع » .^(١)

وهكذا نرى من خلال عرض ومناقشة وجهات النظر التى طرحها الباحثون حول إجابة كنت على هيوم ، أن الجميع يدورون فى فلك التبعية للرؤية التى قدمها كنت بشأن - النسب الفلسفى بينه وبين هيوم ، رغم اختلاف بعض الباحثين مع كنت فى مسألة أو أكثر هنا أو هناك ، فالجميع يعتقدون - تحت تأثير كنت - أن علاقته بهيوم هى علاقة سائل بمجيب وكأن فلسفة هيوم هى فلسفة «سؤال» وفلسفة كنت هى فلسفة «إجابة» .

ولكن - كما قلت فى البدء أن التحرر من رؤية كنت لعلاقته بهيوم ، يؤدى إلى اكتشاف أن إشكال هيوم الفلسفى لم يكن بحاجة إلى حل من خارج فلسفة هيوم نفسها ، فكنت لم يجب على هيوم ، لا لأنه فشل فى الإجابة ، وإنما لأن هيوم نفسه قدم الإشكال والحل معا فى آن واحد ، فجاء كنت وعمق الحدس الفلسفى لهيوم ورسخه ترنسندنتاليا ، سواء فى جانبه الإشكالى أو جانبه الإيجابى .

١- المصدر السابق ، ص ١١٧ .

ومن هنا فإنه لا يمكن فهم علاقة كنت بهيوم فهما دقيقا لو اقتصرنا في النظر إليها على الجانب الإشكالي فقط في فلسفة هيوم ، وإنما لابد من التركيز على الجانب الإيجابي أيضا . وإذا كانت الأبحاث التقليدية تهتم بالجانب الأول فقط فإننا لن نركز فحسب على الجانب الثاني ، وإنما سنجعله نقطة انطلاقنا ، وإن كان هذا لا يستلزم إهمال الجانب الأول .

ويتمثل الجانب الإيجابي عند هيوم فيما يسمى بـ «مبدأ هيوم» ،^(١) ويستدعى الانتباه المتزايد لهذا المبدأ ، الانتباه أيضا لأهمية دور هيوم بالنسبة للنقائض الكنتية .

فمبدأ هيوم يمنعنا - على حد تعبير كنت - من استعمال العقل بأسلوب دوجماتيقي يتجاوز كل تجربة ممكنة ،^(٢) ولاشك أن هذا المبدأ يتطابق مع النتيجة النهائية لفلسفة كنت «إن العقل بكل مبادئه القبلية لا يعلمنا أى شيء أكثر من موضوعات التجربة الممكنة ولا يعلمنا عن هذه الموضوعات شيئا أكثر مما يمكن معرفته في التجربة» .^(٣)

يظهر هذا الاتفاق الجوهرى بين كنت وهيوم أنهما يهدفان إلى نفس الشيء وهو تعيين حدود الميتافيزيقا والمعرفة الإنسانية بشكل عام . ولقد شعر كنت نفسه وبوضوح أنه هو المنفذ لرغبة هيوم الفلسفية . ويعنى هذا أن اهتمام كنت في حقيقته لم يكن منصبا على تقديم «إجابة» على هيوم ، ففلسفته النقدية في جوهرها برهنة أوسع نطاقا وأعمق أمدا على مبدأ هيوم .

لكن يجب الإشارة إلى أن برهنة كنت ودفاعه عن مبدأ هيوم لم يجعل كنت يتحرر تماما عن الدوجماتيقية ، فنقد العقل كما قام به كنت يعتبر الحد الأوسط الحقيقى بين الدوجماتيقية التى حاربها هيوم ، ومذهب هيوم القائم على التشكيك المطلق فى كل ميتافيزيقا دوجماتيقية .

1- Kant, Prolegomena, ed. Beck, P.108 .

2- Idem .

3- Ibid, p., 110 .

ويتأكد هذا الحكم من خلال الطريقة التي يضيف بها كنت إلى مبدأ هيوم مبدأ آخر ، يظن كنت أن «هيوم أهمله تماما» وهو «المبدأ الذي يقضى بعدم النظر إلى ميدان التجربة باعتباره شيئا يحدد نفسه *bounds itself* في نظر عقولنا»^(١)

فالتجربة نفسها لا تتحدد بذاتها عند كنت : «إن التجربة التي تحتوى على ما يتعلق بعالم الحواس لا تتحدد بذاتها ، فمن الشروط لا تنتهى أبدا إلا إلى شروط آخر . إن المجال الذى يجب أن يحدد التجربة يلزم أن يكون خارجا عنها تماما ، وهو مجال الكائنات المعقولة الخالصة»^(٢) ، ولكن ليس معنى هذا أن كنت يزعم إمكانية معرفة طبيعة تلك الكائنات المعقولة ، فهى مازالت فى نظره مما يجاوز نطاق التجربة الممكنة ، وبالتالي تجاوز قدرات المعرفة الانسانية : «إذا أردنا أن نعين طبيعة هذه الكائنات المعقولة ، فإننا سنجد أن مجالها فى نظرنا مجرد مكان خال . فإذا كان هدفنا هو الوصول إلى تصورات معينة بطريقة دوجماتيكية ، فنحن لا نستطيع أن نخرج من مجال التجربة الممكنة»^(٣) . وهنا يعود كنت أدراجه إلى هيوم ، لكنه سرعان ما يعاود التأكيد على مبدئه المضاف فيقول «لما كانت النهاية شيئا موجبا ما ، ينتمى إلى الشيء الذى تحيطه ، كما ينتمى كذلك إلى المكان الواقع خارج الكل المعطى ، فهى معرفة وضعية واقعية لا يحصلها العقل إلا إذا بلغ هذه النهاية من غير أن يحاول تجاوزها ، لأنه عندئذ سيجد نفسه أمام مكان خال يمكنه أن يفكر فى الصور على اعتبار أنها أشياء ولا يمكنه أن يفكر فى الأشياء ذاتها . وتحديد نهاية مجال التجربة بالشيء المجهول هى المعرفة التى يحصلها العقل فى هذه الظروف ، ومن هنا لا يكون العقل منحصرًا داخل العالم المحسوس ولا يظل مع ذلك خارجا عنه ، إنما يكون محدودا بالطريقة التى تتناسب مع معرفة النهايات ويكون ذلك فقط بواسطة العلاقة التى تقوم بين ما هو خارج عنها وما هو متضمن فيها»^(٤)

1- Ibid ., p. 108 .

2- Ibid, p. 109 .

3- Idem .

4- Ibid., pp. 109 - 110 .

قارن الترجمة العربية ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

إذن فإن واقعة انحصار مجال المعرفة أو تحدده ، نتيجة لوجود شيء يظل مجهولا لدينا باستمرار ، إنما تمثل معرفة عقلية تحول دون انحصار العقل نفسه داخل نطاق العالم المحسوس ، وليست الميتافيزيقا بناء على هذا الرأي الكنطى سوى هذه المعرفة العقلية بالحدود ، أى معرفة العلاقة بين العالم المحسوس وما يقع خارجه ، دون أن يكون فى فعل المعرفة ذاته محاولة لتجاوز الحد الذى ينتهى عنده العالم المحسوس ، لأن العقل حينئذ لن يجد نفسه إلا أمام خلاء محض يستطيع فيه أن يفكر فى الصور بوصفها أشياء ، لا أشياء فى ذاتها .

وبينما نحن لا نعرف فى نظر كنط ما هو الذى يقع خارج التجربة ويحددها ، فإننا عارفون بطريقة ما : «فهذا التقييد لا يمنع من الوصول إلى النهاية الموضوعية للتجربة ، أى علاقة هذه التجربة بشئ شيء ، يجب أن يكون هو المبدأ الأسمى لكل موضوعات التجربة ، وإن كان هو ليس موضوعا للتجربة» . ومن ثم فإن العقل لا يمكنه أبدا أن يتوصل إلى معرفة هذا الشئ «فى ذاته ، بل إلى معرفته فقط من حيث هو المبدأ الذى يرجع إليه استعمال العقل المحض ، أى استعمال الكلى والموجه إلى أسمى الغايات وأعلاها فى ميدان التجربة الممكنة»^(١)

هذا هو المبدأ الثانى الذى زعم كنط إضافته إلى مبدأ هيوم . لكن ألا يمكن اكتشاف جذور هذا المبدأ نفسه عند هيوم عندما قرر فى المحاورات أن «الله» أو «الشئ بذاته» موجود كمبدأ أول لهذا العالم المحسوس ، بيد أنه لا يمكن معرفة طبيعة هذا المبدأ الأول . يقول هيوم على لسان فيلون : «والحقيقة الأولى - كما نلاحظ جيدا - بديهية لا جدال فيها . ليس ثمة وجود لشيء دون علة ، والعلة الأصلية لهذا العالم - أيا كانت - ندعوها إلها»^(٢) ..

1- Ibid. p. 110

قارن الترجمة العربية ص ٢٠٢ .

2- Hume, Dialogues concerning Natural Religion, ed ., Nelson pike, p 21 .

إذن فالشيء في ذاته باعتباره مبدأ تتكون وفقا له أفكار العقل وتنتظم ، لا يمكن معرفته لأنه يدخل في حيز «المجهول» الذي يستعصى على التفكير ، وإن كان لا يمكن إنكار وجوده كمبدأ فهو أصل الأشياء ، ولكن لا يمكن معرفة طبيعته ، يقول هيوم : «ما هي تلك الحقيقة التي تعتبر أكثر وضوحا وبقينا من حقيقة وجود الله ... ؟ ولكن عندما نتناول هذه الحقيقة الواضحة والعامية ، فإنه يظهر أمامنا مسائل عويصة تتعلق بطبيعة ذلك الكائن الإلهي : صفاته ، أقداره (ما يقضى به) ، أسلوب عنايته وتدييره» ، إن هذه الموضوعات ممتعة جدا لدرجة أننا لا نستطيع أن نحد من بحثنا المتواصل عنها «ونحن لا نستطيع معرفة طبيعة الكائن الإلهي» لأن : «أفكارنا لا تعدو تجربتنا ، وليس لدينا أية تجربة من الصفات والعمليات الإلهية» ^(١) فهي تتجاوز كل ما نملك من قدرات معرفية .

ولعل هذه الفكرة الهيومية هي البذرة التي جعلت كنط يقول في سياق تحديده لنهاية «مجال التجربة بالشيء المجهول» : «في الدين الطبيعي تصور من هذا الجنس نجده في نهاية حدود العقل الإنساني الذي يرى نفسه ملتزما بأن يرفع أنظاره إلى أعلى ، أي إلى فكرة الكائن الأسمى (وعلميا إلى العالم المعقول) ، لا من أجل أن يعين أي شيء بالنسبة إلى هذا الكائن المعقول المحض أو أي شيء خارج العالم المحسوس ، بل من أجل أن يوجه استعماله الخاص داخل هذا العالم بحسب المبادئ التي تعمل على تحقيق أكبر وحدة ممكنة له (نظرية وكذلك عملية) ، ومن أجل أن يستخدم في تحقيق هذه الغاية علاقة هذا العالم بالعقل المتقوم بنفسه كعلة لكل هذه الروابط ، ومن غير أن يتدع لنفسه من هنا طبعاً كائناً متخيلاً » ^(٢) .

إذن فكنط إذ يزعم أنه قدم مبدأ ثانياً أهمله هيوم تماماً ^(٣) ، إنما يقع في مبالغة لا أساس لها ، لأن جذور هذا المبدأ تضرب بوضوح في أرض الفلسفة

1- Ibid., p . 5 .

2- Ibid., kant, prolegomena , p. 109 .

3- Ibid., p. 108 .

الهيومية مما يدل على أن هيوم لم يهمل هذا المبدأ بالصورة التي عرضها كنت .

ولا يعنى هذا أننا نبخس كنت حقه ، فلاشك أنه قد قام بمحاولة شاملة للتأسيس الترنسندنتالى لموقف هيوم .

بهذا يكون قد تأكد لنا التوافق الكبير بين مبدأ هيوم والنتيجة النهائية للنقد الكنتى . يبقى أن نبحث مدى التوافق بين إشكال هيوم وسؤال كنت ، هذا السؤال وذاك الإشكال اللذان يتعلقان بإمكانية قيام الميتافيزيقا كعلم دقيق .

وإذا ما بدأنا بهيوم وجدناه يطرح إشكال قيام الميتافيزيقا فى سياق مناقشته لمبدأ العلية وينبغى أن يكون واضحا أن مناقشة هيوم لهذا المبدأ فى خاتمة الكتاب الأول من «الرسالة» تختلف كلية عن مناقشته فى «البحث الأول» ، فبينما يحاول هيوم أن يبين فى «البحث» أن معرفتنا بأى ارتباط على خاص لا يمكن أن يؤسس قبلها فى التفكير ، وإنما تنشأ كلية من التجربة عندما نجد أشياء خاصة ترتبط على الدوام بأشياء أخرى ^(١) - بينما يقول ذلك فى البحث ، فإنه يؤكد فى خاتمة الكتاب الأول من «الرسالة» على أن الارتباط بين العلة والمعلول يقع فقط فى أنفسنا وأن هذا الارتباط ليس شيئا وإنما هو «تحديد للعقل» ^(٢) ، فيبدو فى «البحث» أن الارتباط العلى ، رغم أنه نفسه ليس موضوعيا إلا أنه مؤسس فى الموضوعات نفسها . أما فى الفقرة المقتبسة من الرسالة فيظهر بوضوح أن علاقة العلية ذاتية تماما ، الأمر الذى سيكون له انعكاسه الواضح على طموحات الميتافيزيقا وآمالها . فإننا إذا ما أردنا «أن ندفع أبحاثنا حتى نصل إلى المبدأ الأصيل والنهائى» لأية ظاهرة لانستطيع . فاكشاف الصفة الذاتية لعلاقة العلية «لن يقضى فقط على كل آمالنا فى الوصول إلى الإقناع ، ولكن سيوقف رغباتنا الملحة ، لأنه يبدو أننا إذا ما رغبتنا فى معرفة المبدأ النهائى والمؤثر ، كشيء ما يستقر فى الموضوع

1- Hume, An Enquiry ..., p. 27 .

2- Hume, A Treatise ..., p. 266 .

الخارجى ، فإننا إما أن نناقض أنفسنا أو نتحدث حديثا خاليا من المعنى»^(١).

هنا طرح هيوم إشكال إمكانية الميتافيزيقا فى سياق مناقشته لمبدأ العلية . وقد تنبه كمنط إلى هذا ، وأدرك أهمية طرحه بالنسبة لعلم الميتافيزيقا ، فقال :

«منذ محاولات ليبنتسى ، أو بالأحرى منذ نشأة الميتافيزيقا مهما كان تاريخيهما بعيدا ، لم يحدث ما أثر فى مصير هذا العلم بصورة قاطعة مثل هجوم ديفيد هيوم عليه ، إنه لم يسلط أى ضوء على هذا النوع من المعرفة ولكنه على الأقل قد أطلق الشرارة التى كنا نستطيع بواسطتها أن نحصل على النور إذ مامست فتيلة تضىء ولا تحترق ، فبقى نورها مضيئا به ، بل ويزداد نورا بفضل عنايتنا به . ونقطة الابتداء عند هيوم كانت فى ذاتها عبارة عن تصور ميتافيزيقى واحد ولكنه ذو أهمية ، نعى به علاقة العلة والمعلول (وبالتالى التصورات اللازمة عنه مثل القوة والفعل .. الخ) ..»^(٢).

فمن الواضح هنا أن كمنط متنبه تماما لارتباط الإشكال الميتافيزيقى بعلاقة العلة والمعلول .

بل إن كمنط يوافق هيوم فى أن الارتباط بين العلة والمعلول «تحديد فى العقل» ، ومع أنه يجد هذا التحديد فى الفهم وليس فى الخيال ، فإن إشكاله مازال هو نفس إشكال هيوم : كيف يمكننا الانتقال من «ذلك الذى فىنا وندعوه 'تمثل' (= تصور) إلى الموضوع ؟»^(٣).

ولقد حاول كمنط تعميم هذا الإشكال الهيومى ، فإذا كان تحليل هيوم صحيحا فإننا يجب أن نتساءل .

« كيف يكون العلم الطبيعى المحض ممكنا ؟ » .

« كيف تكون الميتافيزيقا بعامة ممكنة ؟ » .

« كيف تكون الميتافيزيقا كعلم ممكنة ؟ »

1- Ibid., pp. 266 F.

2- kant, prolegomena, p. 5 .

3- kant, correspondence, Transl. zweig., F. 71 .

ونظر كمنط إلى حل الإشكال الذى طرحه تحليل هيوم باعتباره تعيينا
لـ «مفتاح السر كله الذى مازال يجعل الميتافيزيقا غامضة حتى الآن» .^(١)

ولا يتحتم عند هيوم أن يكون الفهم هو الذى يلزمنا «إما أن نناقض
أنفسنا أو نتحدث حديثا بلا معنى» ، فهيوم ينتقد أيضا مبدأ الخيال الأساسى
إذ أنه يقودنا كذلك «إلى الخطأ عندما تتبعه ضمنا (كما ينبغى أن يكون)»
فهذا المبدأ يجعلنا نستدل على الأسباب من المسببات ، ويقنعنا باستمرار
الوجود الخارجى للأشياء عندما تغيب حواسنا . ومع أن هاتين العمليتين ،
على حد سواء طبيعيتان وضرورتان فى العقل الإنسانى ، إلا أنهما تبدوان
فى بعض الحالات متناقضتين بشكل مباشر ، فليس من الممكن لنا أن
نستدل ، بشكل دقيق ومنتظم ، على الأسباب من المسببات ، وفى نفس
الوقت نعتقد استمرار وجود المادة عندما تغيب عن حواسنا ، فكيف إذن
سنسلم بهذين المبدئين معا^(٢) .

إذا كان التناقض يعرف على أنه تناقض بين مبدئين أساسيين فى العقل
الإنسانى ، إذن فإن هذه الفقرة تحتوى بوضوح على فكرة النقائص^(٣) ومن
هنا يجب مقارنة تناقض العقل المحض عند كمنط بتناقض الفهم والخيال عند
هيوم .

يظهر هذا بوضوح وجود بعد جدلى لمشكلة هيوم . فمبادئ العقل
الإنسانى التى نشق بها تقودنا «للوقوع فى تناقض واضح» ، وكل من الخيال
والفهم يفتقد لأى درجة من درجات الثبات والإقناع^(٤) .

إذن فمشكلة النقائص إنما هى واجهة أخرى دقيقة ومحورية لإشكال
هيوم .

1- Idem .

2- Hume, A Treatise, pp., 265 F .

3- See : John Brice, Hume's Philosophy of Mind (Princeton : Princeton University press, 1980), See also : M. Kuehn, "Hume's Antinomies," Hume Studies, 8, 1983 .

4- Hume , A Treatise , p. 266 .

ولعل هذا يتأكد لنا أكثر لو رجعنا أدراجنا إلى مناقشتنا السابقة لفكرة النقائص عند هيوم ، تلك الفكرة المحورية التي لم ينتبه اليها أحد فيما نعلم ، رغم أنها أحد الأسس الجوهرية التي ينطلق منها هيوم في كتابه «محاورات في الدين الطبيعي» لتأسيس موقفه من مسألة ما إذا كان يتجاوز عالم الظواهر ممكنا معرفيا أم لا ، حيث يؤكد أن عالم الأشياء في ذاتها يجاوز تماما كل القدرات المعرفية للإنسان ، وموضوعاته غامضة غموضا تاما ، ومستغلقة استغلاقا أمام الفهم الإنساني ، وإذا حاول الإنسان إصدار أحكام حولها ، وقع في تناقضات ، فالعقل البشرى عندما يستخدم استخداما نظريا محضا ، يمكنه تقديم أزواج متناقضة من البراهين يدلل بها على القضية ونقيضها ، ومن ثم فإنه لا يستطيع الوصول إلى يقين نهائى عن طبيعة تلك الموضوعات لعالم الظواهر والمتعالية على كل فهم بشرى . ولقد سبق لنا بسط الأدلة على أن هذه الفكرة لم تأت عرضا عند هيوم ، وبرهنا على أنه كان يعنى تماما ما يقول ، الأمر الذى يغنينا عن إعادة أو تكرار تلك الأدلة والبراهين .

ومن الأمور ذات الدلالة الهامة فى هذا المجال ، والتي تؤكد تأويلنا لفلسفة هيوم - فى علاقتها بفلسفة كنط - ارتباط مشكلة السببية ارتباطا وثيقا بفكرة النقائص ، حسبما يرى المرء من حديث كنط فى كتابه «مقدمة لكل ميتافيزيقا» ، فهو يدافع عن هيوم ضد ناقديه الإنجليز ، عن طريق إثبات أن سؤال هيوم لم يكن أبدا عما إذا كان تصور السببية تصورا سليما دقيقا مفيدا ، وإنما كان عن التسوية النهائية لتصور السببية ، يقول كنط :

«إن سوء الحظ الذى حالف الميتافيزيقا دائما أراد ألا يفهم أحد ما قاله هيوم ولا نستطيع أن نرى - دون أن نشعر بشيء من الأسى - كيف أخفق خصومه : ريد ، وأوزوالد وبيتى ، وأخيرا بريستلى ، فى فهم النقطة الرئيسية فى هذه المسألة وكيف أنهم جميعا قد أخطأوا فى فهمها ، فحسبوا الأمور التى يشك فيها هيوم أمورا متفقا عليها ، وحاولوا بالعكس أن يثبتوا بطريقة عنيفة ؛ وفى أغلب الأحيان مع كثير من الفضول ؛ الأمور التى لم يخطر بباله قط أن يشك فيها ، فأنكروا ما قام به من أجل إصلاح الميتافيزيقا

وكانت النتيجة أن بقى كل شىء على حاله وكأن شيئا لم يكن . إن المسألة لم تكن خاصة بالتساؤل عما إذا كان تصور السببية صحيحا ، ومفيدا ، ولازما لمعرفتنا بالطبيعة . ولذا فإن هيوم لم يكن على الإطلاق شاكا^(١) .

إذن فماذا كانت مشكلة هيوم ؟

إنها كانت مشكلة التسويغ النهائي لتصور السببية^(٢) ، يقول كنت :

«إن المسألة كانت متعلقة بما إذا كان يمكن للعقل أن يفكر فى السببية قبلها ، وبما إذا كان لها حقيقة باطنية ، ومستقلة عن كل تجربة ، وبناء عليه يمكن استخدامه استخداما موسعا بحيث لا يقتصر فقط على موضوعات التجربة ؟ هذه هى المسألة التى كان هيوم ينتظر رأينا فيها . وجملة القول أن المسألة هنا كانت تتعلق بمصدر هذا التصور ، ولا تتعلق بالفائدة اللازمة عنه .»^(٣)

بصرف النظر عن عدم دقة قول كنت «إن هيوم كان ينتظر رأينا» فى الإشكالية التى طرحها ، فهى لم تكن بحاجة إلى حل من خارج فلسفة هيوم نفسها ، لأن هيوم قد قدم حلها أيضا - أقول بصرف النظر عن هذا - فإنه يبدو من الواضح تماما أن فكرة النقائص تتضمن ما أسماه كنت هنا «الاستخدام الموسع Extended use» ، حيث تتمثل واحدة من أهم نظريات نقد العقل المحض فى مثل هذا الاستخدام الموسع لتصورات المبادئ ، ومفاد هذه النظرية : أن المبادئ رغم كونها ضرورية لا غنى عنها طبقا للحس المشترك ، إلا أن الاستخدام الموسع لها يقود العقل إلى مناقضة ذاته .^(٤)

ويمكن ملاحظة شىء مشابه لهذا إلى حد ما فى فلسفة هيوم ، عندما يبرهن على أن الاستخدام الموسع أو المفارق لمبدأ السببية عن طريق البرهنة

1- kant, prolegomena, p . 6 .

2- kuehn, "kant's conception" , p . 187 .

3- kant, prolegomena , pp . 6 F .

4- kant, Critique of pure reason , A vii .

على العالم بوصفه معلولاً لوجود الله كعلة له ، إنما هو استخدام غير منطقي لأنه يجاوز المنطقة الخاصة بهذا المبدأ – أى عالم الظواهر .^(١)

ومن هنا لا يمكن فهم اكتشاف كنت لهذه الحجة الهامة بمعزل عن تأثير هيوم . إن روح هيوم تسرى بشكل واضح فى الجدل الترنسندنتالى من «نقد العقل المحض» لاسيما عندما يقابل القضايا الناشئة عن دوجماتيقية العقل النظرى بنقائض هذه القضايا عند التجريبية المحضة .^(٢)

وإذا كان كنت نفسه يخبرنا أن «أول ما أيقظه» لم يكن «البحث فى وجود الله ، والخلود ، الخ ، وإنما هو على الأصح البحث فى نقائض العقل المحض – العالم له بداية ، العالم ليس له بداية ، وهكذا حتى (المناقضة) الرابعة : توجد حرية فى الإنسان ، يقابلها لا توجد حرية ..» .^(٣) إذا كان ذلك ، فإن مقالة بيتى تصبح غاية فى الأهمية ، فبيتى يجد أيضا أن مبدأ السببية هو «أساس حجة أن الله خالق العالم ، ويهاجم أساسا تحليل هيوم للسببية لأنه يريد أن ينقذ «أهم حجة استخدمها العقل الإنسانى دائما» .^(٤)

ويعتبر بيتى مبدأ السببية «بديهية» ، ومبدأ الحس المشترك ، الذى يقربه العقل المنطقي ، ويلزم أن يقربه ، كحقيقة ، لا لأنه يمكن البرهنة عليه ، وإنما لأن قانون الطبيعة يجعلنا نؤمن به دون برهان .^(٥)

وهنا يتقدم بيتى خطوة لكن يبرهن على أن الأشياء المتعددة التى نلاحظها

1- Hume , An Enquiry , Section XI .

2- kant, critique of pure Reason, A 462 FF. B 490 FF .

3- kant, Correspondence, p. 252 .

4- James Bea ttie, An Essay on the nature and immutability of Truth, Facsimile - Reprint of the first edition, Edinburgh, 1770 , ed . F. O. wolf (Stuttgart-Bad canstatt : Friedrich Frommann Verlag (Gunther Halzboag), 1973), p. III.

5- Idem .

لها بداية ، ولذا يجب أن يكون لها سبب «ذلك أن العالم المحسوس الذى يلزم أن يظهر لنا تجلى المعلول .. لا يمكن إنكاره ، وما يبدو أنه هو المعلول لابد أن يكون له بداية وليس أزليا ، حسبما تم البرهنة على ذلك بكل أنواع الأدلة التى تقرها الذات» (١)

فالعالم كله - وفق بيتى - نظام واسع من الأعمال والمعلولات . وهو يشبه السلسلة التى تعتمد كل حلقة فيها على الحلقة الأخرى . كل شئ له بداية .

وبناء على هذا ، يلزم ألا يظن عدم وجود سند أخير ونهائى للسلسلة كلها ، وبالتالى يلزم أن يكون لها بداية فى الزمن .

حتى الآن لا يوجد شئ مهم فيما قال بيتى ، لكن هذا الكلام ذاته يأخذ أهميته عندما نتابع ما ذكره بيتى عقبه مباشرة .

فبعد أن قدم حججه لتدعيم وجهة نظره فى أن العالم له بداية ، وبالتالى له سبب ، يقدم الحجج المناقضة لحججه والتى تثبت نقيض قضاياه ، يقول :

«إذا تصادف أن اطلع القارئ على مقالة للأستاذ هيوم عن العناية الإلهية الخاصة والوضع المستقبلى ، فإنه سيرى أن هذه الملاحظات قد أعدت كإجابات على حجة غريبة جدا قدمها هيوم ضد الاعتقاد فى الله فى (العالم) كما يخبرنا (موضوع متفرد وفذ تماما ، ولا يوجد موضوع آخر وقع تحت ملاحظتنا يوجد بينه وبين العالم أى مشابهة وله سبب يمكن أن يعرف بأى وسيلة معرفية ، ولذا فإننا لا نستطيع أن نكون نتيجة منطقية البتة تتعلق بسبب العالم .. » (٢)

ويحاول بيتى أن يوجز ادعاء هيوم بقوله :

1- Ibid ., p . 113 .

2- Ibid ., p . 115 .

كل شيء فى العالم له بداية .. ما هو الشيء الذى يوجد فى العالم بلا سبب ؟ لا شيء . أليست هذه نتيجة عقلانية ؟ ومع أنه يبدو أن من المعقول أن ننسب سببا لكل شيء فى العالم ، فإن تقرير أن للعالم سببا أمر غير عقلانى . (١)

إن هذا الصدام بين الموقفين كما يقدمه بيتى يظهر قوة الحجج التى يستند إليها كل منهما . وتوضح مناقشة بيتى لكل من النتيجةين «العالم له بداية» و «العالم ليس له بداية» ، أن كليهما متساويتان فى العقلانية .

يقول كنط فى موسوعة المحاضرات ١٧٧٥م فى سياق الإشارة إلى اوزوالد:

«هذه القضايا متساوية فى الوضوح ، لكنها مازالت تناقض كل منها الأخرى» . (٢)

ومن المؤكد أن العرض الأخير الذى قدمه كنط للنقيضة الأولى فى «نقد العقل المحض» لا يشبه مناقشة بيتى بقدر ما يشبهها العرض المقدم فى موسوعة المحاضرات ، فالمحاضرات تربط بوضوح بين البداية الزمنية ومبدأ السببية أما العرض الأخير الذى قدمه كنط فى النقد الأول فيشير فقط إلى المكان والزمان . ولكن حتى فى النقد توجد فقرات تذكر المرء بمقالة بيتى ، فالحجة التى يستخدمها كنط لتدعيم الجزء الأول من قضية (محدودية العالم فى الزمن) يوجد بها تلميح إلى بيتى عندما يدعى أن :

«الملحد لن يتمكن أبدا من التملص من قوة هذه الحجة ، حتى يستطيع البرهنة على أن كل شيء فى الطبيعة يوجد بالضرورة ، وبشكل مستقل ، منذ الأزل» . (٣)

1- Idem .

2- kant, vorlesungen uber philosophische Enzyklopadie, ed. G. Lehmann (Berlin : Akademie verlag, 1961), p. 59. quoted in M. kuehn, "kant's conception", p. 189 .

3- Beattie , Essay on Truth, p. 118 .

وعلى هذا النحو نفسه يناقش كנט القضية ، فيحاول تفنيد أن العالم ليس له بداية ، وأنه منذ الأزل ويعتقد كנט أنه أظهر أن تلك النظرية يجب أن تكون خاطئة ، لأنها تقتضى «أن كل لحظة معطاة (حاضرة) قد سبقتها الأزلية» ^(١) ، أى لو لم يكن للعالم بداية فى الزمان فلا بد من الإقرار بأن اللحظة الحاضرة قد سبقتها سلسلة لا متناهية من الظواهر قد تمت الآن . لكن من التناقض أن تنتهى سلسلة لا متناهية فى لحظة معلومة .

وهكذا نجد أن قراءة كנט لهيوم عبر بيتى لها أثر فعال فى اكتشاف كנט لفكرة النقائض . نقول هذا رغم أننا قد أكدنا من قبل على وجود فكرة النقائض عند هيوم نفسه . لكن لاشك أن طريقة عرض بيتى لنقيضة «العالم له بداية فى الزمان» - «العالم ليس له بداية فى الزمان» ، كانت من الوضوح والمباشرة بشكل يجعلها - لاسيما تحت التأثير المتزايد لما جاء فى المحاورات والبحث - تضرب بمعاولها فى عقل كנט ، الأمر الذى يدفع المحلل نحو التأكيد على أن فكرة النقائض ليست فكرة كنطية مبتكرة ، فهى تلك مطروحة عند هيوم سواء فى المحاورات أو البحث أو الرسالة على نحو مباشر فى معظم الأحيان ونحو غير مباشر فى أحيان أخرى ، وهى ذى واردة فى عرض بيتى صاحب الاقتباسات الثرية من رسالة هيوم التى فتحت آفاقا غير محدودة أمام تأمل كנט فى مشكلة الميتافيزيقا .

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن فلسفة هيوم لم تكن فقط سببا للاستنباط الميتافيزيقى للمنطق الترنسندنتالى عند كנט كما يقال غالبا ، وإنما أيضا سبب لنقائض العقل المحض كما جاء فى الجدل الترنسندنتالى .

ومن ثم يتأكد أن كנט لم يتجاوز هيوم ، وأن فلسفته لم تكن «إجابة» على «إشكال هيوم» ، بل كانت تعميقا ترنسندنتاليا ليس فقط للمشاكل والأسئلة التى أثارها هيوم ، وإنما أيضا لنتائجه وحدوسه الفلسفية النهائية .

1- kant, Critique of pure Reason , A 426 , B. 454 .

بهذا يتكشف لنا عديد من النتائج الهامة التي تمخض عنها هذا البحث في مجال دراسة فلسفتي كنت وهيوم بوجه خاص ، وفيما يتعلق بالعلاقة الفلسفية بينهما بوجه أخص .

فقد تبين لنا كيف كانت فلسفتا كنت وهيوم أكثر الفلسفات الحديثة استجابة للثورة العلمية الحديثة ، حتى أنهما أقاما مشروعهما الفلسفي على أساس التحولات العلمية التي بدأت بكوبرنيكوس واكتملت بنيوتن . وبالنسبة لكوبرنيكوس فقد تجلّى كيف أن فهم هيوم لثورته العلمية هو البذرة الأولى لموقف كنت . وفي هذا الصدد تم تقديم تفسير جديد لحقيقة الثورة الكوبرنيقية الكنطية ، خلافا لكل التفسيرات التقليدية المقدمة في الدراسات السابقة ، وكشف البحث أيضا كيف أن هيوم ظن أن سبب تقدم العلم يكمن في استخدامه للمنهج التجريبي ، ولم يتمكن من اكتشاف عقلانية هذا المنهج ، حيث صدق نيوتن في وصفه لمنهجه بأنه تجريبي ، في حين اكتشف كنت ماهية هذا المنهج التي تتمثل في كونه منهجا عقلانيا أصيلا . وهذا يدل على أن هيوم كان يقتدى بمنهج ظاهره التجريبية وباطنه العقلانية مما يؤكد أن هيوم كان عقلانيا وإن لم يكن على وعى مباشر بذلك . وبالتالي لم يتمكن من تحديد موقعه الفلسفي بدقة ، ولم يتمكن من التنظير له ، لأنه ببساطة ليس على دراية بحرب المواقع في تاريخ الفلسفة .

لقد كان هيوم فيلسوفا عقلانيا ، سواء حسب الاستعمال الاستمولوجي لكلمة العقلانية ، أو حسب الاستعمال الديني لها . حيث كان امتدادا للتقليد العقلاني في الفلسفة الغربية الذي يبحث عن اليقين خارج التجربة وبعيدا عن الحواس . لكن كانت فلسفة هيوم من جهة أخرى منقطعة انقطاعا استمولوجيا مع ذلك التقليد ، لأنه كان بمعزل تام عن التجربة ، في حين عمل هيوم على تلقيح العقل بالتجربة ، وإقامة حوار خلاق بينهما ، بيد أنه حوار تكون فيه المبادرة للعقل وليس للتجربة . فقد آمن هيوم

بالأسبقية المنطقية للعقل ، لكن على العقل نفسه أن يتعلم من التجربة ، وأن يتخلى عن انغلاقه الدوجماتيقي على ذاته . فالعقل يسبق التجربة باشتماله على مبادئ أولية ثلاثة هي : التشابه ، التجاور في المكان والزمان ، العلية . ثم باشتمال هذه الأخيرة على فكرة الضرورة التي تسمح بقيام المعرفة العلمية . وهكذا تحول العقل مع هيوم من منبع للأفكار الفطرية (أفلاطون - ديكارت) إلى بنية ذات مبادئ قبلية تضيفى الوحدة على الانطباعات الحسية وتعيد بناءها . وفى هذا الإطار تم المقارنة بين كنت و هيوم فى موقفهما من قضايا ابستمولوجية هامة مثل : العلية ، الخيال ، اليقين .. وتجلى عبر هذه المقارنة كيف أن تصور كنت للعقل هو نفس تصور هيوم ، غير أن الجديد عند كنت هو تنويع مستويات العقل ، وتوسيع عناصر كل مستوى ، وتعميقها تعميقا ترنسندنتاليا أصيلا .

وجاء موقف كنت من الميتافيزيقا امتدادا لموقف هيوم منها . فلقد كان هيوم ميتافيزيقا نقديا من نوع خاص . ولم يكن تحريره للميتافيزيقا من أوهامها ، هدمها لها أو قضاء عليها ، وإنما كان تأسيسا لمناهجها ، وتجديدا لموضوعاتها ، وتطويرا لأهدافها ، حتى تصبح علما دقيقا محكما . وفى هذا الإطار تم الكشف عن التناظر بين بنية مشروع هيوم ، الميتافيزيقي ، وبنية مشروع كنت ، فالفلسفة عندهما أصبحت نقدا للفهم ، نقدا للأخلاق ، نقدا للأدب والفن .. أصبحت تحليلا للطبيعة الإنسانية بهدف استكشاف مبادئها وحدودها وآفاقها . وبهذا المعنى تغدو الميتافيزيقا علما للإنسان ، وبالتالي تغدو أساسا لكل العلوم النظرية والعلمية ، تلك العلوم التى نكوّن من خلالها تصوراتنا للكون والحياة . ولا يستطيع أحد إنكار أن هيوم قدم نسقا من الأفكار الجديدة الجادة التى غيرت نظرتنا إلى الأشياء ، وأنه مبتكر لأسلوب متميز وطريقة جديدة فى الكلام ، وإذا كان هيوم ميتافيزيقيا بهذا المعنى ، فإنه لا بد أن تكون ميتافيزيقاه دراسة شاملة لما هو جوهرى فى المعرفة والتفسير والوجود ، بيد أنها دراسة من نوع جديد ، تمثل فى حقيقتها ثورة جذرية على كل الميتافيزيقات التقليدية المشتعلة على السفسطة والوهم ،

وسعيًا إلى إدخال الأنواع الدقيقة من الاستدلال في مناهجها بهدف جعلها علما محكما . ولقد تجلّى هذا من خلال تناول هيوم للمشكلات الميتافيزيقية الهامة ، مثل : مشكلة النفس . ورغم اختلاف معالجة هيوم لها عن معالجة كנט ، من الناحية الشكلية ، إلا أنه يتفق معه في مضمون تلك المعالجة ، حيث يستند كנט إلى نفس الأساس الذى استند إليه هيوم فى تنفيذ القول بجوهرية النفس وبساطتها وخلودها ، كما إنه انتهى إلى نفس النتيجة التى انتهى إليها هيوم ، من أن العقل النظرى عاجز عن تقديم براهين محكمة على جوهرية النفس . وإذا كانت توجد بينهما بعض الاختلافات التى تأتى هنا أو هناك ، فإنها رغم عمقها وأهميتها لا تؤثر مطلقا على اتفاقهما الجوهرى حول أسس المعالجة ونتائجها . وفيما يتعلق بمشكلة النقائض فقد ثبت أنها من الأفكار الهيومية الأصلية التى استند إليها هيوم فى تحديده من عالم الشئ فى ذاته . وكل ما فعله كנט هو أنه قد تمكن من عرضها ببراعة عرضا فلسفيا جذابا ومتميزا ، جعل الكثيرين ينسون جذورها فى فلسفة هيوم ، بل عند بعض الفلاسفة القدماء . ومع ذلك فقد كان ولا يزال عرض كנט لهذه النقائض من أعظم ما أُنجزت الفلسفة النقدية ، والأمر لا يختلف كثيرا بالنسبة لموقف هيوم وكنت من مشكلة وجود الله وطبيعته ، فكنت لم يتجاوز هيوم فى نقده لكل الفلسفات الإلهية ، فإذا كان كنت قد أبان امتناع الدليل الانطولوجى والكسمولوجى واللاهوتى والبعديّة على وجود الله ، فإن هيوم قد فند من قبل جميع براهين العقل المحض القبليّة الطبيعيّة على وجود الله ، وإذا كان كنت قد رأى أنه لا يمكن أن تقوم الإلهيات إلا على أساس أخلاقى غائى ، فإن هيوم قد قال بأن وجود الله هو أساس جميع آمالنا ، وأقوى أساس للأخلاق ، وأوطد سند للمجتمع . وإذا كان كنت قد اعتبر الله المثل الأعلى للعقل ، فإن هيوم سبق له التأكيد على أن مبدأ الألوهية هو المبدأ الوحيد الذى لا يغيب فى أى وقت عن أفكارنا وتأملاتنا . وإذا كان كنت قد انتهى إلى استحالة قيام معرفة نظرية عن طبيعة الله ، لأنه لا يوجد لدينا أية تجربة عنها ، ولأن العقل

إذا ما تجاوز نطاق التجربة سقط في التناقض ، فإن هيوم قد انتهى من قبل إلى ذات النتيجة .

إن القراءة المتأنية الدقيقة والتحليلات المقارنة لنصوص كنت وهيوم ، تظهرنا على أعماق تجعل المرء يجزم بلا تردد بإمكانية النظر إلى هيوم وكنت باعتبارهما وجهين لشيء واحد وحيد ، فكنت هو «هيوم الألماني» وهيوم هو «كنت الإنجليزي» ! فلقد كان تأثير هيوم في كنت تأثيراً كبيراً وعميقاً منذ اللحظات الأولى من تطوره الفكري ، وعبر كل المراحل التي مر بها كنت كان لهيوم حضور كبير سواء في المرحلة ذاتها أو في الانتقال منها . ففي نهاية المرحلة الأولى من تطور كنت ، وهي المرحلة العقلانية الجذرية انتزع هيوم كنت بشدة منها ، لكن كنت انجذب انجذاباً كبيراً ، لا نحو عقلانية هيوم المؤسسة تجريبياً ، وإنما نحو النقيض : التجريبية الصارمة ، وهي المرحلة الثانية من تطور كنت . وفيها يعتبر تأثير هيوم تأثيراً سلبياً ، بمعنى أنه حرر كنت فقط من العقلانية الميتافيزيقية . أما التأثير الحقيقي الإيجابي (= الیقظة الكاملة) ، فقد حدث عندما شكك هيوم كنت في التجريبية الجذرية على أساس أنها لا تكفل الضرورة ولا الكلية كشرطين للمعرفة اليقينية ، وهنا تحول كنت نحو المرحلة النقدية لا تحول المقلدين ، فما هكذا كان كنت ، وما ينبغي له ، وإنما تحول المبدعين ، لكنه ليس الإبداع بمعنى التجاوز في النتائج ، وإنما الإبداع بمعنى التعميق البرهاني والتوسع التحليلي .

وكان السبب الحقيقي لاكتشاف كنت للمشكلة النقدية ليس أحادياً ، يتمثل في «مشكلة السببية» فقط ، بل كان ذا شقين ، أهمهما من وجهة نظري هو الشق المتعلق بنقائض العقل . ولا يعني هذا تقليصاً لدور هيوم ، إذ أن من الشائع أن أثر هيوم في كنت كان عن طريق مشكلة السببية . ففي الواقع أن التأكيد على مشكلة النقائض في تفسير تطور كنت هو تأكيد على دور هيوم أكثر من أي وقت مضى ، لاسيما مع التفسير الجديد لفلسفة هيوم الذي كشف النقاب عن تضمن تلك الفلسفة لفكرة النقائض .

وبالوصول إلى المرحلة الأخيرة من البحث تعرضنا لسؤال الأسئلة : هل

أجاب كنت على هيوم ؟ وفى إطار الإجابة على هذا السؤال أثبتنا أن إشكال هيوم - على عكس كل الأبحاث السابقة - لم يكن بحاجة إلى حل من خارج فلسفة هيوم نفسها ، ومن هنا فإن كنت لم يجب على هيوم ، لا لأنه فشل فى الإجابة ، وإنما لأن هيوم نفسه قدم الإشكال والحل معا فى آن واحد ، فجاء كنت وعمق الحدس الفلسفى الهيومى ، ورسخه ترنسندنتاليا سواء فى جانبه الإشكالى أو جانبه الإيجابى . وهذا ما لم يشر إليه أى من الباحثين السابقين فى العلاقة الفلسفية بين كنت وهيوم ، وقد تأكد هذا من خلال عرض ومناقشة وجهات نظرهم التى كانت تدور فى فلك التبعية للرؤية التى قدمها كنت بشأن النسب الفلسفى بينه وبين هيوم ، رغم اختلاف بعض الباحثين مع كنت فى مسألة أو أكثر هنا أو هناك ، فالجميع يعتقدون - تحت تأثير كنت - أن علاقته بهيوم هى علاقة سائل بمجيب ، وكأن فلسفة هيوم هى فلسفة «سؤال» وفلسفة كنت هى فلسفة «إجابة» . وهذا ما ثبت خطؤه ، لأن فلسفة هيوم هى فلسفة سؤال وإجابة معا ، وكنت لم يتجاوز هيوم ، لأن فلسفته لم تكن «إجابة» «على إشكال هيوم» ، وإنما كانت تعميقا ترنسندنتاليا ليس فقط للمشاكل والأسئلة التى أثارها هيوم ، وإنما أيضا لنتائجه وحدوسه الفلسفية .

فكل النتائج التى انتهى إليها كنت فى فلسفته المعرفية والميتافيزيقية ، ومعظم المبادئ التى استند إليها فى تحليلاته ، وأغلب المشكلات الفلسفية التى أثارها ، هى نتائج ومبادئ ومشكلات ديفيد هيوم ، مع شىء جديد من التعميق المبدع والتحليل العبقري على الطريقة الألمانية .

*** ** *

بيان بأهم المصادر والمراجع

سنقتصر فى هذه القائمة على أهم المصادر والمراجع ، مع ذكر أهم الطباعات التى رجعنا إليها . أما الطباعات والمراجع الأخرى التى استفدنا منها أيضا ، فسنتفى بإشارتنا إليها فى هوامش البحث .

أ- المصادر الأجنبية : أعمال هيوم وكنط :

- A treatise of Humane Nature Edition : seliby - Begge, Oxford-claredon press .

- An Enquiry concerning Human understanding . Edition : seliby-Bigge, oxford .

- An Enquiry concerning the principles of Morals. Edition : seliby-Bigge, oxford .

- The Natural History of Religion. Edition : A.W. colver. Oxford .

- Dialogues concerning National Religion. Edition : j.v. price, Oxford .

- Essays Moral, political and literary. Edition : T.H. Green and T.H. Grose, 2 vol London .

- Critique of pure Reason, Trans. by N. kemp smith, Macmillan, London.

- Prolegomena to Future, Metaphysics that will be present itself as a science, trans by p. Lucas, Lucas, Manchester university press.

- Metaphysical Foundations of Natural Science,

trans. by E.B. Bax Bohn's philosophical Library .

- The Fundamental principles of the Metaphysics of Ethics, N.Y., Appleton-century crafts, Inc .

ب (المراجع الأجنبية :

- Allison H.E., Transcendental Idealism and descriptive Metaphysics, Kantstudien, 1969, 60, 216-233 .

- Transcendental Affinity, kant's Answer to Hume, proceedings of the third international kant congress, 1970 , 203 - 211 .

- Ardal p.s., passions and value in Hume's Treatise, Edinburg, 1966 .

- Atkinson R.F., Hume on Is and ought. a Reply to Mac Intyre, The philosophical Review, 1961 , 70,231-238 .

- Beattie, Essay on the Nature and Immutability of , in opposition to sophistry and scepticism , 1770

- Beck L.W., A commentary on kant's critique of practical Reason, chicago 1960 .

- Beck L.W., Early German philosophy, kant and his predecessors, Cambridge (Mass,) 1969 .

- Bennet J., kant's Analytic, cambridge 1966 .

- BennetJ., kant's Dialectic, cambridge, 1974 .

- Berkeley, A treatise concerning the principles of Human understanding, 1710 .

- Bird G., kant's Theory of knowledge, London, 1962 .

- Butler R. j., Natural Belief and the Enigma of Hume, Archirfur Geschichte der philosophie, 1960, 42, 73 - 200 .

- Butts R.E., Hume's Scepticism, journal of the History of Ideas , 1959, 20 , 413 - 419 .

- Cassirer H.W., A commentary on kant's critique of judgement, London 1938 .

- Church R.W., Hume's Theory of the understanding, London 1935 .

- Courtines p., Boyle, Hume and Berkeley, Revue de litterature comparee, 1947, 21, 416 - 428 .

- England F.E., kant's conception of God, New York, 1929 .

- Findlay j.N., kant and Anglo-saxon criticism, preceeding of the third international kant congress, 1970, 12, 128 - 148 .

- Findlay j.N., kant today, Actes due congres d'ottawa sur kant, 1974, ottawa, 1976, 3 - 16 .

- Groos k., Hat kant Humes Treatise gelesen? kantstudien, 1901, 5, 177 - 181 .

- Harrisson J., Hume's moral Epistemology, London, 1967 .

- Heidegger M., kant und des problem der Metaphysik, Bonn 1929, Trad. A de wallhens et w.Biemel, paris 1953 .

- Hurlbutt R.H., Hume Newton and the Deisgn Argument, Lincoen, 1965 .

- Hurlbutt R.H., David Hume and scientific theism. journal of the History of Ideas, 1956, 17, 464-496 .

- kuntz, p.G., Hume's Metaphysics : A new of order, Religious studies, 1976, 12, 401-428 .

- kuypers M.S., studies in the 18th century Background of Hume's Empiricism, Minneapolis, 1930 .

- Kudd R.M., Reason and conduct in Hume's Treatise, London, 1946 .

- Locke, Essay concerning Human understanding, 1690 .

- Love joy A., on kant's Reply to Hume, Archiv fur Geschichte der philosophie, 1960, 19, 380-407.

- Malherbe M., kant ou Hume, paris, 1980 .

- Merlan p., kant, Hamann, Jacobi and schelling on Hume, Rivista critica di storia della fillasofia, 1967, 22, 481 - 94 .

- Massner E.C., The enigma of Hume, Mind, 1936, 45, 334 - 349 .
- Noxon, J. Hume's philosophical development, a study of his Methods, oxford 1973 .
- Paton H., J kant's Metaphysics of Experience, London, 1936.
- Popkin R.H., scepticism in the Enlightenment, transactions of the first international congress on the Enlightenment, 1963, 1321 - 1345 .
- Schipper E.W., kant's Answer to Hume's problem, kantstudien, 1961, 53, 68 - 74 .
- Smith N.kemp, A commentary to kant's critique of pure Reason, London, 1918 .
- Smith N.kemp, kant's Relation to Hume and to Leibinz, philosophical Review, 1915, 24, 288 - 296 .
- Smith N.kemp, Hume's Dialogues concerning natural Religion, with an introduction, oxford, 1935.
- Smith N.kemp, The philosophy of David Hume, London, 1941.
- Strling J.H., kant has not answered Hume, Mind 1884 - 1885, 9, 531-547. 10 , 47-72 .
- Williams M.E., kant's Reply to Hume, ka-

ntstudien, 1965, 56, 71 - 178 .

- Wolff R.P., kant's Debt to Hume via Beattie,
journal of the History of Ideas, 1960 , 21, 117-123.



ج . الترجمات العربية لبعض أعمال هيوم وكنط :

- هيوم : محاولات في الدين الطبيعي ، ترجمه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمد فتحى الشنيطى .

(مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٥٦) .

- كنط : * تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق . له ترجمتان : إحداهما للدكتور عبدالغفار مكاوى - مراجعة الدكتور عبدالرحمن بدوى (القاهرة ١٩٦٥) الدار القومية للطباعة والنشر .

والأخرى للدكتور محمد فتحى الشنيطى . (بيروت ، ط م ١٩٧٠) .

* مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما ، ترجمة د/ نازلى إسماعيل ، مراجعة الدكتور عبدالرحمن بدوى (القاهرة : دار الكاتب العربى ، ١٩٦٨) .

* نقد العقل المحض ، له ترجمتان عربيتان (أعجميتان) من المتعذر قراءتهما ، تتسمان بالغموض والاستغلاق ، رغم ما بذل فيهما من جهد كبير ولا يزال الكتاب بحاجة إلى جهد أكبر حتى يمكن أن ينقل إلى العربية بلغة مفهومة . الترجمة الأولى قام بها الاستاذ / أحمد الشيبانى .

(بيروت : دار اليقظة العربية ، ١٩٦٥) .

والترجمة الثانية : قام بها الدكتور موسى وهبة

(بيروت : مركز الإنماء القومى ، ١٩٨٨) .

وقام الدكتور عبدالغفار مكاوى بترجمة دقيقة لمدخل النقد مع مقدمتى الطبعة الأولى والثانية ، فى مذكرة بدون بيانات نشر .

٥- المراجع العربية والمترجمة إلى العربية :

- أميل برهيه ، تاريخ الفلسفة ، القرن الثامن عشر ، ترجمة جورج طرابيشي (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٣) .

- أميل بوترو ، كنت ، ترجمة دكتور عثمان أمين (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢) .

- أورمسون وآخرون ، الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمة فؤاد كامل وجلال العشري وعبدالرشيد الصادق ، مراجعة دكتور زكي نجيب محمود (القاهرة : مكتبة الانجلو ، ١٩٨٢) .

- أوفي شولتز ، كنت : ترجمة دكتور أسعد رزوق (بيروت العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٥) .

- د. بدوى عبدالفتاح ، الأسس الفلسفية لمفاهيم علم الفيزياء . رسالة دكتوراه بإشراف : الأستاذ الدكتور يحيى هويدى (جامعة القاهرة ١٩٨٧) .

- د/ بدوى عبدالفتاح . وابتهد وفلسفته فى العلوم الطبيعية . ماجستير بإشراف الأستاذ الدكتور يحيى هويدى (جامعة القاهرة ١٩٧٩) .

- برتراند رسل ، حكمة الغرب ، الجزء الثانى : الفلسفة الحديثة والمعاصرة ترجمة الدكتور فؤاد زكريا (الكويت : عالم المعرفة ٧٢ ، ١٩٨٣) .

- د/ توفيق الطويل ، فلسفة الأخلاق (القاهرة : دار الثقافة ١٩٨٥)
- جاك شورون ، الموت فى الفكر الغربى ، ترجمة يوسف كامل حسين ، مراجعة وتقديم الدكتور إمام عبدالفتاح إمام (الكويت : عالم المعرفة ٧٦ ، ١٩٨٤) .

- چان بياجيہ ، البنيوية ، ترجمة عارف منيمه ويشير أوبرى (بيروت : عويدات ، ١٩٨٢) .
- چان لاکروا ، کانت والکانتية ، ترجمة نسيب عبيد (بيروت : المنشورات العربية ، ١٩٧٧) .
- چون هرمان راندال ، تكوين العقل الحديث ، ترجمة الدكتور جورج طعمة ، مراجعة برهان داجاني (بيروت : دار الثقافة ١٩٦٦) .
- د/ حسن حنفي في الفكر الغربي المعاصر ، قضايا معاصرة ٢ (بيروت : دار التنوير ١٩٨٢) .
- د/ حسن حنفي مقدمة في علم الاستغراب (القاهرة : مكتبة مدبولي تحت الطبع) تمت قراءة الأصول الخطية .
- د/ زكريا إبراهيم ، كانت والفلسفة النقدية (القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٦٣) .
- د/ زكريا إبراهيم ، مشكلة البنية (القاهرة - مكتبة مصر ، ١٩٧٥) .
- د/ زكي نجيب محمود ، ديفد هيوم (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٧)
- د/ زكي نجيب محمود ، موقف من الميتافيزيقا (الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الشروق ، ١٩٨٣) .
- د/ صادق جلال العظم ، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة (بيروت : دار العودة ، ١٩٦٦) .
- د/ عبدالرحمن بدوي ، الأخلاق عند كنت (الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٩) .
- د/ عبدالرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي (الكويت ، وكالة المطبوعات ١٩٧٧) .

- د/ عبدالرحمن بدوى ، كنط (الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧) .
- د/ عثمان أمين ، رواد المثالية فى الفلسفة الغربية (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٧) .
- غاستون باشلار ، فلسفة الرفض ، ترجمة الدكتور/ خليل أحمد خليل . (بيروت : دار الحديث ، ١٩٨٥) .
- غاستون باشلار ، العقلانية التطبيقية ، ترجمة الدكتور بسام الهاشم (بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٧) .
- غاستون باشلار ، الفكر العلمى الجديد ، ترجمة الدكتور عادل العوا (بيروت : المؤسسة الجامعية ، ١٩٨٣) .
- فرانكلين - ل - باومر ، الفكر الأوربى الحديث : الاتصال والتغير فى الأفكار من ١٦٠٠ - ١٩٥٠ ، الجزء الثانى (القرن الثامن عشر) ترجمة الدكتور/ أحمد حمدى محمود (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨) .
- د/ فؤاد زكريا ، نظرية المعرفة والموقف الطبعى للإنسان (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٧) .
- د/ فؤاد زكريا ، الجذور الفلسفية البنائية (الكويت : حوليات كلية الآداب ١ ، ١٩٨٠) .
- لينين ، المادية والمذهب التجريبي النقدى .
- تعليقات نقدية على فلسفة رجعية ، ترجمة الدكتور فؤاد أيوب (سوريا : دار دمشق ، ١٩٧٥) .
- د/ محمد فتحى الشنيطى ، فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد . (القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٥٦) . س

- د/ محمد مهران ، فكرة الضرورة المنطقية (ماجستير - جامعة القاهرة)
- محمود أمين العالم ، فلسفة المصادفة (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠) .
- د/ محمود رجب ، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٦) .
- د/ محمود زيدان ، كمنطوق وفلسفته النظرية (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٨) .
- د/ محمود زيدان ، الاستقراء والمنهج العلمى (بيروت : مكتبة الجامعة العربية ، ١٩٦٦) .
- د/ محمود سيد أحمد ، كانط وموقفه من الميتافيزيقا ، ماجستير - بإشراف دكتورته أميرة حلمى مطر (جامعة القاهرة ، ١٩٨٢) .
- د/ مراد ودبة ، المذهب عند كمنطوق ، ترجمة من الفرنسية للدكتور/ نظمى لوقا (القاهرة : الانجلو المصرية ، ١٩٧٩) .
- د/ مراد وهبة ، المعجم الفلسفى (الطبعة الثالثة - القاهرة : دار الثقافة الجديدة ، ١٩٧٦) .
- مطاع صفدى ، استراتيجيات التسمية فى نظام الأنظمة المعرفية (بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٦) .
- د/ موسى وهبة ، المشكلة الكمنطوقية - مجلة الفكر العربى ، العدد ٤٨ . (بيروت ، ٩ - ٣٢) .
- هيجل موسوعة العلوم الفلسفية ، ترجمة الدكتور/ إمام عبدالفتاح إمام (بيروت : دار التنوير ، ١٩٨٠) .
- د/ يحيى هويدى ، دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة (القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨١) .

- د/ يمنى طريف الخولى ، كارل بوبر - منهج العلم .. منطق العلم
(القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٩) .
- يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة . (القاهرة : دار المعارف ،
١٩٨٢) .
- يوسف كرم الطبيعة وما بعد الطبيعة . (القاهرة : دار المعارف ،
١٩٦٦) .



الفهرست

الموضوع	الصفحة
* المقدمة	٧
* الفصل الأول : العلم والمشكلة الهيومو -	
كنطية .	١٥
* الفصل الثاني : عقلانية هيوم في ضوء عقلانية	
كنط .	٥٥
* الفصل الثالث : موقف هيوم من الميتافيزيقا	
ومشكلاتها في ضوء موقف	
كنط .	١٠١
* الفصل الرابع : أثر هيوم في تطور التفكير	
الكنطى : قراءة هيومية	
للفلسفة النقدية في تكونها .	١٦٣
* الفصل الخامس : هل أجاب كنط على	
هيوم ؟	٢٠٥
* الخاتمة : أهم النتائج .	٢٣٨
* المصادر والمراجع .	٢٤٣

*** **

